مجلة الاستناد

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الشرعية والعلوم الإنسانية / تصدر بالمملكة المغربية

المدير المسؤول: د. محمد خروبات

عدد خاص

الأمن الروحي

مقالات منتقاة من أعمال الندوة الدولية:
- التعليم الجامعي والبحث الأكاديمي وحماية الأمن الروحي للمغاربة -

من تنظيم مجموعة البحث في مناهج الاستمداد والاستدلال من القرآن والسنة وتطبيقاتها المعاصرة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة القاضي عياض بمراكش
أيام 2-3-4 ماي 2018

تنسيق: د. سعيد النكر

إشراف: د. محمد خروبات

العدد الخامس - ربيع 2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام

على أشرف المرسلين سيدنا

الأمن الروحي

عدد خاص بمشاركة:

الأستاذ الدكتور محمد خروبات _____ جامعة القاضي عياض مرا كش

الأستاذ الدكتور أحمد البوكيلي_____ جامعة محمد الخامس الربا ط

الأستاذ الدكتور حميد محديد _____جامعة الجلفة الجزائر

الأستاذ الدكتور عبد الرحيم العبدلاو ي _____ جامعة محمد الخامس الربا ط

الأستاذ الدكتور أناس لغبيسي _____ جامعة محمد الخامس الربا ط

الأستاذ الدكتور محمد الناصري _____ جامعة المولى سليمان بني ملا ل

الأستاذ الدكتور لطفي الحضر ي _____ جامعة محمد الخامس الربا ط

الدكتور سعيد النكر _____جامعة القاضي عياض بمراكش

الباحثة صليحة الطالب _____ جامعة محمد الخامس الربا ط

الدكتورة للا عائشة عدنان جامعة القرويين معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآ نية الرباط

عبد العلي بلامين _____ جامعة المولى عبد الله فا س

الأستاذ الدكتور محمد أسمو _____ جامعة القاضي عياض مراكش

الدكتور عبد الصادق بطني_____ جامعة محمد الخامس الربا ط

الباحث إبراهيم أحتشاو _____ جامعة محمد الخامس الربا ط

الباحث محمد لحبيب _____ جامعة محمد الخامس الرب ط

الدكتور سعيد بو مزوغ _____ جامعة محمد المولى اسماعيل الربا ط

مجلة الاستناد

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الشرعية والعلوم الإنسانية / تصدر بالمملكة المغربية

العدد الخامس ربيع عام 2021م

المدير المسؤول:

د. محمد خروبات

أستاذ التعليم العالي، جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية

رئيس التحرير:

الدكتور سعيد النكر

أستاذ التعليم العالي، جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية

هيئة التحرير

الدكتورمنصف لكريسيـــ أستاذ التعليم العالي،جامعة القاضي عياض، مراكش

الدكتورة بثينة الغلبزوري ـ أستاذة التعليم العالي، جامعة محمد الخامس، الرباط

الدكتور عبد الكريم عكيوي أستاذ التعليم العالي، جامعة ابن زهر، أكادير

الدكتور إبراهيم أحتشاو ـــــــــــــــــــــــ جامعة محمد الخامس، الرباط

الجهة المشرفة على المجلة

مستقلة، ليس لها أي انتماء سياسي أو نقابي أو حزبي

رقم الإيداع القانوني للمجلة: 2013PE0013

ISSN: 2028-9979

ملف الصحافة عدد: 2019/05 ص - النيابة العامة مراكش

أعضاء الهيئة العلمية الاستشارية

الدكتور حمزة المليباري ـــــــــــــــــــــــــــــــجامعة الوصل، الإمارات العربية المتحدة.

الدكتور عبد الرزاق الجاي ـــــــــــــــــــــــ جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية.

الدكتور محمد خروبات ـــــــــــــــــــــــ جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية.

الدكتورة أمينة السعدي ـــــــــــــــــــــــ جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية.

الدكتور منصف لكريسي ـــــــــــــــــــــــ أستاذ التعليم العالي، جامعة القاضي عياض، مراكش.

الدكتورة بثينة الغلبزوري ـــــــــــــــــــــــ أستاذة التعليم العالي، جامعة محمد الخامس، الرباط.

الدكتور عبد الكريم عكيويـــــــــــــــــــــــأستاذ التعليم العالي، جامعة ابن زهر، أكادير.

الدكتورة لطيفة الوارتيـــــــــــــــــــــــ جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية.

الدكتور عبد السلام أبو سمحةـــــــــــــــــــــــجامعة الوصل، الإمارات العربية المتحدة.

الدكتور حميد قوفي ـــــــــــــــــــــــ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر.

الدكتور ميمون باريش ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــجامعة القاضي عياض بمراكش.

الدكتور عبد القادر مصطفى المحمدي ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ الجامعة العراقية، العراق.

الدكتور زكريا كولرـــ جامعة الفاتح، تركيا.

الدكتور عمر محمد عبد المنعم الفرماويـــــــــــــــــــــــ جامعة تبوك، المملكة العربية السعودية.

الدكتور محسن بن موسى الحسني ـــ رئيس رابطة علماء المسلمين لدول أمريكا اللاتينية، البرازيل.

الدكتور محمد المفتي الحسني ـــــــــــــــــــــــــــــــجامعة آل البيت، المملكة الأردنية الهاشمية.

الدكتور عبد الغني بن سعد الشمراني ـــــجامعة الأمير سلطان بن عبد العزيز، المملكة العربية السعودية.

الدكتور الحسين عاصم ـــــــــــــــــــــــ مهتم بالتراث التفسيري الأندلسي، مدير مجلة سوس العالمة.

الدكتور سعيد النكرـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية.

شروط النشر في المجلة

- أن تكون أصيلة ومبتكرة، وتتسم بالجدة والطرافة.
- أن تتطرق إلى قضايا شرعية ودينية، مع الانفتاح على العلوم الإنسانية المعاصرة.
- أن لا تكون منشورة من قبل أو مقدمة للنشر لدى جهة أخرى.
- أن تكون مستوفية لشروط البحث العلمي من حيث الشكل والمضمون، وأن تتقيد بالضوابط العلمية والأكاديمية المتعارف عليها.
- أن ترسل البحوث والمقالات في نسختين رقميتين إحداهما بصيغة **word** والأخرى بصيغة **pdf**.
- توضع هوامش كل صفحة في نهايتها، وتُعْتَمَد الصيغة التالية في الإحالة والتوثيق: المؤلف، الكتاب، مع ذكر معلومات الكتاب كاملة عند أول ذكر له في المقالة.
- ترتب المصادر والمراجع في نهاية البحث، مع ذكر معلوماتها كاملة: إسم المؤلف، عنوان الكتاب، دار النشر، بلد النشر، السنة.
- في حالة النشر، يصبح المقال في ملكية المجلة ولا يحق لصاحبه إعادة نشره لدى جهة أخرى.
- تقبل المقالات المحررة باللغات: العربية، الفرنسية، الإنجليزية.
- يرسل الباحثون أعمالهم مصحوبة بسير ذاتية تظهر مسارهم الأكاديمي ومجالات اهتمامهم العلمية.
- في حال عدم قبول البحث، المجلة غير ملزمة بإبداء أسباب الرفض.
- المقالات تعبر عن رأي أصحابها، ولا تتحمل المجلة أي مسؤولية عن مضامين وأفكار ومواقف المؤلفين..

ترسل المقالات عبر البريد الالكتروني:

alistinad.revue@gmail.com

محتويات العدد الرابع

الكلمات الافتتاحية 9

كلمة لجنة التنسيق 11
الأستاذ الدكتور سعيد النكر، جامعة القاضي عياض بمراكش

كلمة الجهة المشرفة على الندوة (مجموعة البحث) 15
الأستاذ الدكتور محمد خروبات، جامعة القاضي عياض بمراكش

كلمة رئيس تكوين الدكتوراه: "الفكر الإسلامي المعاصر وقضايا المجتمع والبيئة في العالم المتوسطي" 11
الأستاذ الدكتور العربي بوسلهام، جامعة محمد الخامس بالرباط

المداخلات العلمية 23

التعددية الدينية وحوار الأديان في المغرب 25
د. محمد خروبات، جامعة القاضي عياض بمراكش

أي دور للجامعة والبحث الأكاديمي في مجال الأمن الروحي 37
د. مولاي أحمد البوكيلي، جامعة محمد الخامس الرباط

مقومات الأمن الروحي في الإسلام 45
د. حميد محديد، جامعة الجلفة بالجزائر

إسهامات المذهب المالكي في تحقيق الأمن الروحي 61
د. أناس لغبيسي، جامعة محمد الخامس بالرباط

الأمن الروحي في الإسلام تجلياته ومقوماته من خلال القرآن والسيرة النبوية . 83
د. عبد الرحيم العبدلاوي، جامعة محمد الخامس الرباط

منظومة القيم القرآنية والأمن الروحي 113
د. محمد الناصري، جامعة المولى سليمان ببني ملال

استمدادات الأمن الروحي من خلال سورة الإسراء. 143
د. لطفي الحضري / ذة.صليحة الطالب، جامعة محمد الخامس بالرباط

الأمن الفكري ضوابطه ووسائل تنميته في الإسلام 171
دة. للا عائشة عدنان، معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية بالرباط

الإستراتيجية الدينية المغربية لتحقيق الأمن الروحي 193
عبد العلي بلامين، باحث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس

التصوف السنيّ وصيانة الأمن الروحي 201
محمد اسموني، باحث في التاريخ جامعة القاضي عياض مراكش

إمارة المؤمنين والأمن الروحي...أية علاقة..... 217
د. عبد الصادق بطني، جامعة محمد الخامس الرباط

حب الأوطان وتحقيق الأمن الروحي في السنة النبوية 233
إبراهيم أحتشاو، باحث بجامعة محمد الخامس بالرباط

تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على الأمن الروحي للمجتمع 267
الباحث محمد الحبيب، جامعة ابن زهر أكادير

الخطاب الديني المعتدل وأثره في تحقيق الأمن الروحي للمغاربة المقيمين بالغرب..... 289
د.سعيد بومزوغ، أستاذ متعاقد، جامعة المولى إسماعيل، مكناس

الكلمة الختامية 323
أ.د. محمد خروبات، المشرف العام على الندوة

الكلمات الافتتاحية

كلمة لجنة التنسيق

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد أصبح موضوع الأمن الروحي موضوعا متداولا على الألسن منتشرا في صفحات المجلات والجرائد، بل وتسرب إلى الدراسات والأبحاث، وكذا وثائق الإدارات وقرارات المحاكم وأحكامها، كما استعمل المصطلح استعمالات متباينة الانتماء، مختلفة المرجعية، ومتعددة الفهوم، استعمله الأمني والسياسي والإعلامي والفقيه والباحث الأكاديمي، في علم الاجتماع، والخطابات السياسة، والخطب الدينية، والفقرات الإعلامية، والدراسات والأبحاث الأكاديمية.

ورغم هذا الاستفاضة في التداول ما زالت دلالات هذا المفهوم خفية، محتملة لمعاني كثيرة، فيها الظاهر والباطن والمعلن والمضمر، مما يجعل هذا الدال اللغوي التواصلي المعاصر معرضا للاستعمال المغرض فكريا وسياسيا وإيديولوجيا، وهذا يدعو بطبيعة الحال إلى النبش في ثنايا وخفايا هذا المصطلح، من أجل فهمه، وإدراك دلالاته، وتحديد معانيه، وتقريب الفهوم له، وتوحيد التصورات والإدراكات حوله.

وهذا لن يتأتى إلا بالدراسة العلمية الموضوعية له، وتسليط مجهر البحث العلمي الأكاديمي عليه وتشريح مكوناته وفهم علاقاته الداخلية والخارجية، والإحاطة بإشكالياته وآفاقه.

وقد أخذت مجموعة البحث: مناهج الاستمداد والاستدلال من القرآن والسنة وتطبيقاتها المعاصرة، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، على عاتقها هذه المسؤولية العلمية البحثية، وجعلت موضوع الأمن الروحي محورا للبحث والتدارس والمناظرة العلمية الأكاديمية، وفتحت المجال أمام المتخصصين والمهتمين والباحثين من مختلف التخصصات العلمية، محترمة الشروط الأكاديمية للندوات العلمية، فتقاطرت البحوث والدراسات من مختلف المواقع الجامعية داخليا وخارجيا: من تطوان وفاس ووجدة ومكناسة الزيتون وأكادير والرباط وبني ملال ومن الشقيقة الجزائر وأرض الكنانة مصر ودولة فرنسا، ومن مختلف التخصصات العلمية: الدراسات الأدبية والعلوم السياسية والدراسات الإسلامية والدراسات الاجتماعية والقانونية. مما

يعبر على أن قلق السؤال وهم البحث في هذا الموضوع يتقاسمه باحثون أكاديميون من مختلف الفنون والتخصصات العلمية.

وبعد التداول والتحكيم أسفرت النتائج على هذه النخبة من البحوث المتميزة موضوعا ومضمونا ومنهجا، تناولت الموضوع من مختلف جوانبه، وإن كان الأمر يستدعي المزيد من الدراسة والبحث والتدقيق، لتعبر الجامعة عن فعاليتها وأهميتها في خدمة قضايا الأمة والوطن، وليعبر الباحث الأكاديمي عن انخراطه في قضايا محيطه الاجتماعي والديني والسياسي.

إن الجامعة تتحمل مسؤولية تاريخية وأمانة حضارية في رعاية الأمن الروحي للإنسانية وفي صيانة سلوكهم الاجتماعي والأخلاقي والديني، ليتسم بالاتزان والاعتدال، ولها دور فعال في الحفاظ على الانسجام الروحي والثقافي والفكري داخل المجتمع الإنساني عامة، وداخل الأقطار المختلفة بشكل خاص، وهذا لن يتأتى إلا بالدراسة العلمية الموضوعية لقضايا الواقع ونوازل العصر، والفهم السليم المستحضر لروح العصر ولهموم الإنسانية وانتظاراتها، والمتوسل بالعدة المنهجية المناسبة والمتطورة والمتجددة والمواكبة.

لقد آن الأوان لينخرط الأكاديمي والباحث والمثقف في هموم الأمة والوطن، أو ليستعيد أدواره الريادية في صلاح الإنسان، وإصلاح وتوجيه الفعل الإنساني لما فيه خير الإنسانية، لقد آن الأوان ليستعيد المثقف والأكاديمي والعالم والمفكر أدواره الإصلاحية: المعرفية، والفكرية، والسياسية، والاجتماعية والثقافية. والجامعة والباحثون فيها لهم الأدوار الحاسمة في هذه المهمة الحضارية، وهي: نفع الإنسانية، وتحقيق الأمن الروحي للأوطان والمجتمعات، وصيانة هويتها الثقافية والدينية.

إن أهم القضايا والأهداف العلمية التي يثيرها موضوع فهم الأمن الروحي وضبط اصطلاحه وتوحيد الفهوم والإدراكات الجماعية حوله تتجلى في الآتي:

- التعرف على مقومات الأمن الروحي الدينية والتاريخية والسياسية.
- إدراك سبل صيانة الأمن الروحي ودور ذلك في الحفاظ على الهوية الثقافية في الوقت المعاصر.
- التعرف على مستجدات العصر وتأثيرها على الأمن الروحي للمجتمعات والأفراد.

- التعرف على سبل درء المهددات والأخطار المتربصة بهذا الأمن الروحي.
- التعرف على كيفيات مساهمة البحث العلمي الأكاديمي والتعليم الجامعي والمدرسي بكل أصنافه ومستوياته في درء مهددات الأمن الروحي والفكري للمجتمعات.

ويجد القارئ الكريم بين يديه نخبة من المقالات العلمية المتميزة، التي حاولت دراسة موضوع الأمن الروحي في الكثير من جوانبه وأبعاده، مسلطة مجهر البحث العلمي على دقائقه، ومعملة مشرح النقد في ثناياه وخفاياه، ساعية لسبر أغواره، واكتناه أسراره، واغتنام فوائده، محللة تارة ومفسرة أخرى، وناقدة أحيانا وشارحة أحيانا أخرى، بل من الباحثين والأساتذة الدارسين من استعمل العدة المنهجية لعلوم معاصرة لاستكشاف أسرار وخبايا مفهوم الأمن الروحي، فعرضه بعضهم على نظريات ومناهج علم النفس، وقاسه البعض الآخر بموازين تاريخية، والآخر بمقاييس اجتماعية، وعرضه بعضهم على فنون وعلوم شرعية، واهتم الباقي بجوانب وجدانية ودينية وسياسية لهذا الموضوع البحثي.

وكل ما قيل وما أبدع في هذه البحوث المتميزة لا يمكنه أن يفي بالغرض في فهم هذا الموضوع، أو أن يدعي أنه أضاء كل غوامضه، وأجاب عن مجمل أسئلته، بل هو حقق جزءا يسيرا من ذلك، وأثار من الأسئلة أكثر مما قدم من الأجوبة، ليفتح الباب أمام المزيد من الدراسات والأبحاث حول هذا الهم الوطني والإنساني، الذي يشغل بال السياسيين والمفكرين والمثقفين والعلماء والحكام ورجال الدين، بل يشغل فكر الناس أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

منسق الندوة:

الأستاذ الدكتور سعيد النكر

أستاذ التعلم العالي، جامعة القاضي عياض بمراكش

كلمة الجهة المشرفة على الندوة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد باسم اللجنة المنظمة لهذه الندوة المباركة، أرحب بالمشاركين فيها. فمرحبا بكم جميعا أساتذة وباحثين وأستاذات وباحثات.

قطعتم المسافات وعبرتم عن ذلك الصدق الذي يحمله الباحث الأكاديمي في خدمة العلم والمعرفة، وكنتم الصورة المثالية للتضحية والبذل في سبيل ذلك.

أيها الحضور الكريم لقد يسر الله عز وجل اختيار موضوع الأمن الروحي محورا أساسيا لندوتنا المباركة هذه، وهو الموضوع المتداول على الألسن والمبثوت في صفحات المجلات والجرائد، بل وتسرب إلى الدراسات والأبحاث، وكذا وثائق الإدارة وقرارات المحاكم وأحكامها.

واستعمل استعمالات متباينة الانتماء ومختلفة المرجعية ومتعددة الفهوم، استعمله الأمني والسياسي والإعلامي والفقيه والباحث الأكاديمي في علم الاجتماع والسياسة والعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية.

لكن دلالات هذا المفهوم بقيت خفية محتملة لمعاني كثيرة فيها الظاهر والباطن والمعلن والمضمر، مما يجعل هذا الدال اللغوي التواصلي المعاصر معرضا للاستعمال المغرض فكريا وسياسيا وإيديولوجيا. وهذا يدعو بطبيعة الحال إلى النبش في ثنايا وخفايا هذا المصطلح، قصد توحيد الرؤية فيه أو تريب الرؤى حوله.

وهذا لن يتأتى إلا بالدراسة العلمية الموضوعية له، وتسليط مجهر البحث العلمي الأكاديمي عليه وتشريح مكوناته وفهم علاقاته الداخلية والخارجية، والإحاطة بإشكالياته وآفاقه.

وقد أخذت مجموعة البحث: مناهج الاستمداد والاستدلال من القرآن والسنة وتطبيقاتها المعاصرة، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، على عاتقها هذه المسؤولية العلمية البحثية. وجعلت موضوع الأمن الروحي محورا للبحث، وفتحت المجال أمام المتخصصين والمهتمين والباحثين من مختلف التخصصات العلمية.محترمة الشروط الأكاديمية للندوات

العلمية، فتقاطرت البحوث والدراسات من مختلف المواقع الجامعية داخليا وخارجيا: من تطوان وفاس ووجدة ومكناسة الزيتونة وأكادير والرباط وبني ملال ومن الجزائر ودولة فرنسا، ومن مختلف التخصصات العلمية: الدراسات الأدبية والعلوم السياسية والدراسات الإسلامية والدراسات الاجتماعية والقانونية. مما يعبر على أن قلق السؤال وهم البحث في هذا الموضوع يتقاسمه معنا باحثون أكاديميون آخرون.

وبعد التداول والتحكيم أسفرت النتائج على هذه النخبة من البحوث المتميزة موضوعا ومضمونا ومنهجا، تناولة الموضوع من مختلف جوانبه، وإن كان الأمر يستدعي المزيد من الدراسة والبحث والتدقيق، لتعبر الجامعة عن فعاليتها وأهميتها في خدمة قضايا الأمة والوطن، وليعبر الباحث الأكاديمي عن انخراطه في قضايا محيطه الاجتماعي والديني والسياسي.

إن الجامعة تتحمل مسؤولية تاريخية وأمانة حضارية في رعاية الأمن الروحي للمغاربة وفي صيانة مميزات سلوكهم الديني المعتدل وفي الحفاظ على الانسجام الروحي والثقافي والفكري لمكونات هذا المجتمع. وهذا لن يتأتى إلا بالدراسة العلمية الموضوعية والفهم السليم المبني على البحث الأكاديمي القويم المتوسل بالوسائل التقنية والعدة المنهجية المناسبة والمتطورة والمتجددة والمواكبة.

وفي هذا الإطار تأتي هذه الندوة الوطنية المباركة التي تروم بيان الأدوار المعرفية والفكرية والسياسية للجامعة المغربية في الحفاظ على الأمن الروحي للمعاربة وفي صيانة هويتهم الثقافية والدينية.

ونذكر أساتذتنا الكرام وأستاذاتنا الكريمات وكذا هذه النخبة من الباحثين الأفاضل والباحثات الفاضلات بأهم أهداف الندوة وهي:

- التعرف على مقومات الأمن الروحي الدينية والتاريخية والسياسية بالمملكة المغربية.
- إدراك سبل صيانة الأمن الروحي والحفاظ على الهوية الثقافية في الوقت المعاصر.
- التعرف على مستجدات العصر وتأثيرها على الأمن الروحي للمغاربة.
- التعرف على سبل درء المهددات والأخطار المتربصة بهذا الأمن الروحي للمغاربة.
- التعرف على مظاهر مساهمة الجامعة المغربية في هذه الهموم الدينية والفكرية والمعرفية المذكورة سابقا.

- التفكير في صياغة مشروع علمي أكاديمي يرسم المسالك الإجرائية لانخراط الجامعة المغربية في هذا الهم الوطني والحضاري.

كما نضع بين أيديكم أهم الإشكالات العلمية الأكاديمية التي سيعكف على مدارستها وتداول الرأي حولها بين المشاركين والمشاركات، وهي كالتالي:

- ماهي مقومات الأمن الروحي الدينية والتاريخية والسياسية بالمملكة المغربية؟
- ما هو تأثير مستجدات العصر على الأمن الروحي للمغاربة المقيمين والمهاجرين؟
- ما العلاقة الرابطة بين الأمن الروحي والهوية الثقافية للمغاربة داخل الوطن وخارجه؟
- كيف يمكن للجامعة المساهمة الجامعة المغربية في حماية الأمن الروحي للمغاربة؟

وإن كانت هذه الندوة تجل من تجليات هذه المساهمة، ومعلوم أن فضاء البحث العلمي هو فضاء للتفكير في الإشكاليات العلمية ومقاربتها وبلورة مشاريع بحثية وتكوينية، وهذا ما ننتظره من هذه الندوة المباركة ومن المشاركين فيها، والأمل معقود على مخرجاتها.

مرحبا بكل ضيوفنا الكرام، نسأل الله لكم التوفيق والسداد في مناظرتكم العلمية هذه. كما نتوجه بالشكر لكل من أسهم من قريب أو بعيد في إنجاح أشغال هذه الندة المباركة

وعلى رأسهم السيد رئيس جامعة القاضي عياض الذي ألفنا فيه دعم كل تظاهرة علمية هادفة، ونشكر ممثله في هذه الجلسة الافتتاحية الأستاذ الدكتور بلعيد بوكادير، نائب رئيس جامعة القاضي عياض المكلف بالشؤون البيداغوجية والإدارية،كما نتقدم بالشكر للسيد عميد كلية لآداب والعلوم الإنسانية الأستاذ الدكتور عبد الرحيم بنعلي، بارك الله فيه على جهوده المبذولة في خدمة العلم والمعرفة.

كما نتوجه بالشكر للشركاء الأكاديميين لمجموعة بحثنا: فريق البحث وتكوين الدكتوراه: "الفكر الإسلامي المعاصر وقضايا المجتمع والبيئة في العالم المتوسطي في شخص رئيسها الأستاذ الدكتور العربي بوسلهام، الذي سيبين في مشاركته العلمية الأدوار المنتظرة لشعبة الدراسات الإسلامية في خدمة الأمن الروحي للمغاربة. كما نتوجه بالشكر للمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس فرنسا، في شخص مديره الإداري السيد عبد السلام حفيظي، الذي سيضيء لنا معالم قضية الأمن الروحي في امتداداتها خارج أرض الوطن عند المغاربة والمسلمين المقيمين بأوروبا.

كما نشكر اللجنة التنظيمية على مجهوداتها لإنجاح هذه التظاهرة العلمية.

شكر الله لكم جميعا جهدكم وتضحياتكم ووفقكم الله لكل خير.

وأنتم الكرام فغضوا الطرف عن كل تقصير أو نقص فيما يليق بمقامكم، وأنتم أهل الفضل فصير جميل.

والله الموفق لسبل الرشاد والحمد لله رب العالمين.

المشرف على الندوة:

أ. د. محمد خروبات

رئيس "مجموعة البحث في مناهج الاستمداد والاستدلال من القرآن والسنة وتطبيقاتها المعاصرة" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة القاضي عياض بمراكش

كلمة رئيس تكوين الدكتوراه:
"الفكر الإسلامي المعاصر وقضايا المجتمع والبيئة في العالم المتوسطي"

بسم الله الرحمن الرحيم

والصّلاة والسّلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبعد

الحضور الكريم...

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إنه لشرف لتكوين الدكتوراه: "الفكر الإسلامي المعاصر وقضايا المجتمع والبيئة في العالم المتوسطي" أن يشارك جنبا إلى جنب مجموعة البحث في مناهج الاستمداد والاستدلال من القرآن والسنة وتطبيقاتها المعاصرة في هذه الندوة العلمية الدولية، في موضوع : (التعليم الجامعي والبحث الأكاديمي وحماية الأمن الروحي للمغاربة ".

لقد أخذ تكوين الدكتوراه "الفكر الإسلامي المعاصر وقضايا المجتمع والبيئة في العالم المتوسطي" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، أخذ على عاتقه مسؤولية معالجة ودراسة مثل هذه المواضيع القيمة والجديرة بالبحث والدراسة، لما لها من أثر على مجتمعنا المغربي.

لذلك، ومراعاة للإيجاز والاختصار في هذه الافتتاحية، فإني لن أحدثكم عن أهمية الموضوع وضرورته وحساسيته الوطنية والدولية، وكذا تنوع الموضوعات وغزارتها والتنوع الكبير في التّخصصات المساهمة في الندوة من داخل الوطن ومن خارجه... فكل ذلك يمكن الاطلاع عليه في ورقة البرنامج.

لكن لا بأس أن أشير إلى جملة من الأهداف، والتي تتوخى الجهات المنظمة تحقيقها من وراء هذا الحفل العلمي، وأذكر من بينها:

- إحياء وتجديد الحوار العلمي الرصين في ضوء الاختيارات المذهبية المغربية بغية إشاعة الأمن الروحي وصناعة الإنسان المغربي الكوني المتسامح الذي لا يقتصر نفعه على نفسه فقط، بل يتعدى ذلك الى الكون برمته.
- إدماج مؤسسة المسجد والزاوية في التعليم الأكاديمي من أجل تحصين الخصوصيات الوطنية.
- استثمار قيم وفوائد وعبر السيرة النبوية وتعليمها للناشئة ليقتدى بالمثل الأعلى رسولنا محمد صلى الله عله وسلم تحقيقا للأمن النفسي.
- إشاعة ثقافة الأمن الروحي في الجامعة المغربية.
- إعادة النظر في المسالك ومحاورها بالتركيز على القيم ونشر الفكر الوسطي وتكوين الطالب الباحث وتحصينه ضد المد التكفيري والشيعي.
- الدعوة إلى الاهتمام بالتكوين الجامعي الذي يضمن مخرجات تفي بضمان الأمن الروحي للمغاربة، ومن ذلك إحداث إجازات مهنية خاصة بتكوين أطر يمكنها العمل في تخصصات علمية مختلفة وكلها مرتبطة بالمجال الديني، أو في مجالات لها علاقة بالأمن الروحي والهوية الثقافية للمغاربة.
- تأسيس قاعدة معلومات تضم مختلف مصادر المعلومات من المؤلفات والمقالات والندوات في موضوع الأمن الروحي.
- تأسيس مراكز لصناعة وتكوين الخبراء من أجل مواجهة الأفكار المخالفة للثوابت الوطنية وخصائص الهوية الثقافية المهددة للأمن الروحي للمغاربة.
- التأكيد على ركيزة مهمة من خصوصيات التاريخ المغربي ألا وهي إمارة المؤمنين التي تعتبر ضمانا لحفظ الحقوق الدينية للمغاربة سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، لأن الأمن الروحي مضمون لكل المغاربة مسلمين ويهود ومسيحيين بغض النظر عن اعتقاداتهم فالمؤسسة الملكية ضامنة للأمن الروحي للمغاربة وجعلت هذه المهمة من الأساسيات الضرورية ومن المقاصد الكبرى.

- تأهيل العنصر البشري الذي سيكلف بترسيخ ثقافة الأمن الروحي معرفيا وتحفيزه ماديا ومعنويا إلى جانب التدقيق في طريقة اختيار الطاقم المؤهل للقيام بتلك العملية وتفعيلها.
- تشجيع الأبحاث ومراكز ومختبرات الدراسات واعتماد منهج تربوي قادر على الاستجابة لحاجيات الطلبة، وفي نفس الآن تقديم إجابات موضوعية لكل الأسئلة المطروحة حول قضايا الدين والمجتمع.
- فتح مجال التعاون بين المؤسسات التربوية والاجتماعية والإعلامية لترسيخ ثقافة الأمن في نفوس الأفراد وتربيتهم تربية إسلامية صالحة لتحقيق الطمأنينة والاستقرار في المجتمع.

وفي الختام؛ وباسم كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط نشكر جامعة القاضي عياض بمراكش على الدعم المادي والمعنوي لهذه الندوة، كما نوجه شكرا خاصا لمهندس هذه الندوة العلمية الدولية الأستاذ الدكتور محمد خروبات رئيس مجموعة البحث.

راجين من الله تعالى أن يحفظ بلدنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن يديم علينا نعمة الأمن والاستقرار في ظل عرش مولانا أمير المؤمنين حامي حمى القيم الروحية للمغاربة، وأن يكلل جهود الجهات المنظمة بالنجاح، وكلنا أمل أن نشارك في أنشطة علمية مقبلة مع جامعتكم إن شاء الله ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الأستاذ الدكتور العربي بوسلهام

جامعة محمد الخامس بالرباط

المداخلات العلمية

التعددية الدينية وحوار الأديان في المغرب[1]

د. محمد خروبات

(جامعة القاضي عياض بمراكش)

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فأجيب في هذا البحث عن ثلاث أسئلة محورية: **ما مفهوم التّعددية الدّينية؟ وما آفة معاكستها؟ وهل المغرب يتبنّى التّعددية الدّينية؟ وما مستقبل التّعددية الدّينية في المغرب في ظلّ التّحديات العامّة؟** ونقدم في الأخير تغطية تحليلية لزيارة البابا "فرنسيس" للمغرب بتاريخ: 30 و31 مارس 2019م، مع تقويم لهذه الزيارة في ضوء موضوع "التّعددية الدينية".

أولا: معنى التّعددية الدّينية وآفة معاكستها.

لن نقدم المفهوم على الطريقة اللّغوية أو الاصطلاحية، ولكنّنا نتناوله فكريا لأن طبيعة الموضوع هي طبيعة فكرية، وهي طبيعة تختزل الثّقافة والسّياسة والدّين، فمصطلح "التّعددية الدّينية" له صلة مباشرة بمصطلح "الحرية الدينية"، ذلك أن الحرية الدينية هي سبب رئيس للتّعددية الدّينية، أو لنقل: إن هذه الأخيرة هي نتيجة مفترضة للأولى، فهما يتبادلان جدلية السبب والنتيجة.

ومادامت القضية تخصّ المغرب، ومادام المغرب دينه الإسلام فإنّ الإسلام لا يلغي التّعددية الدّينية، لأسباب منها: أنّ الإسلام وجدها في جزيرة العرب، وجد اليهود والنّصارى والمجوس وعبدة الأوثان، ثم إنّها خصلة فطرية في الجبلّة البشرية، لذلك احترم وجودها ولم يحترم صلاحيتها، قدّر كينونتها ولم يضف عليها صفة المشروعية المطلقة ، يقول تعالى: "**لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين**"[2]، ويمكن أن نُقدم بين يدي الموضوع آيات كريمة هي بمثابة شعار لحقوق الإنسان في مجال التّدين منها قوله تعالى: **"لا إكراه في الدّين"**[3]، وقوله لنبي الأمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم: "**فذكّر إنّما أنت**

[1]- بحث ملحق بأعمال الندوة.

[2]- سورة الكافرون، الآيات (2-6).

[3]- سورة البقرة، الآية 256.

مذكّر، لست عليهم بمصيطر"[1]، ثم خاطبه الله تعالى بقوله: "ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعا، أفأنت تُكره النّاس حتى يكونوا مؤمنين"[2]، وعلى هذا الحال كان المجتمع الإسلامي الأول، لقد التزم بهذه المبادئ وانضبط لها، وتعايش النّاس في المجتمع الإسلامي وهم على أديان مختلفة.

ذكر محمّد بن إسحاق بأنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم لمّا دخل المدينة كتب "كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم"[3]، وجاء في بعض بنود هذا الكتاب: "وإنّ يهود بني عوف أمّة مع المومنين"، ثم عطف عليهم سائر القبائل اليهودية[4]، وكانوا يعيشون في أمن وأمان، يتحرّكون بكلّ حرية، يقول الله تعالى وهو يوصي عنهم: "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه"[5].

تلك بعض النصوص المنتقاة التي هي بمثابة شعار لحقوق الإنسان في مجال الاعتقاد والتديّن، جعلت هذا الدّين متميّزا على سائر الأديان والمعتقدات، كيف وهي وصايا إلهية صانت الكرامة الإنسانية، حين جعلت الإنسان يمارس اختياره الطّبيعي من دون إلزام ولا إكراه، وقد أثبتت الوقائع أن الإلزام لا يولّد الالتزام، فالإكراه على دين معين لا تتولّد معه القناعة بذلك الدّين، وإذا حصل فإن المكره يعيش مزدوج الشخصية، ويعيش معذّبا في حياته، وقد ينافق ليرضي قناعاته ويرضي في الوقت نفسه من يُجبره على ذلك، وأمام هذه الظاهرة نكون أمام النتائج الآتية ، الأحلى فيها مر:

- إما أن تسقط إنسانية الإنسان، وهذا يعني سقوط الإنسان في النّهاية.
- وإما سقوط من يمارس الإكراه عليه، لأن الإرادة الإنسانية في النّهاية لا تُقاوَم.

---

[1] - سورة الغاشية، الآية 21-22.

[2] - سورة يونس، الآية 99.

[3] - محمد بن إسحاق، السّيرة النبّوية 501/1، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، الطبعة الثّانية في مجلدين.

[4] - المصدر السابق، وانظر كتاب "الأموال" لأبي عبيد القاسم بن سلاّم 125/2 و 190/2-194، تحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر، الطبعة الثّانية.

[5] - سورة التّوبة، الآية 6.

- وإما أن تستمر الوضعية على ما هي عليه ولا ينتج عنها سوى الأمراض النّفسية، والقلاقل والاضطرابات الاجتماعية والسياسية[1].

تقدم الأدّلة السّابقة حرية المعتقد على المعتقد ذاته، فقبل أن يعتقد الإنسان في المعتقد هو حرّ فيه، هذه الحرية هي حرية اختيار لا إجبار، فالعرب عبدوا الأصنام في الجاهلية بالاختيار، وتديّن بعضهم بالمسيحية بالاختيار، كما تديّن غيرهم باليهودية بالاختيار أيضا، وما زال الإنسان يتنقل من دين إلى آخر بالاختيار كذلك، لكن الإسلام جاء برسالة البيان والتّوضيح، فبعثةُ النّبي صلّى الله عليه وسلم جاءت لتبيّن للنّاس، وتوضّح لهم سبل الهدى والرّشاد، فتضعهم في حريتهم ليختاروا بين ما ينفع وما لا ينفع، وما يصلح وما لا يصلح، وهذا كلّه بعد بيان ما يصلح مما لا يصلح، وما ينفع مما لا ينفع، يقول تعالى : "**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها**"[2].

يجب التمييز بين التّعددية الدّينية في الجغرافية الإسلامية وبين التّعددية الدّينية في الجغرافية غيرالإسلامية، فالكلام عن التّعددية في الوضعية الأولى ليس عينه الكلام عليها في الوضعية الثّانية، لأننا حين نقارن بين الوضعين فإنّ الكلام يختلف بينهما ، بحيث تظهر المزايا وتتعدّد الإيجابيات، والتّاريخ والواقع كفيلان ببيان ذلك، الدّولة في المغرب قديما وحديثا، وفي العدوتين حافظت على التّعددية الدّينية، ولم تمارس الاضطهاد أو الإقصاء الدّيني لسيادة الدّين الواحد، في حين هذا لم تحقّقه بعض الدّول التي قامت على العرقية والمركزية وأيديولوجية الدّين الواحد مثلما نرى في بعض البلدان اليوم، وقد سقطت الشّيوعية بسبب فرض أيديولوجية واحدة، وقبلها النازية.

ثانيا: المغرب يتبنّى التّعددية الدّينية.

لا يعني التبنّي هنا أنّ المغرب أقام دستور الدّولة على التّعددية الدّينية، بحيث يصبح التّعدد الدّيني ديانة رسمية، كلاّ، يعني التبنّي الفسح في المجال للتّعدّدية الدّينية مع جعل الإسلام الدّين الرسمي للدّولة، يظهر ذلك فيما يلي:

---

[1] - محمد أحمد مفتي، وسامي صالح الوكيل، النّظرية السّياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشّرعية: دراسة مقارنة، ص 20، كتاب الأمّة 25.

[2] - سورة الكهف، الآية 29.

1- ينصّ الفصل 22 من الدّستور على ما يلي: "لا يجوز المسّ بالسّلامة الجسدية أو المعنوية لأيّ شخص، في أيّ ظرف، ومن قبل أيّة جهة كانت خاصّة أو عامّة". ومعلوم أنّ التّعددية الدّينية تدخل في الحقوق المعنوية المشار إليها في هذا الفصل.

2- ينصّ الفصل السّابع من الدستور على ما يلي: "لا يجوز أن تؤسّس الأحزاب السّياسية على أساس ديني أو لغوي أو عرقي أو جهوي، وبصفة عامّة على أيّ أساس من التّمييز أو المخالفة لحقوق الإنسان". فتأسيس الحزب على أساس ديني يعني إلغاء التّعددية الدّينية، والفسح في المجال لتأسيس الأحزاب على أسس دينية هو فسح في المجال للتّمييز والفوضى، لذلك جاء المنع، والغرض من المنع هو التنظيم لا الحضر.

3- ومن أقوى الأدلة في الجانب التّشريعي ما نجده في المدونة الجديدة للأسرة، القانون رقم 70.03 حيث تتصدّر المادّة الثّانية منه هذا القانون، تُبنى هذه المادة على أربعة بنود كلّها تعترف بحقّ اللاّجئين وغير اللاّجئين بممارسة حياتهم وفق أحكام مدونة الأسرة.

4- مصادقة المغرب على عدد من الإعلانات والمواثيق والاتفاقيات الدّولية الأساسية المتعلّقة بحقوق الإنسان، منها وثيقة حقوق الإنسان في الإسلام الصادرة عن منظمة المؤتمر الإسلامي التي نصّت مادّتها الأولى على ما يلي: "البشر جميعا أسرة واحدة جمعت بينهم العبودية لله والبنوّة لآدم وجميع النّاس متساوون في أصل الكرامة الإنسانية، وفي أصل التّكليف والمسؤولية دون تمييز بينهم بسبب العرق أو اللّون أو اللّغة أو الإقليم أو الجنس أو المعتقد الدّيني أو الانتماء السّياسي أو الوضع الاجتماعي أو غير ذلك من الاعتبارات"، وهو إعلان ألزم جميع الأعضاء بتطبيق أحكامه، وذلك ما نصّت عليه المادة 28.

ثالثا: مستقبل التّعددية الدّينية في المغرب في ظلّ التّحولات:

يجعل البعض من "التّعددية الدّينية" مصطلحا يتلاعب بمفاهيمه الفلسفية والسّياسية، ولربما زجّ بالقراء إلى التّاريخ حيث البعد عن الواقع، كما أنّ البعض يجعل منه شعارا ليس إلّا. الكلام عن التّعددية شيء والممارسة السّياسية شيء آخر، لكن هنا في المغرب الأمر يختلف، "التّعددية الدّينية" هو مفهوم واقعي، وممارسة ميدانية في السّياسة الدّينية، أما الثّقافة المغربية فقد تتعدّد مفاهيمها وآراؤها بحسب تعدّد الرؤى والأيديولوجيات والمذهبيات، ونحن حينما نتكلّم في موضوع

التّعددية الدينية في المغرب فمن منطلق الممارسة السّياسية والقرارات الرّسمية لا من الأفكار الصحفية والكتابات المذهبية والأيديولوجية.

تَقَدَّم معنا أن المغرب يقرّ بالتّعددية الدّينية ويحترمها، ولا يسعى إلى مضايقتها بأيّ وجه من وجوه المضايقة، كما أنّ هذه التّعددية تخضع لأحكام القانون المعمول به في ظلّ دولة الحقّ والقانون، فهو إذن تعدّد منظَّم ومؤطَّر، لا يمكن لأيّ فئة أن تستغله لمضايقة فئة أخرى، ويبقى مستقبل التّعددية الدّينية مستقرا ومنضبطا تحت مظلة "إمارة المؤمنين" التي يتميز بها المغرب كمرجعية ثابتة وضامنة لحقوق التّدين.

يُثار الكلام من هنا أو هناك على أنّ التّعددية الدّينية في المغرب تعرف تراجعا كبيرا، والواقع أنّ هذا التراجع يُقاس بقلّة عدد الدّيانات الموجودة في المغرب وضحالة نسبتها، فالمغرب لا يتحمّل مسؤولية هذا التقلّص، التقلّص راجع إلى طبيعة الدّيانات نفسها، فإذا نقص عدد اليهود مثلا فبفضل الهجرة إلى إسرائيل، وإذا نقص عدد النصارى فهذا راجع إلى المسيحية نفسها لا إلى الدّولة المغربية، وهكذا، أمّا إذا بُني هذا التراجع على المضايقة وعدم التّسامح الدّيني فهذا غير صحيح البتة لأن التّاريخ يثبت أن اليهود والنّصارى عاشوا مع المسلمين جنبا إلى جنب، في جو من التّسامح والتّساكن والتّجاور، هكذا كانوا في الأندلس، وهكذا أيضا عاشوا في المغرب.

أما التّحديات التي قد تواجه التّعددية الدّينية في المغرب فتُعزى إلى تحدّيات دينية وعقدية بالأساس، فالمغرب بلد منفتح، وثقافة التّشدد والتّطرف تكاد تغزو العالم كله ليس فقط من جهة الدّين الإسلامي بل من جهة كلّ الأديان الأخرى سماوية وغير سماوية، وإذا ما وقعت بعض المحاكمات لبعض الفئات من الأديان الأخرى فهذا راجع إلى الخروقات القانونية التي ترتكبها هذه الفئات في المغرب، وهي خروقات كثيرة ومتنوعة، وهؤلاء تشملهم المتابعة القانونية مثلما تشمل المسلمين المغاربة، فالقانون لا يفرق بين مسلم وغير مسلم في إطار دولة القانون، والمتابعات القضائية في إطار القانون إنما هي بسبب الجرم المرتكب وليس بسبب المعتقد كما يحاول للبعض أن يتأوّل، أو قد تُعزى لمطالبة بعض الفئات بخرق الثّوابت والأحكام التّشريعية والشّرعية فيبنون على "عدم زواج المسلمة بغير المسلم والمسلم بغير المسلمة ما لم تكن كتابية" كما تنصّ عليه المادة 39 من مدونة الأسرة على أنه مساس بالحقوق، وفيه إهانة للأقليات الدّينية الأخرى إلخ، أو الطعن في الفصل 220 من القانون الجنائي، وما جاء في هذا الفصل تمّ تأويله، ولم يوضع في سياقه، فالشطر الأول من الفصل يتعلق بإكراه الناس وإجبارهم على دين معين بالعنف والتّهديد، وهو حكم عام يشمل المسلم وغير المسلم، والشطر الثاني يتعلق بمعاقبة

كل من زعزع عقيدة المسلم بأيّ نوع من الأنواع الأخرى غير العنف والإكراه من الأفراد والمؤسسات، وهذا من حقّ الدّولة أن تحمي دينها، فالطّعن في هذه القوانين يبقى من دون مصداقية.

ومن تجلّيات مستقبل التّعددية الدّينية بالمغرب أن المغرب سمح بتأسيس "الجمعية المغربية للحقوق والحريات الدّينية"، عقدت هذه الجمعية مؤتمرها الأول في الرباط في 18 نوفمبر 2018م تحت شعار: "جميعا من أجل ضمانات قانونية وتشريعية لحماية وجود التّنوع الدّيني"، وقد ضمّ المؤتمر في صفوفه حتى الأشخاص المنتمين إلى أديان ومذاهب غير معترف بها.

رابعا : تغطية تحليلية لزيارة البابا فرنسيس الأخيرة للمغرب.

نستطيع أن نستلهم من الزيارة التّاريخية التي قام بها البابا فرنسيس إلى المغرب يومي 30 و31 مارس من سنة 2019م دلالات التّعددية الدّينية في المغرب، وما يتبعها من قيم التّسامح والتّعايش الدّيني، ثم الأوراش الكبرى المتعلقة بالشأن الدّيني والتي رسمتها هذه الزيارة. حيث انبثقت عن زيارة الباب هذه للمغرب، والتي كانت بدعوة من جلالة الملك ثلاث قضايا مهمّة: القضية الأولى الخطاب الملكي السامي، القضية الثّانية خطاب البابا فرنسيس ، والقضية الثّالثة نداء القدس.

ومن هذه القضايا الكبرى الذي أثمرتها هذه الزيارة يتبيّن أنّها لم تكن زيارة سياحية أو زارة مجاملة ودبلوماسية، بل كان لها أبعاد مهمّة يمكن للمحلّلين أن يتناولوها من زوايا مختلفة، لكنّ الزّاوية التي نريد التأكيد عليها هنا هي الزاوية الدّينية، فهي زيارة ذات طابع ديني تعطي لحوار الأديان والتّعايش السّلمي المشترك والتّسامح طابعا متميزا، وهي زيارة دينية لأنّها تجمع بين جلالة الملك بصفته أميرا للمؤمنين، والبابا فرنسيس بصفته أعلى سلطة دينية للمسيحية الكاثوليكية، وقد تُوجت بنداء القدس، وللقدس حرمة دينية، نحدد في المحور الأول مقتضيات خطاب جلالة الملك، ونعرض في المحور الثّاني لمضامين خطاب البابا فرنسيس، ونشير في المحور الثّالث لأهم ما جاء في نداء القدس، ونختم في المحور الرّابع بتقويم عام لكل ما تقدّم.

1 - مقتضيات الخطاب الملكي السّامي

نحدّد هذه المقتضيات في النّقط الآتية:

أ. نوّه جلالة الملك بالزّيارة، فالزّيارة لها رمز تاريخي وحضاري، لم تنقطع الزّيارة بين الكنيسة البابوية والمغرب منذ عهود تاريخية طويلة، كان آخرها زيارة بولس الثّاني سنة 1985م، وقد

أهّل الموقع الجغرافي للمغرب من أن يحتل مكانة مرموقة جعلته صلة وصل روحية وثقافية بين إفريقيا وأوربا.

ب. أكّد جلالته على أنّ حدث الزيارة شكّل حدثا استثنائيا، فقد جاء في لحظة زمنية تحتاج إلى تعزيز الحوار بين الأديان، وتطوير الخطاب الدّيني، وتجديده لمعالجة آفّة التّطرف.

ج. من الوسائل التي ذُكرت في الخطاب أن مواجهة التّطرف لا تكون بالمواجهة العسكرية أو بالمال بل بالتّربية وببثّ العلم الشّرعي، فالتّربية أساسية في تنشئة الأجيال على قيم التّسامح والاعتدال وقبول الآخر، والعلم يطرد الجهل لأنّ الذي يجمع الإرهابيين هو الجهل بالدّين.

د. من هذه الأحداث خيانة الرّسالات الالهية، والتّلاعب بالدّين، وتحريف معانيه السّامية، وبثّ خطاب الكراهية والنّفور من الآخر، وهي أمور توجد في كلّ الأديان، والأمر يقتضي المواجهة بكلّ الوسائل الممكنة، ولن يتأتّى ذلك إلّا بالتّعاون والتّشاور لمكافحة مدّ الغلوّ والتّطرف.

هـ. حثّ جلالة الملك في خطابه على أنّ المملكة المغربية تواجه هذا المدّ بتلاحم الشّعب المغربي بكلّ أطيافه وباختلاف معتقداته، وتوقّف عند إمارة المؤمنين بصفتها الراعي الأمين للتدين في المغرب، فهو مؤتمن على ضمان حرية ممارسة الشّعائر الدّينية، وهو أمير المؤمنين لكلّ المغاربة مسلمين وغير مسلمين.

و. لتحقيق كل ذلك ذكّر جلالته بالإنجازات الكبيرة التي حقّقتها المملكة لمواجهة هذه التحدّيات، منها مؤسّسة محمّد السّادس للعلماء، هذه المؤسّسة الّتي تسهر على تكوين الإنسان السّوي والراشد، المستقيم والمعتدل من خلال برامج علمية مدروسة، يسهر عليها علماء أكفاء منتدبين لهذا الغرض، الغرض من هذه المؤسّسة إعداد الإنسان الصّالح لدولة السّلم والتّسامح، وتزويد عدد من البلدان الأوروبية والإفريقية بالأئمة والمرشدين والمرشدات.

ز. إلى جانب ما تقدّم ذكر جلالته بالمبادرة الوطنية للتّنمية البشرية، وسياسة الهجرة، والانفتاح، وتأهيل المهاجرين وترشيدهم على أساس التّضامن والاندماج.

ح. حيّا جلالة الملك القادة العرب الّذين لا يتهرّبون من مسؤولياتهم تجاه القضايا المصيرية للأمّة، والّذين هم حاضرين على الدّوام لمعالجة المشاكل ومواجهة التّحديات.

2- مضامين خطاب البابا فرنسيس.

وتتحدّد فقراته فيما يلي:

أ. أشاد البابا بالاستقبال الحار الذي خُصّص له من قبل جلالة الملك، وبرهن عن الحبّ والتقدير المتبادل،معبّرا عن عميق الامتنان لما يبذله المغرب من ترسيخ الحوار والتّعايش السّلمي.

ب. أشاد بالحضارة المغربية العريقة الضّاربة في التّاريخ، والتي تجعل من المغرب قبلة للإنسانية من مختلف الأعراق والأديان، وأنّ التّاريخ العريق يُعطي للمغرب قوّة الصّمود في وجه التّحديات الجارفة.

ج.ذكّر بأنّ زيارته للمغرب هي اكتشاف جديد، وأنه يدخل في الحوار بين الأديان، وفي التّعارف المتبادل، وأنّ الأساس من هذه الزيارة هو البحث عن السّلام، ونبذ الغلو والتّطرف، ودعا إلى التّعاون بين المغرب وبابوية الفاتيكان لأجل بناء عالم أكثر تضامنا والتزاما، عالم يقوم على الحوار والتّعايش.

د. دعا في خطابه إلى تطوير ثقافة الحوار، ومجابهة التّطرف والأصولية وذلك بالرجوع إلى القيم المشتركة وإحياء المعاني الدّينية الحقيقية.

ه.أكّد على أهمية العنصر الدّيني في بناء الإنسان، فالإنسان لا يمكنه أن يعيش من دون دين، كما أنّه لا يمكنه أن يمارس التدين بطريقة تسيء إلى التدين نفسه.

و.أكّد على أنّ الله تعالى خلق الكائنات البشرية متساوية، فلا بد من مراعاة الكرامة الإنسانية لكل كائن بشري.

ز.أشاد بالمنجزات التي حقّقها المغرب مثل المؤتمر الدّولي **"إعلان مراكش"** حول حقوق الأقليات الدّينية في الدّيار الإسلامية الّذي عُقد في مراكش سنة 2016م ، وذكر بمؤتمر مراكش حول المناخ COP 22 مشيرا إلى أنّ الأرض هي البيت المشترك الذي نعيش فيه جميعا.

ح.ذكّر بأزمة الهجرة والمهاجرين، ودعا إلى تضامن حقيقي لإيجاد حلول عادلة ودائمة، وأشاد بالمغرب وبدوره الإنساني الفعّال في استقبال المهاجرين وتأهيلهم، كما ذكر بجهود الكنيسة الكاثوليكية في المغرب من النّاحية الاجتماعية والثّقافية.

ط. وجّه البابا دعوته لانخراط المسيحيين واندماجهم في المجتمع المغربي، وهي دعوة أدخلت السرور على المسيحيين المتواجدين في المغرب.

3- نداء القدس

وقّع جلالة الملك والبابا فرنسيس نداء القدس، وهذه مجمل دلالاته:

أ. من حيث المرجعية، فلهذا النّداء وجاهته، فهو موقّعٌ من قطبين روحيين: جلالة الملك بصفته أميرا للمؤمنين، وبصفته رئيسا للجنة القدس، ثم إنّ القدس بالنسبة لجلالة الملك هي أولى القبلتين وثالث الحرمين، أما البابا فرنسيس فبصفته يمثّل أعلى سلطة دينية للمسيحية الكاثوليكية، فهو ينظر إلى القدس نظرة تقدير لكونها موطن مولد السيّد المسيح عيسى عليه السّلام وأمّه ، فقد وُلد في بيت لحم من أرض فلسطين .

ب. من حيث التوقيت، فالقدس لها رمزية خاصّة عند المسلمين وعند المسيحيين أيضا، وهي تمرّ من وضعية صعبة، فالفلسطينيون يعانون من المضايقات والحصار ومصادرة الأراضي والممتلكات، واعتراف أمريكا بجعل القدس عاصمة لإسرائيل بنقل سفارتها إليها زاد الطّين بلّة، وعقّد المشكلة عوض المساهمة في حلّها، وهو أمر استنكره العالم بأسره، ومنهم المغرب والفاتيكان حين دعى الفاتيكان قبيل نقل السّفارة إلى احترام الوضع القائم في القدس، والتحلّي بالحكمة والحذر.

ج. من حيث موضوعية النّداء، فالحدث هو حدث تاريخي متميز، أكّد النّداء على أنّ القدس لن تُنسى، ولن تُمحى من ضمير المسلمين والمسيحيين، وأن الفلسطينيين ليسوا وحدهم في السّاحة، وأن تقرير مصير الشّعب الفلسطيني هو الحلّ الناجح.

د. من حيث الخصوصية، أكّد الطرفان على المحافظة على الطّابع الخاص للقدس، وعدم تغيير معالمها الحضارية والدّينية، كما أكّد النّداء على البعد الروحي للقدس، ومكانتها كمدينة للسّلم والسّلام، فالسّلام الحقيقي منها يبدأ.

هـ. أكّد النّداء على رفع الحضر عن ممارسة الشعائر الدّينية، فالشّعائر حقّ مكفول لكلّ الأديان، فالقدس ممد الحضارات، وممد الأنبياء والرّسل، وممد الأديان السّماوية.

4- تقويم عام لكل ما تقدّم

بفعل هذه الزيارة فإنّ المغرب يقدّم درسا في الحوار الدّيني، وفي التّعايش السّلمي، وفي ثقافة التّسامح، وبحكم الموقع الجغرافي المتميز والّذي أهّل المغرب طيلة قرون لربط جسور التّواصل بين إفريقيا وأوروبا، وقد نضيف حتى آسيا، ذلك أن اكتشاف رأس الرجاء الصّالح جعل المغرب طريقا مفتوحة للأوروبيين إلى آسيا، وقد أثمر هذا الموقع عقد صلات وزيارات وشراكات بين أوروبا بصفة عامّة والمغرب بصفة خاصّة، فزيارة البابا للمغرب هي تتويج لهذا المسار التّاريخي ذي العلاقة المتميزة بين بابا الفاتيكان وجلالة الملك، وكلاهما يمثّل قطبا روحيا، فالبابا وإن كان ممثلا للكنيسة الكاثوليكية فهو ممثل لكلّ الكنائس، وجلالة الملك بصفته أميرا للمؤمنين ورئيسا للجنة القدس، ومن خلال الخطابين مع توقيع نداء القدس تتجلّى خطة العمل المشتركة، التي جوهرها تنفيد استراتيجية لحماية الأديان لتبقى على صفائها الرّوحي، وتلقين الأجيال قيم الوسطية والاعتدال وترسيخ عقيدة التّسامح والتّعايش المشترك سواء في المغرب الّذي فتح بابه للمهاجرين الأفارقة وللسّياح والمستثمرين الأوروبيين، أو في أوروبا الّتي تستقبل هي الأخرى المهاجرين الأجانب، وقد قدّم البابا فرنسيس نفسه شريكا في عملية السّلام وفي نبذ العنف والتّطرف، وفي المساهمة في التّخفيف من غلواء التّعصب المذموم، لقد وقف البابا بنفسه على المؤسّسات الدّينية التي تتولاّها إمارة المؤمنين لتكوين الأئمة والمرشدين والدّعاة من المغرب ومن إفريقيا، وهي مؤسسات تتولّى تكوين الإنسان الصّالح لنفسه والمصلح لغيره، وذلك ببرامج علمية تُشبع العقل وتُغذي الرّوح في توازن متكامل.

لقد أثمرت هذه الزيارة أربع دلالات أساسية:

- الدّلالة التّاريخية: وتتمثّل في ترسيخ الحوار المغربي الكاثوليكي الّذي لم يتوقّف منذ زمن طويل، جعلت من المغرب قبلة للزّائرين ومكانا تجتمع فيه الأمم لإيجاد حلول لمشاكلها المتفاقمة، وهو الأمر الذي ذَكَّر به البابا في خطابه.
- الدّلالة الحضارية: وتتمثّل في ربط الجسور بين العالم المسيحي من خلال بابوية الفاتيكان والعالم الإسلامي من خلال إمارة المومنين في المغرب، وهو الأمر الذي جعل من المغرب مدرسة مفتوحة، فالمغرب لا يمكنه أن يعيش في معزل عن السّياق العالمي، والعالم اليوم أصبح قرية صغيرة، إذا وقع

حدث مأساوي في جهة تتأثر الجهات الأخرى، وأشكال الإدانة لا تكفي ما لم تكن متبوعة باستراتيجية معالجة الأزمات القائمة والتي يكون سوء الفهم والتّطبيق للدّين سببها في الغالب.

- الدّلالة الاجتماعية: وتتمثّل في تعبيد الطّريق للعيش المشترك لبناء مجتمع قوي ومتماسك، تتجاور فيه الأديان بكلّ حرية وتسامح سواء في المغرب أو في أوروبا.
- الدّلالة الثّقافية: وتتمثّل في فتح حوار ثقافي ومعرفي بين الأديان بُغية تفعيل العنصر المشترك بينها، والأمور الإيجابية التي جاءت بها، والمتمثّلة في السّلم والسّلام والأخوة الإنسانية، هذا العنصر هو الكفيل بإسعاد المسيحي إلى جانب المسلم والمسلم إلى جانب المسيحي، فالحروب الّتي تشتعل اليوم في فلسطين وكشمير وأفغانستان والشيشان وغيرها سببها الصراع الدّيني، والاعتداءات على المساجد والكنائس والمعابد تتمّ بسبب التّطرف الدّيني من كلّ الأديان، سماوية وغير سماوية، وهذا يعطي صورة سيّئة عن التدين كيفما كان، يجب تحرير التدين من المذهبية والطائفية والحزبية، يجب تحريره من الأيديولوجيات ومن سياسات المصالح.

إن الإنسانية اليوم تريد أن تسعد، وهذا هو الدور الذي تقوم به إمارة المؤمنين في المغرب، فالإسلام دين السّلام، وتحية المسلم السّلام، وقد استلهم جلالة الملك في خطابه حدث الهجرة الأولى إلى الحبشة، وكانت بأمر من النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ودعوته لقداسة البابا لزيارة المغرب والّتي تنبع من قوله تعالى: "**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله**"، ورسمت إمارة المؤمنين الثّوابت الّتي لا يحيد عنها التّدين في المغرب، وهي ثوابت تجعل من التدين مُوحَّدا، وبعيدا عن الغلو والتّطرف، هذه الثوابت هي: إمارة المومنين، ووحدة المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، وطريقة الجنيد السّالك، ومع أنّ هذه الثّوابت تخص المسلمين المغاربة فإنه لم يثبت أن اليهود والمسيحيين اشتكوا من المساس بحقوقهم العامة ومنها "حقّ التدين"، ولهذا السبب توُّج جلالة الملك محمّد السّادس بميدالية إليس آيلاند الشرفية لسنة 2019م، وهي مؤسسة أمريكية تعبّر عن جوهر القيم الأمريكية من خلال الاحتفاء والعرفان بالخصال الوطنية والتّسامح والإخاء والتّعاون، وقد مُنحت هذه الميدالية للمغرب في شخص جلالة الملك تعبيرا عن قيم التّسامح الذي تنهجه

المملكة، والاحترام والتّفاهم بين المغرب وأشقائه عبر أرجاء المعمور، وكذلك سياسة الهجرة ذات البعد الإنساني التي تنهل من قيم الانفتاح وقيم التّعددية الدّينية والثّقافية التي يتميز بها المغرب[1].

وضع الإنسان على الجادة هو ما يجب القيام به اليوم، فالرّحمة والتّسامح هما خميرة هذا الكون، والأيديولوجيات والمذهبيات تفرّق ولا توحّد بخلاف الدّين فقد جاء للتوحيد، توحيد الله وتوحيد عابديه، ولا يمكن للمسلم أن يعيش منعزلا عن العالم، وحتّى الإسلام لا تُفهم حقيقته إلا في ضوء الأديان السّماوية الأخرى، ولذلك كان حضورها قويّا في القرآن الكريم، وقويّا في أحداث السّيرة النّبوية الشّريفة.

[1] - هو تتويج مرموق يمنح لشخصيات أمريكية ودولية تعود مساهماتها الشخصية والمهنية والخيرية بالنفع العميم على المجتمع الدّولي، وقد ضمت قائمة المتوجين سبع رؤساء أمريكيين، تأسست مؤسسة إليس آيلاند سنة 1986م، ومقرها في نيويورك بالولايات المتّحدة الأمريكية، المرجع : جريدة هسبريس الإلكترونية 14 مايو 2019م.

أي دور للجامعة والبحث الأكاديمي في مجال الأمن الروحي

د. مولاي أحمد البوكيلي
(جامعة محمد الخامس الرباط).

1- القيمة العلمية للبحث الأكاديمي في مجال الأمن الروحي:

يعتبر اهتمام الجامعة المغربية بقضايا الأمن الروحي من بين القضايا المركزية في وقتنا المعاصر بحكم القيمة العلمية للبحث الأكاديمي في المجال الديني، على أساس أن الأصل في البحث العلمي يتمثل في تقديم الأجوبة العلمية لكافة التحديات المفروضة على الأمة، سواء تعلق الأمر بالأمن الحضاري، ونعني به التحديات الخطيرة التي تهدد الهوية الدينية للأمة من خلال استراتيجيات تفكيك الوحدة المرجعية، أو بالتحديات الثقافية التي تهدد الأمن الثقافي وذلك من خلال تمزيق الخريطة المعرفية والتصورية للأمة الإسلامية، إلى غير ذلك من أشكال وأنواع التحديات الحضارية التي تهدد الأمة في كيانها العقدي وشخصيتها الثقافية وروحانيتها العرفانية.

ولعل الإشكالات التي تعرفها الأمة الإسلامية، خصوصا أمام انتشار الفكر التكفيري المُؤَسس على العقلية الصدامية والسيكولوجية الانفجارية يفرض ضرورة البحث العلمي لبناء استراتيجية التحصين العقدي والمذهبي للأمة، بحكم أن تفكيك الوحدة الروحية والمذهبية سيعرض الأمة للزوال والاندثار، بالإضافة إلى التحديات العقدية المتمثلة في استراتيجيات التنصير التي تهدف صناعة الأقليات المسيحية التي من الممكن أن تصبح تدريجيا قوة سياسية تابعة مباشرة للمراكز الخارجية التي تتحكم فيها لتوجيهها الوجهة السياسية التي تخدم الأجندات الدولية في مجال الصراع الديني لرسم الخريطة الجيو استراتيجية لمستقبل العلاقات بين الأديان والمذاهب.

ولعلّ التقارير الخاصة بانتشار التيارات الشيعية، وظهور مجموعة من الرموز تطالب علانية بحقها في الوجود الديني باعتبارها تمثل أقليات دينية ليدفعنا جميعا إلى التفكير الهادئ من داخل الجامعة لدراسة هذه الظواهر بمنطق البحث العلمي لفهم الأسباب النفسية والعوامل الاجتماعية والثقافية التي أنتجتها .

والخطير في الأمر، أن المجتمع المغربي لم يعد يعرف ظاهرة التحاق آلاف الجهاديين بالمناطق المشتعلة دوليا، بل أصبح مهددا في أمنه من قبل بعض الشباب الذين تم استقطابهم بالمهجر من طرف التوجهات الإيديولوجية القائمة على العقلية التكفيرية التي تستخدمهم ضمن مخططاتها الرامية إلى إشعال الحرب بين الثقافات والحضارات وخلق الفتنة الدينية بين مختلف التيارات الدينية والرسائل السماوية لتخويف الآخرين وإرهابهم باسم الدين.

كل هذه المعطيات، تبين قيمة البحث الأكاديمي في مجال بلورة السياسة العلمية لمقاربة قضية الأمن الروحي مقاربة شمولية، كما تمزج بين السياسة الدينية للدولة المغربية الممثلة في المؤسسات الرسمية، من مثل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والمجلس العلمي الأعلى والرابطة المحمدية للعلماء، فإنها تأخذ بعين الاعتبار ضرورة الانفتاح على المؤسسات الأكاديمية المتخصصة في الدراسات الدينية والعقدية والمذهبية، فضلا عن الدراسات السوسيولوجية والأنثربولوجية لكون مجال تخصص هذه الحقول العلمية يرتبط أصلا بالمجال الديني، لكن بمنظور أكاديمي يخضع للمقاربات العلمية التي تنفتح على قضايا العصر، وطبيعة التحديات الحضارية الحقيقية. ويمكن في هذا المجال التذكير بدعوة كبار المسؤولين الأمنيين المتخصصين في تفكيك الخلايا الإرهابية بضرورة الاهتمام بالجانب العلمي لاستقراء مجموع الظواهر التي تهدد الأمن الروحي للمغاربة لتحقيق التكامل بين الأدوار لمحاصرة أسباب إنتاج الظاهرة وتغولها في بنيات المجتمع .

وبناء عليه، فإن الاهتمام العلمي بالأمن الروحي مسألة في غاية الأهمية من الزاوية الأكاديمية لأن المقاربة العلمية للأمن الروحي تخرجه من الزاوية الخاصة إلى الزاوية العامة، ونعني بها بناء خطاب علمي معرفي مفاده أن قضية الأمن الروحي هي قضية الجميع وليست قضية خاصة بمؤسسة من المؤسسات، لطبيعة الأمن الروحي الذي يفرض الإيمان الجماعي بانخراط مجموع مكونات المجتمع لمواجهة كل التحديات التي تهدد الاستقرار الروحي والثوابت الدينية والوطنية .

والحمد لله، أن الجامعة المغربية كانت سبّاقة للبحث الأكاديمي في مجال الأمن الروحي، وذلك بفضل وجود كبار علماء التصوف وفلاسفة العلوم الإنسانية للجامعة المغربية، نذكر من بينهم الفيلسوف سيدي طه عبد الرحمن صاحب أضخم مشروع في التجديد الفلسفي والتأصيل العلمي لسؤال الأخلاق، بالإضافة إلى الدكتور سيدي عبد المجيد الصغير والفيلسوف عابد الجابري واللائحة طويلة .

2- كيف يمكن للجامعة خدمة النموذج الديني المغربي من زاوية البحث العلمي الأكاديمي؟

إن الحديث عن الأمن الروحي، حديث يتكامل فيه الجانب العقدي التأصيلي بالجانب الأكاديمي الفلسفي، إذ مقارنة بالفلسفات المادية التي لم تستطع بناء نماذجها الحضارية على ضوء القيم الروحية، فإن الرؤية التوحيدية لبناء الأنموذج العمراني للحضارة الإنسانية تقوم على التوازن بين الاحتياجات المادية والتطلعات الروحية للإنسان، بحكم المرجعية الربانية المتصفة بالكمال التشريعي والسمو الأخلاقي والجمال العرفاني .

وعلى هذا الأساس، اجتهد علماء المغرب في تأصيل النموذج الديني المغربي ضمن المقاربة المقاصدية المنفتحة على كبرى المقاصد العقدية الناظمة لفلسفة التشريع ونعني بها ثلاثية التوحيد العقدي، والتزكية الروحية، والآفاق العمرانية الرحبة بكل ما تحمله من دلالات التعارف الإنساني والتسامح الديني والتعايش الحضاري، مصداقا لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات آية 13)، وفي سياق هذه الرؤية المقاصدية لبناء الأمن الروحي والوحدة العقدية والمذهبية، اختار المغاربة ثلاثية العقيدة الأشعرية، والتصوف الأخلاقي، والمذهب المالكي، أنموذجا دينيا في مجال الاجتهاد العقدي لبناء الاختيار المذهبي .

ولعل الباحث الموضوعي في هذا التركيب الثلاثي للوحدة العقدية والمذهبية والفقهية ليقف إجلالا واحتراما لعلمائنا الكبار المجتهدين رضي الله عنهم وأرضاهم لاختيارهم المذهبي الذي حفظ المغرب من الطائفية المذهبية والتكفير العقدي للمخالف، فضلا عن اهتمامه بالتصوف الأخلاقي الذي حصّن المغرب من التصوف الخرافي والأسطوري، القائم على الأحوال النفسية المرضية والفلسفات الباطنية .

وكما يلاحظ، فإن هذا الاختيار التركيبي جزء لا يتجزأ من قوة الشخصية المغربية المعروفة تاريخيا بانتمائها للمدرسة المقاصدية التي تجتهد وتبدع ضمن استحضار الأفق الكلي للرؤية الشمولية للمنظومة الإسلامية، ومما يبين أكثر عظمة هذا الاختيار العقدي والمذهبي أنه يمزج بين حقول قد تبدو للوهلة الأولى متناقضة ومتباعدة، ولكنها متكاملة تكاملا كما يجمع بين الانتماء الروحي والوحدة المذهبية، فإنه يجمع بين الانتماء الوطني والبعد الحضاري لاستحالة الدعوة للنموذج العالمي

للمشروع الإسلامي دون بناء الأنموذج المعرفي بناء تكامليا تتداخل فيه أبعاد الطاقة الروحية بالصناعة الأخلاقية لإعادة إنتاج القيم الكونية، والجمال التركيبي لا يقف عند حدود الجوانب العقدية التأصيلية، بل يتعداه إلى بناء الأنموذج الديني المغربي على ضوء مؤسسة إمارة المؤمنين باعتبارها مؤسسة جامعة بين البعد الشرعي والبعد الوظيفي الممثل في حماية الأمن الروحي والوحدة المذهبية والدينية للمغاربة قاطبة .

وبهذا المفهوم، يتجلى تميز هذا النموذج الديني المغربي كونه مؤصل على مؤسسة إمارة المؤمنين باعتبارها مؤسسة ضاربة في أعماق التاريخ الإسلامي، تجسد محبة وتعظيما لآل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام، لدرجة بناء الدولة على مفهوم المحبة، ولعل هذا هو المدخل النظري والمنهجي لبناء فلسفة الأمن الروحي الذي تصبح فيه الدولة ثمرة للمحبة والتدين والإيمان .

وعلى هذا الأساس، فالأمن الروحي هو الجانب المتعلق بالعالم النفسي بكل ما يحمل من دلالات التزكية العرفانية والتربية الروحية، هذه العوالم التي لا يمكن أن تتجسد عمرانيا إلا في إطار الأمن الحضاري للأمة، أو ما يسمى في الدراسات السياسية بالأمن القومي الذي يتداخل فيه الأمن السياسي بالأمن الاستراتيجي للدولة. وفي هذا الإطار، فإن صفة أمير المؤمنين تختزل تداخل المجال الديني بالسياسي، والمذهبي بالعقدي .

3- الأبعاد الشمولية والدلالات الحضارية لمفهوم الأمن الروحي في المنظور القرآني :

إن قضية الأمن الروحي في المنظور الإسلامي ليست قضية جزئية أو هامشية، بل قضية مركزية، حيث يحضر مفهوم الأمن في القرآن الكريم بقوة تبين عظمة الرسالة الإسلامية التي قدمت مفهوم الأمن باعتباره نعمة من أعظم النعم الإلهية التي يجب على الأمة الإسلامية أن تتذوقها جماليا لتدرك بأن قضية الأمن ليست مسألة خاصة بالجانب الأمني والسياسي فقط، بل الأمن أولا وأخيرا تجلي من التجليات الربانية التي تعكس اسما من أسماء الله الحسنى، وهو اسم المؤمن الذي يغرق الأمة المؤمنة في بركات الأمن التي تعكس التجليات النفسية والاجتماعية والثقافية لعظمة الطاقة الإيمانية، والجمال في الخطاب القرآني.

إن مفهوم الأمن جاء حاملا لدلالة شاملة كلية تمزج بين مختلف الأبعاد النفسية والمجتمعية، لدرجة أن الحقل الدلالي لمفهوم الأمن في خطاب الوحي يتقلب بين العالم القلبي الخاص بمفهوم

الاطمئنان الروحي الذي يعكس التناغم الروحي والتسبيح الكوني، لدرجة بلوغ مقام النفس المطمئنة بالله ومع الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا الصدد، يمكن التذكير بمفهوم المنّ الإلهي للمجتمع القرشي لمفهوم الأمن، باعتباره نعمة من أعظم نعم الله تعالى تستحق الشكر والعبادة والمحبة والافتقار للكريم سبحانه وتعالى القائل في محكم كتابه ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿1﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿2﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿3﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴿4﴾ (الفيل من الآية 1 إلى 4)، وكما يلاحظ في هذه السورة القرآنية الكريمة أن دلالة الأمن جاءت محددة بالمفهوم المقابل وهو الخوف النفسي الذي ينعكس سلبا على الحياة الاجتماعية والسياسية، ولذلك أرّخ القرآن الكريم لدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو يسأل الله عز وجل نعمة الأمن للبلد الحرام بقوله ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾(سورة إبراهيم الآية 35).

وهي دعوة ربانية تعلّم الأمة الإسلامية الدعاء المؤسس على المحبة للوطن الحامل لكل المقدسات لأنه في غياب شروط الأمن، تضيع المقدسات وتتفكك الدول وتنهار المجتمعات.

كل هذه الدلائل تؤكد أن الأصل في تحقق الأمن هو حضور الإيمان لطبيعة العلاقة الشرطية بين الأمن باعتباره التجلي السوسيو الثقافي، وبين الإيمان باعتباره الطاقة الروحية التي تؤسس وتنتج الأمن الحقيقي الذي ينطلق من القلوب المملوءة بالمحبة الإلهية والعاشقة لكل قيم السلام والعدل والتسامح والتعايش عشقا يقوم على الاعتقاد بأن رسالة الإيمان هي ضمان الأمن والاستقرار، والدعوة والتواصل مع الغير بل ومحبة الخير لكل البشرية، وصدق ربنا الكريم، وهو يبين لنا هذه الحقيقة في حق الغاية المقاصدية للبعثة النبوية بقوله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾، والأصل في الرحمة، الإيمان بالمحبة طريقا وحيدا للدعوة لأنه لا يمكننا أن نغير العالم إلا إذا أحببنا الخير للبشرية جمعاء .

وهنا بالضبط تظهر العلاقة بين بناء الأمة المؤمنة الآمنة، وبين الدعوة العالمية للإنسانية الآمنة وهو ما يسميه الخطاب القرآني بمقام الشهادة الحضارية على الناس كما في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾(سورة البقرة الآية 143).

إنها الشهادة العالمية المبنية على نموذج الكمال النبوي الذي كان رمزا قبل نزول الوحي للصدق والأمانة؛ وعليه فإن البناء الحضاري للأمة لا يمكن أن يتم إلا من خلال توفر شروط الإقلاع الحضاري المتمثلة في الإيمان بالوحي الإلهي، الذي من شروطه العقدية الإيمان بقدرة الله تعالى على استبدال الأحوال النفسية من عالم الخوف لعالم الأمن الروحي الذي يمنح الطاقة الاعتقادية والإرادة الروحية لصناعة الأمة المسلمة الإنسانية المتحضرة، بالرغم من ظروف الخوف النفسي من الآخر والتبعية الاقتصادية والانهيار السيكولوجي والإحباط النفسي، إلى غير ذلك من علامات سيكولوجية الإنسان المقهور كما تحددها المدرسة النفسية .

يقول الله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾(سورة النور الآية 55)

إنها آيات معجزة دالة على عظمة الأمن الروحي باعتباره نتيجة للإيمان بقدرة الله تعالى على العطاء والمنّ والتغيير والكرم والتمكين الحضاري للأمة ولكن شريطة توحيد العبودية لله تعالى عبودية مبنية على المحبة التي تحول الإيمان إلى سلوك عملي ومقام تخلقي وقيمة حركية تنساب في روح المجتمع لتغرس فيه روحانية الإيمان التي تتحول إلى حالة نفسية وتمظهرات اجتماعية تنتج حالة الأمن بما هي حالة سيكولوجية واجتماعية، في آن واحد .

والخطير في الأمر، إذا كان شرط الأمن هو الإيمان، فإن المعاصي والذنوب تدمر روحانية الفرد لدرجة يستحيل أن يشعر معها بالسعادة الروحية، وبالتناغم مع الوجود والتواصل مع المجتمع ليصدق عليه قول الله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة الحشر الآية 19)

وهي معادلة رياضية في مجال فقه البناء العمراني للأمة الإسلامية إن أرادت الرجوع لمصدر الطاقة الروحانية الممثلة في النور الإلهي نور المحبة الإلهية الخالدة التي كما تصل الانسان بالغيب، فإنها تحوله إيمانيا إلى قيمة أخلاقية تنقله من عالم الفردانية إلى عالم الشعور بالانتماء للأمة الإسلامية، ومن عالم الخوف النفسي والعنف الديني، إلى عالم الاطمئنان الروحي والسلام العالمي .

ومن الأمثلة الدالة على ضرورة البحث العلمي في قضايا الأمن الروحي كبرى الاختيارات العقدية والمذهبية التي تشكل النموذج الديني المغربي لأن الصورة التي يقدم بها هذا النموذج وكأنه إيديولوجية دينية يمكن تسويقها بمنطق تدويل المشروع السياسي، في حين أن عظمة النموذج الديني المغربي أنه مبني على الاجتهاد التأصيلي والتنظيري والمقاصدي للعقلية المغربية التي أبدعت بطريقة توليفية تركيبية بين مختلف الأبعاد العقدية والفقهية والتربوية، ولكن بطريقة نسقية تكاملية مزجت بين أحسن الاختيارات التي أعطتها بعدا كليا مقاصديا ارتقى بها لمقام بناء الأنموذج الاجتهادي الذي يستحق شرف الافتخار والتنويه.

4- مجالات تطبيقية للبحث العلمي في قضايا الأمن الروحي بالجامعة المغربية :

بما أن المنظور العلمي لمقاربة قضايا الأمن الروحي ينطلق من ضرورة اعتماد الرؤية الأكاديمية المؤسسة على قواعد البحث العلمي ومناهج البحث الأكاديمي، فإننا نقترح بعض المجالات البحثية التي من الممكن أن تشكل أرضية علمية للنظر العلمي والبحث الأكاديمي، وهي على الشكل التالي :

– دراسة قضايا الأمن الروحي دراسة علمية بعيدا عن منطق التوظيف الإيديولوجي والتحيز السياسي، من خلال الاشتغال على بلورة ما يسمى بالنماذج المعرفية القادرة على إعادة صياغة مركز الرؤية المقاصدية والمعرفية لقضايا الأمن الروحي باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الأمن الحضاري للأمة الإسلامية لتجاوز الرؤى التجزيئية التي تحاول ترسيخ مفهوم الأمن الروحي وكأنه مفهوم خاص بقطاع معين، في حين أن شمولية وظائف مؤسسة إمارة المؤمنين تفرض شمولية الإحساس بالمسؤولية العملية لحفظ الأمن الروحي، وخصوصا من داخل المؤسسة الجامعية، وهذا يتطلب ثقافة الشراكة الاستراتيجية بين مجموع المؤسسات العاملة في هذا المجال، لتبقى المصلحة العليا للوطن فوق كل الاختلافات السياسية والصراعات الإيديولوجية .

– تربية الأجيال على قيم الاعتدال والوسطية، وذلك من خلال التحسيس بمكانة الجامعة في مجال التنشئة على القيم عبر التكوين المعرفي والتأطير العلمي بإنشاء وحدات للبحث العلمي خاصة بالأمن الروحي .

– القيام بمجموعة من الأبحاث العلمية في مجال التكامل المعرفي بين العلوم لبناء الرؤية الشمولية لمفهوم الأمن الروحي سواء من داخل مجال العلوم الشرعية، أو مجال العلوم الإنسانية ككل .

- تكوين خبراء متخصصين في ظواهر العنف الديني من خلال اعتماد منطق البحث العلمي لتفكيك القواعد النفسية والمعرفية التي تشكل الأرضية الخصبة لصناعة ثقافة التطرف بغية بناء الخطاب العقلاني العلمي المقنع بخطورة ظواهر العنف والحقد والكراهية على الأمن الروحي والاستقرار الديني للمجتمع المغربي .

- تأهيل الأطر العلمية القادرة على التأطير الديني للجالية تأطيرا شرعيا قائما على استحضار خطورة التفكك المذهبي والاختراقات الدينية للتيارات الشاذة على الوحدة الروحية والعقدية للمجتمع المغربي، وذلك من خلال التنسيق مع المؤسسات الرسمية المكلفة بهذا المجال لبناء الأطر الفاعلة بناء تكامليا تجمع بين البعد الديني والبعد الدبلوماسي والتواصلي مع أبناء الجالية المغربية بالخارج.

مقومات الأمن الروحي في الإسلام

د. حميد محديد
(جامعة الجلفة بالجزائر)

مقدمة:

يعتبر الأمن الروحي أحد أهم مقومات الدولة الحديثة القائمة على الوسطية والاعتدال وعلى المحبة وقبول التعايش مع الآخر، والشد بيده ومؤازرته خاصة في ظل ما يشاع وما ينتشر هنا وهناك من مذاهب وعقائد مختلفة شوهت صورة الإسلام وأخذت به إلى معترك العنف والقتل والدمار، ومؤدى هذا المبدأ أن تلتزم الدولة بضمان قدر من الثبات والتوجه والمحافظة على مذهب الوسطية والاعتدال ونشره والمحافظة عليه في كل المجتمعات وسط انتشار رهيب عبر وسائل الاتصال الاجتماعي التكنولوجي لمذاهب مختلفة ومتطرفة، وضمان حد أدنى من استقرار للجانب الروحي للمراكز المختلفة حتى يتمكن الأشخاص من السعي في أمان والتصرف باطمئنان على هدى من قواعد دينية معتدلة قائمة بإعمالها وترتيب أوضاعهم على ضوئها، دون التعرض لمذاهب خارجية تهدم ذواتهم وتزعزع استقرار مجتمعاتهم.

وباعتبار أن الدين وسيلة مهمة في خلق علاقات فردية واجتماعية مبنية على أسس تحكمها تعاليم الشريعة وقواعدها، كان لزاما للأمن الروحي أن يقوم على الاعتدال واستقرار الفرد والمجتمع ويوفر آليات في ذلك.

والأمن الروحي بصفة عامة يتفق مع مبادئ الدولة الحديثة التي من سماتها السيادة للشعب وتحقيق العدالة والرشادة في الحكم، وضمان الحقوق والحريات الأساسية للفرد والمجتمعات، وهذا يعني أن الأنظمة المختلفة باهتمامها بالجانب الروحي والأخلاقي تهدف من ذلك ضمان الاستقرار مما يولد ثقة وطمأنينة في إتباع مناهج دينية معتدلة مبنية على احترام الآخر، وتضفي من خلالها إلى تشريعات وضعية مبنية على أساس هذا الأمن الروحي وخاصة في مجالات التي تمس الفرد والمجتمع كقانون الأحوال الشخصية وقانون المعاملات المدنية ..الخ

وباعتبار أن الدين ينظم سلوك الفرد في المجتمع فهو يؤثر على الكيان العام لهذا الأخير سلبا وإيجابا حسب طبيعة التفاعل الموجود بينهما، وعلى هذا الأساس يقاس مدى ملاءمة الدين للمجتمع

تبعا لاستجابة المجتمع لمتطلبات وتعاليم الدين، مما يدفع العلماء والفقهاء إلى دراسة فكرة فعلية القواعد الدينية في الواقع العملي وهو الأمن الروحي بمعنى كيفية استقبالها من قبل المخاطبين بأحكامها، فكلما كانت القاعدة الدينية مقبولة من قبل المخاطبين بأحكامها كلما كانت فعلية وجسدت أحكامها بصورة سليمة في الواقع العملي، بينما لما تكون هذه القاعدة الدينية غير موافقة وغير مطابقة للواقع الاجتماعي وللمصالح الفردية والجماعية لكياناته تفقد فاعليتها وتتعرض لمعارضة قوى المجتمع إدارة وأفرادا ومجتمعات وتؤدي إلى التطرف والصراعات.

غير أن بلوغ هذه الغاية لا يمكن أن يتحقق في غياب رؤية دينية واضحة، ذلك أن احترام القاعدة الدينية هو نتيجة لاحترام مناخ سليم ومستقر فلا بد من جودة في النص واعتداله بما يتطلبه من مقتضيات العصر الحديث، وبما يتطلبه أيضا من سهولة ووضوح في الفهم ودقة في تحديد المقتضيات وثبات في الزمن مما يعزز الثقة في الأحكام وفي المعاملات ويحترم توقيع المتعاملين ويصون الحقوق المكتسبة.

وعلى ضوء هذه المقدمة نطرح الإشكالية التالية: إلى أي مدى يمكن لمقومات ومبادئ الأمن الروحي أن تلعب دورا هاما وأساسيا في استقرار وثبات المجتمعات؟ وه وهي إشكالية تستدعي مارية مفهوم الأمن الروحي أولا ثم الوقوف على مقوماته ثانيا؟

أولا: مفهوم الأمن الروحي

- تعريف الأمن لغة:

في معجم مقاييس اللغة (أمن: الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر التصديق)[1].

وهذا المعنى الذي ذكره المفسرون في تعريف الأمن عند تفسيرهم للآيات التي ورد فيها ذكر الأمن، حيث جاء في تفسير الطبري في قوله تعالى: ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا**﴾.

[1] - معجم مقاييس اللغة 133/1-134.

إبراهيم سليمان الهويمل مقومات الأمن في القران الكريم،المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، المجلد 15 العدد 29

والأمن مصدره من قول القائل، أمن يؤمن أمنا، وإنما سماه الله أمنا لأنه في الجاهلية كان يعتبر معاذ لمن استعاذ به، وكان الرجل منهم لو لقي به قاتل أبيه أو أخيه لم يهجم حتى يخرج منه)[1].

فمدلول كلمة (أمان) في اللغة: عدم توقع مكروه في الزمن الآتي، وأصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمن والأمانة والأمان مصادر للفعل (أمن)، ويرد الأمان تارة اسما للحالة التي يكون عليها الإنسان من الطمأنينة، وتارة لعقد الأمان أو صكه،[2] والأمن ضد الخوف[3]، فأصل الأمن طمأنينة النفس، وزوال الخوف، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسما للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن"[4]

ومن التعريفات السابقة للأمن يتبين أنه ضد الخوف وهو طمأنينة النفس وسكونها.

- تعريف الأمن اصطلاحا:

إن كلمة (أمن) على الرغم من شيوع استخدامه إلا أن مفهومه يكتنفه الغموض من الناحية العلمية حيث تتعدد المعاني التي يمكن إلحاقها بالأمن كما أن أنماط الأمن ودرجة شموله تتباين باختلاف أنماط المخاطر الأمنية التي يمكن أن يواجهها المجتمع. فالأمن هو الاستعداد والأمان، وذلك بحفظ الضروريات الخمس من أي عدوان عليها، فكل ما دل على معنى الراحة والسكينة وتوفير السعادة والرقي في أي شأن من شؤون الحياة فهو أمن[5]. والأمن من الأمان وهو ضد الخوف ويعنى به السكينة والاستقرار والطمأنينة مما يؤدى إلى الهدوء وراحة البال وإبعاد المخاوف على مستوى الفرد والجماعة.[6]

---

[1] -جامع البيان للطبري 240/1.

[2] - انظر:الموسوعة الفقهية-233/6-وزارة الأوقاف الكويتية.

[3] - لسان العرب-ابن المنظور-21/13 مادة أمن).

[4] -مفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، كتاب الألف ص 25.

[5] - إبراهيم سليمان الهويمل، المرجع السابق، ص

[6] - محمد عبد الحليم عمر، الزكاة ودورها في تحقيق الأمن المجتمعي، مؤتمر دولي حول مقومات الأمن المجتمعي في الإسلام، مؤتمر 17 المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة 2008 ص 03

ثانيا: الحاجة إلى الأمن:

لكي يحيا الإنسان في الحياة لابد من إشباع حاجاته وحاجيات الإنسان كما هو عليه إجماع علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد تتمثل في نوعين:

- **النوع الأول**: الحاجات الجسمية (الفسيولوجية) وتتعلق بكل ما يحافظ على جسم الإنسان ويغيه من مأكل ومشرب وملبس ومسكن (أي كل ما يتعلق بصحة الإنسان).

- **النوع الثاني**: الحاجات النفسية (السيكولوجية) وتتعلق بكل ما يحافظ على الجوانب الروحية للإنسان وتتمثل في الأمن والانتماء والتقدير وتحقيق الذات[1].

ولقد سبق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة علماء الاجتماع في تحديد الحاجات الإنسانية، حيث اعتبر القرآن الكريم إشباع هذين النوعين من الحاجات نعمة إلهية أنعم الله سبحانه وتعالى بها على خلقه كما جاء في سورة قريش ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[2].

في إطار التصوير القرآني لدعاء سيدنا إبراهيم ربه لزوجته ووليده إسماعيل عندما تركهم في أرض لا زرع فيها ولا مصادر للحياة طلب لهم ما يشبع حاجتهم الجسمية وعلى رأسها الطعام وما يشبع حاجتهم النفسية وعلى رأسها الأمن حيث يقول الله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[3].

حينما يبتلى الله عباده يكون الابتلاء بنقص الموارد التي تشبع الحاجات الإنسانية بنوعها فيقول الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾[4].

كما صور لنا القرآن الكريم آثار التخلف الاقتصادي والذي ربطه بالجوع والخوف في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[5]، فالكفر بنعمة

---

[1] - محمد عبد الحليم عمر، المرجع السابق، ص 03

[4] -سورة قريش الآية 3-4.

[10] -سورة البقرة، الآية 126.

11-سورة البقرة، الآية 155.

12-سورة النحل، الأية 11.

الله هو عدم استغلالها بشكل سليم وهو معنى التخلف اقتصاديا، وهو ما أكده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»[1] وهكذا تتضح أهمية وضرورة الأمن وحاجة الإنسان إليه[2].

ولا يمكن لأي إنسان أن يعيش بدون إشباع هذين النوعين من الحاجات وصولاً إلى الصحة والأمن اللذين يمثلان النعيم في الدنيا كما قال ابن مسعود في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال: الأمن والصحة[3].

ثالثا: نعمة الأمن والأمان:[4]

لم يؤت الإنسان نعمة أفضل من أمنه على نفسه وعرضه وماله ودينه لذلك كانت المقاصد العليا للشريعة الإسلامية حفظ النفس والدين والعرض والعقل والمال، أما الذي يفقد الأمن والأمان لا يهنأ بطعام أو شراب أو منام، من أجل هذا قال رسول الله في الحديث الذي رواه الترمذي عن عبيد الله بن محصن الأنصاري: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» والأمن نعمة دعا بها الأنبياء والمرسلون ففي دعوة إبراهيم - عليه السلام - ﴿رب اجعل هذا بلدا آمنا﴾[5] والأمن سمة مميزة للمجتمع المؤمن، وسمة ملازمة للمؤمنين، وخير الناس من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، فقد روى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم من يرجى خيره، ويؤمن شره»، ولقد سبق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة علماء الاجتماع في تحديد الحاجات الإنسانية كما يظهر ما يلي:

1. **الأمن على النفس:** في فتح مكة أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه «من دخل المسجد الحرام فهو آمن» هذا الإعلان وإن كان في موقف معين إلا أنه صار حكماً مفروضا يشمل زمنه وزمن غيره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فليس من المعقول أو المقبول أن يؤمن الناس

---

[1] 3- رواه الترمذي فى سننه 344/8 حديث رقم 2268، وابن ماجه فى سننه 171/12 حديث رقم 4131.

[2] - محمد عبد الحليم عمر، الزكاة ودورها في تحقيق الأمن المجتمعي، ص 03

15-تفسير الطبري 584/24 والآية رقم 8 من سورة التكاثر.

[4] -خالد بن إبراهيم بن عبد الله الدبيان، دور المسجد في تحقيق مفهوم الأمن الاجتماعي، ندوة دولية حول الأمن والمجتمع، المنعقدة بكلية الملك فهد الأمنية، مركز البحوث والدراسات صفر 1425. ص11

[5] - سورة البقرة آية رقم (126).

داخل البيت الحرام في وقت ما ولا يتوفر لهم هذا الأمن في وقت غيره!! وقد أصدر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم وله دليله من كتاب الله تعالى، حيث أقسم الله بهذا البلد الحرام، ووصفه بالأمين، قال سبحانه: ﴿والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين﴾[1] فالبلد بأسره أمين فما بالك بالمسجد الحرام الذي يتوسط هذا البلد؟ واتفق المفسرون على أن المراد بالبلد الأمين مكة المكرمة، وسمي بالأمين لأنه من دخله كان آمناً، وقد حرم الله مكة على جميع خلقه، كما حرم أن يقطع شجرها أو يؤذى حيوانها[2].

.2 **الأمن على المال:** يعد الحفاظ على المال من مقاصد الشريعة الإسلامية، لذلك فقد روى أحمد والترمذي وصححه عن سعيد بن زيد رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد».

3. **الأمن من الجوع والعطش:** الموجود في البيت آمن على نفسه من الجوع والعطش، وكيف يجوع أو يعطش من في الحرم وفيه بئر زمزم؟! فقد روى الطبراني وابن حبان في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله قال: «خير الماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام من الطعم، وشفاء من السقم». وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وقد جربت أنا وغيري من الاستشفاء بماء زمزم أموراً عجيبة، واستشفيت به من عدة أمراض، فبرأت بإذن الله، وشاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريبا من نصف الشهر أو أكثر، ولا يجد جوعاً، ويطوف مع الناس كأحدهم، وأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يوماً، وكان له قوة يجامع بها أهله، ويصوم، ويطوف مراراً، فهو سيد المياه، وأشرفها، وأجلها قدراً، وأحبها إلى النفوس، وأغلاها ثمناً، وأنفسها عند الناس»، وقد كانت بئر زمزم أمانا لهاجر عليها السلام هي وابنها الرضيع من الموت جوعا وعطشاً، وهي كذلك على مر الزمان، فلا يجوع إنسان أو يعيش وهو في رحاب البيت الحرام أبداً[3].

---

[1] - سورة التين آية رقم (1- 3).

[2] - خالد بن إبراهيم بن عبد الله الدبيان، دور المسجد في تحقيق مفهوم الأمن الاجتماعي،المرجع السابق، ص12

[3] -خالد بن إبراهيم بن عبد الله الدبيان، المصدر السابق.ص 13

رابعا: مقومات الأمن في الإسلام:

1. **الإيمان:** إن التصديق بالله عز وجل وبما جاء من عنده وعلى السنة رسله والإيمان بهم جميعا وبكتب الله منزلة، وملائكته، واليوم الأخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، يحدث في النفس الأمن والطمأنينة، وذلك بما يحدثه فيها من تصور كامل للدنيا والآخرة[1]. وإن المتتبع لآيات الذكر الكريم في هذا الجانب يجد ذلك واضحا وجليا، سواء في وصفه للأمن أو في بيان ضده وأن الكافر يعيش عيشة منغصة لا أمن فيها ولا أمان، وقد كان لهذا الإيمان أثر عظيم في نفس المؤمن وتزكيتها وتطهيرها وطمأنينتها وثقتها بربها، وهذا هو الذي تجلى في موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وحاجه قومه قال أتحاجونني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء الله وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[2]. وهذا بعينه الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنا مطمئنا في حالة كان الرعب والخوف فيها أولى وأقرب من الأمن فحل الأمن مكان الخوف والطمأنينة مكان القلق والسكينة مكان الاضطراب فيقول كلماته لصاحبه الصديق وهو في الغار لا تحزن إن الله معنا. فيقول الله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾.[3] فالإيمان من أهم مصادر الأمن، وصاحب الإيمان من أكثر الناس أمنا، وهو أمر نسبي، فمن قوي إيمانه قوي يقينه وازداد أمنه، وانتفى خوفه، ويتدرج الأمن على حساب الإيمان قوة وضعفا، فللإيمان أثره العظيم في أمن الفرد والمجتمع وله أثره في أمن النفوس وفي أمن البلاد، لأن الأمن سمة المؤمن الصادق في إيمانه فإذا صدق الفرد وصدق إيمان المجتمع عاشوا حياتهم آمنين لا يخافون ولا يفزعون وقد جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم[4]، فالإيمان إذا من مقومات الأمن في المجتمع بل

---

[1] إبراهيم سليمان الهويمل مقومات الأمن في القران الكريم

[2] -سورة الانعام الآية 80 و82.

[3] سورة التوبة الآية 40

[4] -رواه الترمذي.

هو أساسها، وإذا انظم للإيمان العمل وهو أداء الواجبات التي هي الترجمة الحقيقية للإيمان تحقق الأمن لا محالة.

.2 **أداء الواجبات:** إن المتأمل في الأحكام التكليفية وفيما افترضه الله علينا من واجبات يدرك أن هذه التكاليف تعين على تحقيق الأمن وتوفيره، وذلك لما يرى في جميعها من التكافل والترابط والتعاون بشكل لا يعرف له مثيل وهذا ما يجسده قوله صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى[1]. وهذا الترابط والتكاثف تتجلى أهميته في إقامة الصلاة التي هي الركن الثاني في الإسلام، وتأديتها في وقتها وعلى هيئتها المشروعة مع جماعة المسلمين له أثر فعال في ترابط المسلمين وتآلفهم وقرب بعضهم لبعض، وهي طهرة للنفس وصفاء للروح وتماسك للمجتمع. وإيتاء الزكاة وهي ركن أيضا ثالث من أركان الإسلام وهي من أسس إصلاح المجتمع ووسائل طمأنينته، والمتأمل في النصوص يجد اثر الزكاة في حفظ الأمن، حيث تؤدي إلى التكافل والتعاطف، ولها اثر عظيم في حفظ المجتمع من السرقات والجرائم. وقد نسب معظم المفكرين من الفلاسفة ورجال القانون جنوح وانحراف الإنسان في المجتمع إلى الأسباب الاقتصادية، واعتبر الحاجة والعوز والفقر من أهم العوامل التي تدفع المعدوم إلى اختيار سلوك ملتو[2].

.3 **إصلاح الفرد:** فالفرد هو نواة المجتمع، وقد اهتم الإسلام بالفرد اهتماما بالغا وذلك قبل ولادته وذلك باختيار الأم الصالحة التي تقوم على تنشئته وتربيته، حيث قال صلى الله عليه وسلم: فاظفر بذات الدين تربت يداك[3]، وحضانته والعطف عليه بالحنان والرحمة وتوخي المطعم الحلال في إطعام الأبناء والزوجات، وعندما يشب عن الطوق تتم تربيته التربية الإسلامية التي تزكي نفسه وتقوم أخلاقه وتغرس فيه عقيدة التوحيد والتعلق بالله خالقه والتأسي بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فينشأ على المحافظة على العبادات التي تربطه بخالقه عز وجل ويؤمر بالصلاة في سن مبكرة ليتعود عليها منذ نعومة أظافره، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مروا ابناكم بالصلاة على سبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع"[4]، فالصلاة كما قال تعالى: ﴿**إن الصلاة**

---

[1] -صحيح البخاري.

[2] -مصطفى إبراهيم الملزي، منهج الإسلام في مكافحة الإجرام ص 8.

[3] -سنن النسائي

[4] -سند احمد

تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[1]، فيكون المؤمن المؤدي للصلاة وثيق الصلة بخالقه فيقوى بذلك وازع الدين لديه ويزيد إيمانه فيخشى الله تعالى في السر والعلن والظاهر والباطن، وتزكو نفسه وتعلو همته ويرتفع عن الدنايا فلا يقدم على ارتكاب أي جريمة خوفا من الله وطاعة له ومحبة له. وقد أشار ابن القيم رحمه الله لدور الصلاة في مكافحة الجريمة، حيث ذكر أن الصلاة تحقق ثلاث أمور لصاحبها وتحميه من ثلاث أمور: عصمة تغلب شهوته وإرادة تقهر غفلته وحجة تقهر سلوكه ومطلبه.كما أنها تبت الاطمئنان في القلب لقوله تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[2]، وقد فرضت الزكاة على القادرين لتطهرهم من طمع النفس وشحها ومن الأنانية ليكونوا مصدر رحمة نحو إخوانهم الذين تقهرهم الحاجة ويستبد بهم البؤس والحرمان. والزكاة مطهرة للمال والنفس معا، بل إنه بإخراجها يبارك الله تعالى في المال وينميه، وهي أيضا وقاية لصاحبها من شح النفس وتزكية لها، كما قال الله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم﴾[3]. وفي الصيام غرس لخلق المراقبة في الإنسان، فالصائم يدع طعامه وشرابه من أجل مرضاة الله عز وجل، حيث يشعر بان الله رقيب عليه في كل صغيرة وكبيرة، فيقيم هذه الفريضة على أساس من التقوى التي تحول بينه وبين أي انحراف. كما أن للحج أثره الكبير في الحد من الجرائم، وذلك لأنه يزيد في إيمان المسلم ويزكي نفسه ليستقيم على الخير والصلاح، وبذلك يتربى على محاسن الأخلاق فيتعلم آداب الاستئذان وخلق الحياء واحترام الآخرين، والكرم والمروءة والصدق والإيثار وغيرها وهذا سياج يحفظه من الوقوع في المعاصي والمنكرات ونبذ الجريمة وحب الخير والصلاح. وعلى العموم فإن الإسلام يوجد المناخ المناسب للفرد الصالح الذي يحب الخير ويكره الشر ويبتعد عن الجريمة ويحترم حقوق الآخرين ومشاعرهم ويربي الفرد على التعلق بالله وخشيته وتقواه؛ حيث أن ضعف الإيمان بالله هو السبب الأكبر في الجريمة، واختلال الآمن كما قال صلى الله عليه وسلم: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن.[4] والأمن مرتبط بالإيمان سلبا وإيجابا بل هو ثمرة من ثمراته فمع وجود الإيمان يوجد الأمن كما قال الله تعالى: ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون،

[1] -سورة العنكبوت آية 45.
[2] -سورة الرعد الاية 28.
[3] -سورة التوبة الآية 103
[4] -سنن البيهقي.

الذين آمنوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[1]، والظلم المقصود في هذه الآية هو الشرك بالله عز وجل كما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واستشهد بقوله تعالى: ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[2]، لذا فإن التوحيد هو أعظم مقومات الأمن، وإن من أعظم عوامل اختلال الأمن هو الكفر بالله والمعاصي، حيث قال الله تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[3]، فاختلال الأمن عقوبة إلهية يعاقب بها الله تعالى المجتمعات التي تجاهر بالمعاصي وتخرج عن طاعته كما قال الله تعالى: **"ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون"**[4].

4. إصلاح النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع

أ. **النظم الاجتماعية:** حرصت الشريعة الإسلامية على تماسك المجتمع وترابطه، فجاءت التشريعات التي تؤدي إلى تقوية الروابط الاجتماعية كبر الوالدين وصلة الأرحام وحقوق الزوجين وحقوق الأولاد والعدل بين الزوجات والأولاد والنفقة الواجبة لهم وكذلك إصلاح ذات البين والعلاقة بين الزوجين، كما قال الله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾[5]، وكذلك تعدد الزوجات وعدم الظلم والحث على الزواج لعفاف الرجل والمرأة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"[6]. وفي حالة الخلافات بين الزوجين فهناك السعي في الإصلاح بينهما بواسطة حكمين حكما من أهلها وحكما من أهله كما قال الله تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا﴾، فإن لم يستطيعا الإصلاح شرع الله سبحانه وتعالى الفراق

---

[1] -سورة الأنعام الآية 81 و82.
[2] -سورة لقمان الآية 13
[3] -سورة النحل الآية 112.
[4] -سورة الروم الاية 41.
[5] -البقرة الاية 228.
[6] -مسند أحمد

عن طريق الطلاق أو الخلع أو الفسخ كما قال تعالى: ﴿**وإن يتفقا يغن الله كلا من سعته**﴾[1]، وذلك كله بحفظ للمجتمع والأسرة أمنها واستقرارها.

ب. **النظم الاقتصادية**: اهتمت الشريعة الإسلامية بالجانب الاقتصادي حيث أن المال هو قوام الحياة كما قال تعالى: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما**﴾[2]، لذلك فإن الشريعة قد نظمت المعاملات الاقتصادية، فحرمت الربا: "**وأحل الله البيع وحرم الربا**"[3]، وأكل أموال الناس بالباطل والغش والتدليس والغبن الفاحش والاحتكار والميسر والمتاجرة في المحرمات مما يفسد حياة الناس ويضر بهم، وأمرت بالسماحة والتيسير على الناس والصدق في المعاملة، حيث قال صلى الله عليه وسلم: "رحم الله رجلا سمحا إذا باع إذا اشترى سمحا إذا قضى سمحا إذا اقتضى، كما دعت الشريعة إلى الوفاء بالعقود وتوثيق العهود والإشهاد عليها كالدين والرهان وغير ذلك مما يحفظ الحقوق المالية ويجنبها التنازع والخصام، حيث إن كثيرا من أسباب الجريمة هو التخاصم أو التنازع بسبب الأموال أو الظلم وجحد الحقوق المالية فينتج عنها الحقد والانتقام، كما دعت الشريعة إلى الزكاة والصدقات وإطعام الطعام والهبات والأوقاف والوصايا المالية التي تنفع المجتمع.

ج. **النظم السياسية**: ينفرد الإسلام بنظام سياسي مميز تسوده المحبة والإخلاص بين الحاكم والمحكوم مهمته حماية وحراسة الدين ورعاية مصالح المسلمين والعدل بين رعيته، كما قال صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والإمام العادل من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل..."، فالتلاحم بين الحاكم ورعيته والتعاون على إقامة شرع الله في الأرض هو من خصائص النظام السياسي الإسلامي، فالحاكم له حق الطاعة في غير معصية الله ومناصرته والنصح له ومقاتلة من بغى عليه، وتعدى عليه، وعليه واجب النصح للرعية والعدل بينهم بإقامة شرع الله فيهم وحمايتهم من كل ما يهددهم ويهدد بلادهم من أخطار، وإقامة الشريعة وحدود الله والإنصاف من الظالم للمظلوم قال تعالى: ﴿**الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة**

---

[1] -سورة النساء اية 130.

[2] -سورة النساء الاية 05

[3] -سورة البقرة الاية 275.

الأمور﴾[1]. كما يتميز النظام السياسي في الإسلام بالشورى قال تعالى **"وأمرهم شورى بينهم"**[2]، وهنا يوجد نوع من الثقة بين الحاكم والشعب ويقوي العلاقة بينهما، كما أن النظام السياسي في الإسلام يتميز بالعدل لقوله تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾[4]، كما يتميز بالمساواة بين الرعية في الحقوق والواجبات ويكون التفاضل في التقوى، ﴿**إن أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾[5]، حيث لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح[6]، كما أن الإسلام لا يعرف ما يسمى بالأحزاب والمعارضة فالمسلمون كلهم حزب واحد فالحزبية منبوذة في الإسلام، وأمر الشارع بالوقوف مع الحاكم الشرعي وطاعته ومناصرته في غير معصية الله وعدم الخروج عليه، بل ومقاتلة من خرج عليه لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾، وقال تعالى: ﴿**فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾[7]. حيث أن الدولة إذا كانت قوية ولم يكن ما يشغلها من أحزاب أو ثورات أقامت شرع الله وطبقت حدوده وحفظت الأمن فقوتها قوة للدين والمصلحة المسلمين، وفي ضعف الدولة وكثرة الخروج عليها سفك للدماء وانتهاك للأعراض ونهب للأموال واختلال للأمن.

5. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يتميز المجتمع المسلم بأنه مجتمع متماسك ومتعاون ينبذ الجريمة ويحمي الفضيلة كما قال الله تعالى: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾[8]، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج يحفظ المجتمع ويحميه من التحلل والفساد وهو حصن حصين لحماية الدين والأخلاق وبه يترقى المجتمع نحو الخيرية والفلاح في الدنيا والآخرة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون للخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**

---

[1] -سورة الحج الاية 41.
[2] -سورة الشورى الاية 38.
[3] سورة النحل الأية 90
[4] -سورة النساء الآية 58.
[5] -سورة الحجرات الآية 13.
[6] -مسند عبد الله بن المبارك.
[7] -سورة النساء الآية 95.
[8] -سورة التوبة الآية 07.

وأولئك هم المفلحون﴾[1]، فخيرية الأمة هي القيام بهذا الواجب كما قال الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[2].

فالجريمة منكر وإقامة العدل بين الناس معروف، فأفراد الأمة مسؤولون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحماية أنفسهم ومجتمعهم من الفساد، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"[3]، فبالقيام بهذا الأمر يستتب الأمن وتحفظ الأعراض والأنفس والأموال وتحمى العقول مما يفسدها من الأفكار المنحرفة والمخدرات والمسكرات، فالمجتمع كالسفينة إذا خرقت هلك ركابها وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على السفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا"[4].

وفي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هلاك المجتمع في الدنيا وفي الآخرة وعقوبات الدنيا باختلال الأمن وتسلط الطغاة والظلمة والمجرمين على الضعفاء والمساكين وانتهاك أعراضهم وسلب أموالهم وإزهاق الأنفس وانتشار الجهل والبدع والمنكرات وكثرة الأمراض المستعصية وغير ذلك من أنواع الفساد قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبيس ما كانوا يفعلون﴾.

6. التكافل الاجتماعي

يتميز المجتمع المسلم بأنه مجتمع مترابط ومتماسك يقوم فيه القادرون والأغنياء على مساعدة الفقراء، فالمجتمع فيه الضعيف والفقير والمسكين والمحتاج والعجزة والأرامل والأيتام وغيرهم، ولذلك جاءت تشريعات الإسلام بما يكفل الوفاء باحتياجات هؤلاء الضعفاء والمساكين، من إخوانهم القادرين والميسورين، كما قال الله تعالى: ﴿وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾[5]، وقد فرض الله تعالى الزكاة فتؤخذ من الأغنياء وتعطى للفقراء، وأوجب النفقات على الأهل والوالدين والأقرباء

---

[1] سورة آل عمران الآية 104.
[2] سورة آل عمران الآية 110.
[3] -مسند أبي سعيد الخدري
[4] -رواه البخاري
[5] -سورة الداريات الآية 19

وحث على الصدقة والهدية والإطعام وكفالة الأيتام والأرامل، قال صلى الله عليه وسلم: "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة" وأشار بأصبعيه، هذا وقد فرض الله سبحانه وتعالى حقوقا كثيرة في أموال القادرين لمجتمعهم ووعدهم بمضاعفة الأجور وحث على الإنفاق في سبيل الله وما ينفع المجتمع فدعا إلى توقيف الأوقاف وأوجب الوفاء بالكفارات والنذور والوصايا وزكاة الفطر، ودعا إلى الإنفاق بوجه عام لما فيه خير للمجتمع ويؤدي إلى تماسكه وترابطه.

7. فتح باب التوبة:

فتح الإسلام باب التوبة على مصراعيه لمن زلت به القدم لتصحيح سلوكه واستقامته ورده عن غيّه، لقوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم﴾، وقال تعالى: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما﴾.

الخاتمة:

يعتبر الأمن الروحي عامل استقرار نفسي ومجتمعي لدى العديد من فئات الشعب والمجتمع ككل، فلما تتشبع النفس بالقيم والتعاليم السامية الدينية والروحية ترتقي البشرية إلى مصاف المدنية والتحضر، ولقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق، وقد وصفه الله تعالى قائلا: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾، وقد صدق الشاعر حينما قال:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت **** فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وبعد الانتهاء من الحديث عن مقومات الأمن الذي وصفها القرآن الكريم والتي تضمن للإنسان الأمن في الدنيا والآخرة، يتبين لنا جليا ما يلي:

- إن الأمن هو الطمأنينة والسكون في الأنفس وفي جميع شؤون الحياة.

- إن من أعظم ركائز الأمن هو الإيمان، وعليه يرتكز الأمن الروحي.

- إن القيام بما افترضه الله علينا من واجبات على اختلاف أنواعها والبعد عن المنهيات أيا كانت درجتها يحصل الأمن الحقيقي.

لائحة المراجع:

- إبراهيم سليمان الهويمل مقومات الآمن في القران الكريم،المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، المجلد 15 العدد 29
- جامع البيان للطبري 240/1.
- خالد بن إبراهيم بن عبد الله الدبيان، دور المسجد في تحقيق مفهوم الأمن الاجتماعي، ندوة دولية حول الأمن والمجتمع، المنعقدة بكلية الملك فهد الأمنية، مركز البحوث والدراسات صفر 1425.ص11
- لسان العرب-ابن المنظور-21/13 مادة أمن.
- محمد عبد الحليم عمر، الزكاة ودورها في تحقيق الأمن المجتمعي، مؤتمر دولي حول مقومات الأمن المجتمعي في الإسلام، مؤتمر 17 المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة 2008 .
- مصطفى إبراهيم الملزي، منهج الإسلام في مكافحة الإجرام
- معجم مقاييس اللغة.
- مفردات في غريب القران، للراغب الأصفهاني، كتاب الألف
- الموسوعة الفقهية -233/6- وزارة الأوقاف الكويتية.

إسهامات المذهب المالكي في تحقيق الأمن الروحي

د. أناس لغبيسي
(جامعة محمد الخامس بالرباط)

مقدمة:

لقد تلقى المغاربة المذهب المالكي على مر القرون بالقبول، وارتضوه كخيار فقهي، وقاموا بالتأصيل له، باعتباره أسهم في لَمّ شمل المغاربة، وتمتين وحدتهم.

وقد أخذت الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب الفقه المالكي، كمذهب فقهي رسمي في الحكم والإفتاء، ولم يلق منافسا إلا في فترات قليلة، فنافسه في الأندلس المذهب الظاهري، ثم خبا ذكره سريعا[1]، ونافسه في تونس المذهب الحنفي في عهد الأغالبة، ثم لم يلبث أن اندثر[2]، ونافسه في الجزائر وليبيا المذهب الإباضي الخارجي، واستقر في مناطق ضيقة ولم يتسع[3]، ونافسه

[1] قال المقري في نفح الطيب 68/2:" واتبعه على رأيه –أي ابن حزم- جماعة من أهل الجهل، وحل بجزيرة ميورقة، فرأس فيها، واتبعه أهلها". وأثبت الونشريسي في "المعيار المعرب" 42/2 ظاهرية محمد بن تومرت الموحدي، بل سماه:" المهدي الظاهري محمد بن تومرت"، ويصرح صاحب بيوتات فاس بتأثر دولة الموحدين بالمذهب الظاهري من أول نشأتها حتى انتهائها حينما قال:"وسبب إحراق المدونة أن ملوك الموحدين تحلوا بالمذهب المعروف لهم، تابعين للمهدي رئيسهم الأول، القائل باعتقاده الفاسد بإنكار الرأي في الفروع الفقهية، والعمل على محض الظاهرية... وجروا على ذلك السَّنَن بطول أيامهم".

وكان الموحدون يعقدون مجادلات ومحاورات لترجيح المذهب الظاهري على المذهب المالكي، ومن ذلك المناظرة التي أشرف على تنظيمها عبد المؤمن بن علي، بين علماء الظاهرية والمالكية،حول مسائل عدة في مدونة سحنون، ومنها مسألة إعادة الصلاة في الوقت، قال ابن زرقون:" كنت في العلماء الذين جمعهم عبد المؤمن بن علي، وقام الوزير أبو جعفر بن عطية، وقال: بلغ سيدنا أن قوما تركوا الكتاب والسنة وضاروا يفتون بفروع لا أصول لها وقال من نظر فيها عاقبته وأن عندهم كتابا يقال له المدونة لا يرجعون إلا إليه ثم قال ومن العجب قولها بإعادة الصلاة في الوقت كل ذلك مراده أن يحمل الناس علي مذهب ابن حزم "بيوتات فاس الكبرى" دار المنصور الرباط، ط 1972م، ص:19 "حضارة الموحدين" محمد المنوني ص:83 هامش8

[2] قال عياض في"ترتيب المدارك" 26/1:"ولكن الغالب إذ ذاك مذهب المدينة والكوفة، وكان الظهور في دولة بني عبيد لمذهب الكوفيين، لموافقتهم إياهم في مسألة التفضيل... وجرت على المالكية في تلك المدة محن".

[3] أعلن عن قيام الدولة الإباضية سنة 140هـ، وأسس الأباضيون الدولة الرستمية على يد عبد الرحمن بن رستم الفارسي، وعاصمتها «تاهرت»، وسيطرت على المغرب العربي من طرابلس وحتى وهران. ودام حكمها قرنا ونصف قرن من 144 هـ وحتى 296 هـ. "رياض النفوس" أبو بكر المالكي، ص 10، القاهرة 1951م، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي 8/2-9.

المذهب الصُّفْرِي الخارجي في سجلماسة بالمغرب[1]، ونافسه المذهب الشيعي في كتامة بالمغرب، ثم انقرض[2].

وقد أسهم المذهب المالكي في عوامل بقائه واستمراره في المغرب، وفي البلدان التي انتشر فيها، من خلال الالتزام بنصوص الوحي وروحها، ومراعاة فقه الواقع، وكذا التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كما عمل على صيانة الدول من التناحر والتقاتل، وحقق أمنهم الروحي.

ويمكن استعراض أسباب تحقق الأمن الروحي للمجتمعات التي انتشر فيها المذهب المالكي، في الأمور التالية:

1.براءة المذهب المالكي من البدع العقائدية:

لقد اتسم المالكية بمقاومة الانحرافات العقدية المدمرة، ونفروا الناس من الخوض فيها، والتعمق والتفكر في بعض الأمور للعجز عن الوصول إلى حقيقتها وتصورها، ولعدم القدرة على الإحاطة بها، ولما قد تحدثه لبعضهم من فتنة وآثار سيئة، وبذلك ضمن الأمن الروحي لأفراد المجتمع.

---

[1] قال ابن خلدون:"كان أهل مواطن سجلماسة من مكناسة يدينون لأول الاسلام بدين الصفرية من الخوارج " تاريخ ابن خلدون 130/6،ويذهب الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق إلى:" أن تغلغل المذهب الصفري في سائر أرجاء المغرب الأقصى وبعض نواحي إفريقية والمغرب الأدنى بين البربر والعرب والأفارقة والسودان على السواء، هو الذي حدَا بابن خلدون إلى القول بأن الصفرية قد فشت مقالتها في سائر القبائل بإفريقية، وصار لهم فيها عدد كثير وشوكة قوية على حد قول النويري" الخوارج في بلاد المغرب –ص:50 -دار الثقافة–الدار البيضاء-الطبعة الثانية/1985.

[2] قال تقي الدين المقريزي في "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء" 55/1-57 بأنه جاء إلى المغرب داعيتان ينشران مذهب الشيعة، تمهيدا لقيام المهدي، واسمهما الحلواني وأبو سفيان، ونشرا مذهبهما في أرض كتامة من بلاد المغرب. ولما ورد خبر موتهما على رستم بن الحسن بن ذاذان من شيعة اليمن، أرسل أبا عبد الله الشيعي إلى المغرب، وقال له:"إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك"، فذهب أبو عبد الله إلى الحج، وسأل عن أهل كتامة، وتعرف إليهم، وتألفهم بما أظهر من الزهد والعبادة، ودخل معهم إلى كتامة سنة 288 هـ، وبدأ ينشر مذهبه، وأتاه البرابر من كل مكان، وعظم أمره. وقال المقريزي 66/1:" وزال ملك بني الأغلب من إفريقية، وملك بني مدرار من سجلماسة، وملك بني رستم من تاهرت. وملك عبيد الله المهدي جميع ذلك... وأمر يوم الجمعة أن يذكر اسمه في الخطبة، ويلقب بالمهدي أمير المؤمنين في جميع البلاد". وقد قاوم المغاربة المد الشيعي بشدة، ويظهر ذلك جليا من نص المقريزي99/1:"ولما استدعى المعز، يوسف بن زيرى الصنهاجي، وقال له: تأهب لخلافة المغرب، أكبر ذلك، وقال: يا مولانا، أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفوا لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتني يا مولاي بلا سيف ولا رمح".

وقد روي أن الإمام مالكا سئل عن كيفية الاستواء، فأمر بإخراج السائل تأديبًا له، وصيانةً لمجلسه من أن خوض أهل الأهواء في أمور العقائد بالرأي أو الهوى، أو إثارة الشبهات وتقرير الأباطيل. فعن عبد الله بن وهب قال:" كنا عند مالك بن أنس، فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله "الرحمن على العرش استوى" كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك، وأخذته الرَّحضاء -يعني العرق-، ثم رفع رأسه فقال:"الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة. أخرجوه، قال: فأخرج"[1]، ويروي الحافظ أبو نعيم في "حلية الأولياء" عن جعفر بن عبد الله قوله:" كنا عند مالك بن أنس، فجاءه رجل، فقال: يا أبا عبد الله "الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكتُ بعود في يده حتى علاه الرحضاء، ثم رفع رأسه، ورمى بالعود، وقال:"الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، وأمر به فأخرج[2].

وهكذا حمى المذهب المالكي أتباعه من كل ما تشم منه رائحة الخلافات العقدية، وتصدى لكل الانحرافات الضالة والمعتقدات الفاسدة والتأويات المغرضة التي تثير الفتنة الدينية، وتمزق النسيج الروحي للمجتمع. وتذكر المصادر أن الخليفة الحكم المستنصر بالله كتب رسالة لعماله، جاء فيها: "وكل من زاغ عن مذهب مالك،فإنه ممن زين على قلبه، وزين له سوء عمله، وقد نظرنا طويلًا في أخبار الفقهاء، وقرأنا ما صنف في أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم نر مذهبًا من المذاهب غيره أسلم منه، فإن فيهم الجهمية والرفضية والخوارج والمرجئة والشيعة إلا مذهب مالك رحمه الله تعالى، فإنا ما سمعنا أحدًا ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع، فالاستمساك به نجاة إن شاء الله تعالى"[3].

وتذكر كتب التاريخ أن المغاربة سئموا من الصراعات التي جلبتها بعض الاعتقادات المنحرفة، والتي كانت سببا في حصول التنافر والتقاتل بين أفراد المجتمع الواحد، وهو ما يفسره قول

[1] "الأسماء والصفات" للبيهقي 304/2. وقال الذهبي في "العلو"، ص:141:"وساق البيهقي بإسناد صحيح عن أبي الربيع الرشديني عن ابن وهب ... ".

[2] "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، لأبي نعيم، 325/6-326.، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 1409هـ

[3] "ترتيب المدارك وتقريب المسالك"، للقاضي عياض، 22/1، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، ط 1965 م، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.
و"المعيار المعرب" للونشريسي 346/1.

الناصري:"وأما حالهم في الأصول والاعتقادات، فبعد أن طهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولا، والرافضية ثانيا، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف رضي الله عنهم في الإيمان بالمتشابه، وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر، وهو والله أحسن المذاهب وأسلمها"[1].

2.نضالية المذهب المالكي والتحام فقهائه بالقضايا المجتمعية:

لقد كان علماء المذهب أشد التصاقا بهموم الناس ساعين في قضاء حوائجهم، واشتهر قضاتهم بالسعي في إحقاق العدل بين الناس، وهذا ما أكده ابن تيمية بقوله:" وكذلك كانت الأمصار التي ظهر فيها مذهب أهل المدينة، يكون فيها من الحكم بالعدل ما ليس في غيرها، من جعل صاحب الحرب متبعا لصاحب الكتاب، ما لا يكون في الأمصار التي ظهر فيها مذهب أهل العراق ومن اتبعهم، حيث يكون في هذه والي الحرب غير متبع لصاحب العلم، وقد قال الله تعالى في كتابه:﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب﴾الآية. فقوام الدين بكتاب يهدي، وسيف ينصر ﴿وكفى بربك هاديا ونصيرا﴾"[2].

وفي "سير أعلام النبلاء" أن سحنون ولي القضاء أربعين سنة، ولم يأخذ راتبا من بيت المال[3]، وفي "ترتيب المدارك" قال جبلة:"كان سحنون لا يأخذ لنفسه رزقًا، ولا صلة من السلطان في قضائه كله"[4].

كما استقبل المغاربة الآلاف من المهجرين اليهود من إسبانيا والبرتغال عام 1492م، واستقروا في ذمة المسلمين وحمايتهم، ورحب السلطان محمد الشيخ الوطاسي بهم، وأفسح لهم المجال في كل بلاد المغرب. قال أبراهام أدروتيل في كتابه سفر هكدوشة:"وأخص بالذكر السلطان العادل المولى محمد بن السلطان العظيم المولى الشيخ، وكان من أتقى الناس في الدنيا، وقد استقبل اليهود

[1] "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" للناصري، 196/1، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ/ 1997م.

[2] "مجموع الفتاوى" 393/20

[3] "سير أعلام النبلاء" للذهبي 68/12، دار الحديث، القاهرة، ط 1427هـ-2006م

[4] "ترتيب المدارك" 59/4

المهجرين من الأندلس، وظل طوال حياته يحسن لبني إسرائيل، وجزاء لما مد به اليهود من أسباب الحياة أدام الله سلطانه على مملكته بفاس"[1].

وفي ظهير السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الخاص بمعاملة اليهود:"بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. نأمر من يقف على كتابنا هذا، أسماه الله وأعز أمره، وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره، من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا، أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إيالتنا، بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق، والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام، حتى لا يلحق أحدا منهم مثقال ذرة من الظلم، ولا يضام ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام، وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم"[2].

وأعطى علماء المالكية النموذج الأخلاقي في الجهاد والتضحية، مما جعل أهل المغرب والأندلس يعجبون بهم، إذ أنكروا المظالم التي تصدر عن الحكام، مما جعلهم يتعرضون للاضطهاد والسجن. وقد امتحن بعضهم على يد العبيديين، وبلغوا إلى درجة الاستشهاد مما جعل مكانتهم تسمو في أعين الناس، فصاروا يميلون إليهم، ويسترشدون بآرائهم. فعندما ادعى عبيد الله المهدي الشيعي الرسالة، أحضر ابن البردون وابن هذيل من فقهاء القيروان، وهو جالس على كرسي ملكه، وأوعز إلى أحد خدمه، فقال للشيخين: «أتشهدان أن هذا رسول الله؟ فقالا بلفظ واحد: والله لو جاءنا هذا، والشمس عن يمينه، والقمر عن يساره، يقولان: إنه رسول الله، ما قلنا ذلك، فأمر بذبحها"[3].

وتذكر كتب التاريخ أن العبيديين كانوا يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال، لأنهم كانوا يعتبرون الحساب لا الرؤية، بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال، كما فعلوا بالفقيه محمد بن الحبلي قاضي مدينة برقة. قال الذهبي رحمه الله في ترجمته:"الإمام الشهيد، قاضي مدينة برقة، محمد بن الحبلي،أتاه أمير برقة، فقال: غدا العيد. قال: حتى نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلد إثمهم. فقال: بهذا جاء كتاب المنصور، فلم يُرَ هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد. فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلا خطب، وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تنصل، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فعلق في

[1] نقلا عن كتاب "يهود الأندلس والمغرب" حاييم الزعفراني، ترجمة: أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، ط 2000 ص:301
[2] "الاستقصا" 113/3
[3] "سير أعلام النبلاء" 217/14

الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث العطش، فلم يسق، ثم صلبوه على خشبة، فلعنة الله على الظالمين"[1]. ويوضح القاضي عياض الحالة التي كان عليها علماء القيروان أيام العبيديين من القهر والشدة، فيقول:"كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد، في حالة شديدة من الاهتضام والتستر، كأنهم ذمة تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة"[2].

وإزاء مواقف الدولة العبيدية المتسمة بالضلال العقدي والظلم الاجتماعي، اعتبرها علماء القيروان دولة كفر وإلحاد، تنشر الزندقة في المجتمع الإسلامي. ولعل الدليل على ذلك ما قاله القاضي عياض:"وقال أبو يوسف بن عبد الله الرعيني في كتابه: أجمع علماء القيروان أبو محمد، وأبو الحسن القابسي، وأبو القاسم ابن شبلون، وأبو علي بن خلدون، وأبو بكر الطبني، وأبو بكر بن عذرة: أن حال بني عبيد، حال المرتدين والزنادقة، بما أظهروه من خلاف الشريعة، فلا يورثون بالإجماع، وحال الزنادقة بما أخفوه من التعطيل، فيقتلون بالزندقة"[3].

كما تصدر فقهاء المالكية التصدي للغزاة، والجهاد في سبيل الله، واستشهد من علمائهم أمثال عبد الرحمن الغافقي في معركة بلاط الشهداء[4]، وأسد بن الفرات في غزوات صقلية[5]، وابن جزي في معركة طريف[6].

3- طبيعة المذهب المالكي الملائم لعقلية البلدان المنتشر فيها:

لقد عرف المالكية بنفورهم من الغموض والإبهام والتكلف والتعقيد، وميلهم إلى البساطة والوضوح والتيسير، كما عرفوا بعزوفهم عن العقليات، ووقوفهم منها موقف الإنكار والرفض، وذلك

---

[1] "سير أعلام النبلاء" 374/15

[2] "ترتيب المدارك" 303/5

[3] "ترتيب المدارك" 277/7

[4] قال الحميدي في "جذوة المقتبس"، ص:274:"استشهد في قتال الروم بالأندلس سنة خمس عشرة ومائة"، وقال ابن الفرضي في "تاريخ علماء الأندلس"، ص: 95:"قتلته الروم بالأندلس سنة خمس عشرة ومائة".

[5] قال عياض في "ترتيب المدارك" 309/3:"وكانت وفاة أسد في حصار سرقوسة، من غزوة صقلية، وهو أمير الجيش وقاضيه. سنة ثلاث عشر ومائتين. وقيل أربع عشرة، وقيل سبع عشرة. وقبره ومسجده بصقلية".

[6] قال ابن حجر في "الدرر الكامنة" 89/5:"قتل في الكائنة بطريف في سابع جمادى الأولى سنة 741هـ"، وفي الديباج المذهب 276/2:" توفي شهيدًا يوم الكائنة بطريف في عام أحد وأربعين وسبعمائة رحمه الله تعالى".

للحفاظ على لحمة المجتمع، وعدم الوقوع في الخلاف والفرقة والتشرذم والتفرق، وبذلك استطاعوا أن يحققوا الأمن الروحي للمجتمعات التي أخذت بمذهبهم، ونهلت من معينه.

فهذا الإمام أبو بكر محمد بن خويز منداد رئيس المالكية في عصره بالعراق يقول ابن فرحون في ترجمته: " وكان يجانب الكلام، وينافر أهله، حتى يؤدي ذلك إلى منافرة المتكلمين من أهل السنة، ويحكم على الكل منهم بأنهم من أهل الأهواء، الذين قال مالك في مناكحتهم وشهادتهم وإمامتهم وتنافرهم ما قال"[1] .

ويذكر المراكشي أن المغاربة في العصر المرابطي كانوا ينفرون من علم الكلام والجدل، ويرفضون كل تأويل واستدلال عقلي، فيقول في "المعجب"، ما نصه:"وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم، ويعادون من ظهرت عليه، شديدًا أمرهم في ذلك، فجمع والي المدينة الفقهاء وأحضره معهم –يقصد محمد بن تومرت-، فجرت له مناظرة كان له الشُّفُوف فيها والظهور، لأنه وجد جوا خاليًا، وألفى قومًا صيامًا عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع، فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي البلد بإخراجه، لئلا يفسد عقول العوام، فأمره والي البلد بالخروج، فخرج متوجهًا إلى مراكش"[2].

ويوجد تشابه كبير في بيئة الحجاز وبلاد الغرب الإسلامي، في ميلها للبساطة، وكراهيتها التكلف في النظريات والفلسفات والتأويلات البعيدة، وذلك لبعدها عن مواطن التمدن والتحضر، وهو ما أكده ابن خلدون الذي يرى أن البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، فكان اختيارهم لمذهب أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة. قال ابن خلدون:"فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة. ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضًا عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، كما وقع في غيره من المذاهب"[3]

ومن مميزات المذهب المالكي في مجال الاشتغال العقدي الإسلامي، أنه مذهب يهتم بالعمل أكثر من اهتمامه بالقضايا النظرية، والأبحاث التجريدية العقدية التي لا تفضي بالمكلف إلى عمل،

---

[1] "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب " لابن فرحون، 229/2، تحقيق وتعليق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.

[2] "المعجب" ص: 139

[3] "مقدمة ابن خلدون" ص: 258

فقد روي عن مالك رضي الله عنه أنه قال: الكلام في الدين كله أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه. ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في الله فأحب إلي السكوت عن هذه الأشياء، لأن أهل بلدنا ينهون عن الكلام إلا فيما تحته عمل[1].

وقاوم الإمام مالك المدارس الفقهية التي تفترض المتوقعات، وعدَّ الاشتغال بما لم ينزل، مدعاة للتكلف المذموم في الدين، وتضييعا للوقت والجهد فيما لا فائدة ولا نفع ولا طائل من ورائه، وكان ينبذ الافتراض والتخيل للوقائع، ويرفض الإجابة عن المسائل المستبعدة أو المستحيلة. ويروى عن أسد بن الفرات، أنه قال:"كان ابن القاسم وغيره يحملني أن أسأل مالكا، فإذا أجابني، قالوا لي: قل له، فإن كان كذا وكذا، فضاق علي يوما، وقال: هذه سلسلة بنت سلسلة. إن كان كذا، كان كذا. إن أردت فعليك بالعراق"[2]، وسأل رجل عراقي الإمام مالكا عن رجل وطئ دجاجة ميتة، فخرجت منها بيضة، فأفقست البيضة عنده عن فرخ أيأكله؟ فقال مالك: سل عما يكون، ودع ما لا يكون، وسأله آخر عن نحو هذا، فلم يجبه. فقال له: لم لا تجبني يا أبا عبد الله؟ فقال له: لو سألت عما تنتفع به أجبتك"[3]. وتوسع أبو حنيفة رحمه الله في افتراض المسائل التي لم تقع، وكانت له جرأة على توليد الحوادث، والحكم عليها قبل أن تكون، وكان منهجه بقوله:"إنا نستعد للبلاء قبل نزوله، فإذا ما وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه"[4]. لكن هذه الفروع النادرة استغرقت الوقت عن النظر في الأصول، وبدأت دائرة البحث تتسع في المتخيلات، وكلها مسائل تضيع أعمار العلماء، وتفني الأعصار، ولا تقع واحدة منها، مما استوجب تأخر الفقه ودخوله في طور الكهولة، ثم الشيخوخة[5].

[1] "ترتيب المدارك" 136/1

[2] "ترتيب المدارك" 292/3

[3] "ترتيب المدارك" 190/1

[4] "تاريخ بغداد" 348/13

[5] " الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"، محمد الحجوي الثعالبي، 423/1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1- 1416هـ-1995م

ولا غرو، فموقف الإمام مالك هو طريقة السلف الصالح، فعن الزهري: "بلغنا أن زيدا بن ثابت كان يقول: إذا سئل عن الأمر، أكان هذا؟ فإن قالوا: نعم، حدَّث فيه بالذي يعلم، وإن قالوا: لم يكن، قال: فذروه حتى يكون"[1].

وقد تجنب فقهاء المالكية الانزلاق في البحث عن الاحتمالات الواسعة والخصبة، ويروي عياض في "ترتيب المدارك" أن زيادا بن عبد الرحمان أتاه كتاب من أحد ملوك الأندلس، يسأله عن كفتي ميزان الأعمال يوم القيامة، من ذهب هي أم من ورق؟ فكتب إليه: حدثنا مالك عن ابن شهاب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. وستَرِدُ، فتعلم"[2]. وعبر الشاطبي عن هذا المعنى بقوله: "كل مسألة لا ينبغي عليها عمل، فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعني بالعمل: عمل القلب، وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعا. والدليل على ذلك استقراء الشريعة، فإنا رأينا الشارع يعرِض عما لا يفيد عملاً مكلفًا به"[3].

4- كثرة أصول المذهب المالكي ووفرة قواعده:

لقد تميز الفقه المالكي بالتوسع في المصادر الإجمالية التي تستسقى منها أحكام الفروع الجزئية. وأثرى تعدد ووفرة الأصول الاستنباطية الآراء التشريعية، وأكسبها القدرة على الإجابة على الوقائع والمستجدات والنوازل الحالة، مما جعل الناس يأمنون على قدرة المذهب على الإجابة على تساؤلاتهم.

وقد اختلف العلماء في عَدِّ أصول المذهب المالكي، وأوصلها الفقيه أبو محمد صالح ت 653 هـ إلى ستة عشر أصلا، فقال:"الأدلة التي بنى عليها مالك مذهبه ستة عشر: نص الكتاب، وظاهر الكتاب، وهو العموم، ودليل الكتاب، وهو مفهوم المخالفة، ومفهوم الكتاب، وهو باب آخر، وتنبيه الكتاب، وهو التنبيه على العلة، كقوله تعالى:﴿**فإنه رجس**﴾ أي فسق، ومن السنة أيضا مثل هذه الخمسة، فهذه عشرة، والحادي عشر الإجماع، والثاني عشر القياس، والثالث عشر عمل أهل المدينة، والرابع عشر قول الصحابي، والخامس عشر الاستحسان، والسادس عشر الحكم

[1] "سير أعلام النبلاء" 72/4

[2] "ترتيب المدارك" 120/3

[3] "الموافقات" للشاطبي 45/1، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط 1/ 1417هـ- 1997م

بسد الذرائع. واختلف قوله في السابع عشر وهو مراعاة الخلاف، فمرَّة يراعيه، ومرَّة لا يراعيه"[1]. وقد زاد العلماء أصلا آخر، وهو "شرع من قبلنا"، وصحح هذا الأصل القاضي ابن العربي في كتابه "أحكام القرآن"[2].

وقد اعتبر تفرد المذهب المالكي بكثرة الأصول التشريعية من مميزات المذهب وحسناته، وفي ذلك يقول الشيخ محمد أبو زهرة:"وأما كثرة أصوله فإنه أكثر المذاهب أصولا... وتلك الكثرة حسنة من حسنات المذهب المالكي يجب أن يفاخر بها المالكيون"[3].

وهذه الأصول منها ما اشترك فيها الإمام مع غيره من الأئمة، ومنها ما توسع في إعمالها، حتى قيل إنه انفرد بها، وهي: المصلحة المرسلة، وسد الذرائع، ومراعاة الخلاف، والعوائد[4]. وفي ذلك يقول الشوشاوي في كتابه "رفع النقاب عن تنقيح الشهاب":"إن أرباب المذاهب ذكروا انفراد مالك بخمسة أشياء: اعتبار العوائد، والمصلحة المرسلة، وسد الذرائع، ومراعاة الخلاف، والحكم بين الحكمين. فأما الثلاثة المذكورة، فليست من خصوصياته، وأما الأخيران، فمن انفراداته"[5].

أما عمل أهل المدينة، فقد اشتهر الفقه المالكي بالارتباط بهذا الأصل ارتباطا وثيقا، وهو الأمر المتوارث المنقول عن أهل المدينة من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عهد صغار التابعين، وقد تفرد به الفقه المالكي، وجعله من الأصول الكبرى الذي ترتكز عليه أحكامه وتشريعاته.

ويرى الشاطبي أن تقديم الإمام مالك عمل أهل المدينة على الأحاديث هو من باب مراعاة العمل المستمر والأكثر، وترك ما سوى ذلك. فالعمل المستمر عنده يرجح الدليل على سائر الأدلة التي لم يصاحبها العمل المستمر، وعمل أهل المدينة مأخوذ عن العمل المستمر في الصحابة، ولم يكن مستمرا فيهم إلا وهو مستمر في عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم[6]. ونقل عن مالك

---

[1] انظر "البهجة في شرح التحفة" لأبي الحسن التسولي 219/2

[2] انظر "أحكام القرآن" لابن العربي، 42/1، تعليق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3/ 1424 هـ - 2003 م

[3] "مالك حياته وعصره" لأبي زهرة، ص: 376، دار الثقافة العربية للطباعة، عابدين، مصر، بدون طبعة ولا تاريخ.

[4] انظر "شرح تنقيح الفصول" للقرافي، ص: 448.

[5] "رفع النقاب عن تنقيح الشهاب" لأبي علي الشوشاوي، تحقيق: عبد الرحمان بن عبد اله الجبرين 1205/2

[6] "الموافقات" 270/3-271

قوله:"أحب الأحاديث إلي ما اجتمع الناس عليه"[1]، فلذلك جعل الإمام مالك العمل أقوى من خبر الواحد، لأن العمل المتصل بالمدينة لا يكون إلا عن توقيف، فهو يجري عنده مجرى ما نقل نقل التواتر من الأخبار، فيقدم على خبر الواحد وعلى القياس[2].

و يذهب الإمام السبكي إلى أن أصول مذهب مالك تزيد الخمسمائة، ولعله يشير إلى القواعد التي استُخرجت من فروعه المذهبية، وأنهاها القرافي في فروقه إلى خمسمائة وثمانية وأربعين، وغيره أنهاها إلى الألف والمائتين كالمَقَّرِي وغيره، لكنها في الحقيقة تفرعت عن هذه الأصول. والإمام مالك لم ينص على كل قاعدة قاعدة، وإنما ذلك مأخوذ من طريقته وطريقة أصحابه في الاستنباط[3].

ووفرة أصول المذهب المالكي وكثرة قواعده، هي التي جعلت الشيخ أبي زهرة يقول في شهادته عن المذهب المالكي: "وقد اختبره العلماء في عصور مختلفة، فاتسع لمشاكلهم. واختبره علماء القانون في عصرنا الحاضر فكان مسعفا لهم في كل ما يحتاجون إليه من علاج، لكثرة مجتهديه وكثرة أصوله، ونوع الأصول التي أكثر منها، وأنه أكثر المذاهب أصولا "[4].

وتميز الفقه المالكي بكثرة أصوله، وتنوع روافده، جعله يساير الظروف، ويجاري تغاير العصور، ويكسبه صلاحية تطبيقه في مختلف الأزمنة والأمكنة. وقد أثبت العالم الأزهري الأستاذ سيد عبد الله حسين، والذي درس القانون بفرنسا في كتابه "المقارنات التشريعية بين القوانين الوضعية والتشريع الإسلامي- مقارنة بين القانون الفرنسي، ومذهب الإمام مالك بن أنس-" استقاء المشرع الفرنسي معظم مواده وأحكامه من التشريع الإسلامي عامة، ومن المذهب المالكي خاصة[5].

---

[1] "الموافقات" 278/3

[2] "البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة" لابن رشد الجد، 331/17، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2 /1408 هـ - 1988 م.

[3] انظر "الفكر السامي" للحجوي الثعالبي 457/1

[4] "مالك حياته وعصره" محمد أبو زهرة، ص: 376

[5] انظر "المقارنات التشريعية بين القوانين الوضعية المدنية والتشريع الإسلامي، مقارنة بين فقه القانون الفرنسي ومذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه" لسيد عبد الله علي حسين 51/1-52

5- قابلية المذهب المالكي للتطور والتجديد:

إن أصالة المذهب المالكي، وثراءه الفقهي، وقدرته على إيجاد الحلول لمشكلات الواقع المعاصر، وقابليته للتجديد والانفتاح جعلته من أكثر المذاهب الإسلامية رسوخا وثباتا وإشعاعا، وتحقيقا لأمن المجتمع الروحي.

ومن أمثلة قابلية المذهب المالكي للتطور والتجديد قاعدة ما جرى به العمل. ويقصد بما جرى به العمل اختيار قول ضعيف أو شاذ، في مقابل الراجح أو المشهور، والحكم والإفتاء به، لعمل القضاة والمفتين به، لسبب يقتضي ذلك الأخذ لمصلحة، أو ضرورة، مع استقرار القضاء عليه، وعمل القضاة به[1]. يقول الإمام محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: "فيعمد بعض القضاة إلى الحكم بقول مخالف المشهور لدرء مفسدة، أو لخوف فتنة، أو جريان عرف في الأحكام التي مستندها العرف لا غيرها، أو نوع من المصلحة، أو نحو ذلك فيأتي من بعده، ويقتدي به ما دام الموجب الذي لأجله خالف المشهور في مثل تلك البلد، وذلك الزمن"[2]. وفي ذلك يقول أبو زيد عبد الرحمن الفاسي في نظم عمليات فاس:

وما به العمل دون المشهور *** مقدم في الأخذ غير مهجور[3]

ويعتبر أبو العباس الهلالي أن القول الضعيف والشاذ إذا ارتبط به جريان العمل، أصبح من أفراد الراجح. فقال: "فإذا رجح بعض المتأخرين المتأهلين للترجيح قولا مقابلا للمشهور بموجب رجحانه عندهم، وأجروا به العمل في الحكم، تعين اتباعه، فيقدم مقابل المشهور لرجحانه على المشهور بموجبه، لا بمجرد الهوى"[4].

---

[1] انظر "أصول الفتوى والقضاء في المذهب المالكي" للدكتور محمد رياض، ص:513، ط 1/ 1416هـ-1996م.

[2] "الفكر السامي" 465/2

[3] "حاشية الهواري على شرح التاودي للامية الزقاق"، ص 332، طبعة حجرية، 1327هـ.

[4] "نور البصر" للهلالي، ص132.

إن إعمال قاعدة ما جرى به العمل هو صنف من أصناف الاجتهاد المذهبي، ينشأ عند تعدد النوازل وتشعبها، وما يحدثه الناس من أمور تقتضي إحداث أقضية جديدة لها، كما قال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:"تحدث للناس أقضية، بقدر ما أحدثوا من الفجور"[1]

واعتمد علماء المالكية أقوالا مرجوحة، أو خارجة عن المذهب، إذا ما جرى بها العمل، لتتناسب مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مما أغناهم عن الاستيراد والتبني والاقتباس من الغير. كما اعتمد مالكية المغرب كلا من العمل المطلق، أو العمل المقيد، كالعمل الفاسي والعمل السوسي، والعمل الرباطي، والعمل التطواني وغيرهم، والذي أثبت نجاعته ونجاحه في الإجابة عن كثير من الأسئلة والفتاوى والقضايا المعروضة. إذ يبحث القاضي في التراث الفقهي الغني لحل المعضلات والمشكلات التي تعرض عليه، فإذا لم يسعفه الراجح أو المشهور بحث حتى في الأقوال الضعيفة.

وفي واقع الأمر أنه لما أقفل باب الاجتهاد سدا لذريعة من قد يدعيه دون أن يكون من أهله، فتح فقهاء المالكية بابا آخر له عن طريق ما جرى به العمل، حين طرأت نوازل ووقائع، واستجدت أمور كان لا بد من مواجهتها بالنظر في المذهب إلى أقوال مهجورة، وآراء منثورة، لتصبح لها حظ من النظر بعد تقويتها بأدلة وأصول[2] .

ومثال ذلك إحداث المالكية قواعد لقبول شهادة غير العدول، رغم إجماع العلماء على أن الشهادة لا يقوم بها إلا العدول، لقول الله تعالى:"وأشهدوا ذوي عدل منكم"، ولكن وجود العدول لا يتفق دائما، فقد تحدث للناس قضايا ومشاكل لا يتأتى حضور العدول فيها وقت الإشهاد، ويضطرون إلى طلب الشهادة ممن اتفق حضورهم من الناس، ولو من العامة، لذلك أفتى بعض العلماء بجواز شهادة اللفيف،إذ يؤخذ بشهادة بعض الحاضرين على بعض، بدون مراعاة عدالة أو غيرها[3]. قال العربي بردلة المفتي: "هذا الذي أدركنا عليه العمل بفاس"[4].

---

[1] انظر "متن الرسالة" لابن أبي زيد، ص: 131-132، و"المقدمات الممهدات" لابن رشد 309/2، تحقيق: الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1408/1 هـ - 1988 م.

[2] "أصول الفتوى والقضاء في المذهب المالكي" للدكتور محمد رياض، ص: 514.

[3] عرفه الدكتور عمر الجيدي في "العرف والعمل في المذهب المالكي" شهادة اللفيف بقوله:"هي شهادة عدد كثير من الناس، لا تتوفر فيهم شروط العدالة المقررة بحيث يحصل بها العلم على وجه التواتر"، ص: 495.

[4] " نوازل العربي بردلة"، ص: 146.

وكانت فتاوى العلماء من قبل بأن شهادة غير العدول لا تجوز مطلقا، ويرفض ويرد قاضي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج شهادة خمسين رجلا من عامة الناس، متمسكا بالمشهور، ودليله أن شهادة العوام لا تجوز، كما أن قاضي فاس أبو الحسن الصغير سئل عن شهادة اللفيف، وقال:إنها لا أصل لها، ولا مستند لها، وأن اقتصارهم على اثني عشر رجلا في اللفيف لا يجوز[1].

وهكذا رجع العلماء عن القول المشهور الراجح، وعملوا بالقول الضعيف، وهو شهادة العامة، واستمر العمل على ذلك في القضاء، وأصبحت شهادة اللفيف، أو شهادة العامة مما جرى به العمل.

إن نظرية العمل تعبر بوضوح عن قابلية الفقه المالكي للتطور والمسايرة، باختياره الأقوال المناسبة للحالة المعروضة عليه، ولو كانت ضعيفة أو شاذة، لأن مقتضيات المصلحة ودواعي الضرورة، وموجبات العرف تمحو عن تلك الأحوال سمة الضعف وآثار الشذوذ، وتجعلها آكد في الاعتبار وأدعى للاختبار، فتخرجها من حيز الإهمال إلى نطاق التطبيق والإعمال، وفي كل ذلك تبقى روح الاجتهاد سارية في نفس الفقيه، كيفما كانت منزلته أو مرتبته، والنفس التشريعي يبقى بدوره مستمرا ومتلاحقا ومتجدد العطاء[2].

قال أبو العباس الهلالي: "إن تغير الأحكام عند تغير الأسباب ليس خروجا عن المشهور، بل فيه جري على قاعدة المذهب في المحافظة على مصالح العباد وحفظ أموالهم، ولا سيما على القول بأن المشهور ما قوي دليله، وأمثال هذه الاعتبارات فيما جرى به العمل كثيرة"[3].

كما شكلت كثرة التآليف والمصنفات في فقه النوازل، نموذجا حيا لاستمرار آلة الاجتهاد في استيعاب الحوادث الواقعة، وتنزيلها على أصول الشريعة، من أجل تنظيم وتقنين وتوجيه سلوك الفرد والجماعة. ومن أهم كتب النوازل: كتاب "فتاوى الشيخ أبي عمران الفاسي" ت 430هـ، و" ديوان الأحكام الكبرى" لابن سهل الأندلسي ت436 هـ، و"جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا بالمفتين والحكام" لأبي القاسم بن أحمد البرزالي ت 844هـ، وكتاب " المعيار المعرب، والجامع المغرب، عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب» لأبي العباس الونشريسي ت914هـ.

---

[1] انظر "العرف والعمل" للجيدي، ص: 496.

[2] مقال " نيل الأمل في تأصيل ما جرى به العمل 1"، للدكتور إدريس غازي، نشره مركز دراس بن إسماعيل لتقريب المذهب والعقيدة والسلوك، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، http://www.derrass.ma.

[3] "نور البصر"، ص: 139.

6- مرونة المذهب المالكي:

وتعتبر مرونة المذهب المالكي، وعدم جمود مدارسه ورواده على الرأي الواحد، وعدم نبذه الآراء والأقوال المخالفة، من أهم أسباب تشبث العديد من البلدان بهذا الفقه الحيوي الواقعي، وعدم الاستعاضة عنه، أو استبداله بفقه آخر.

فالفقه المالكي غني باجتهادات أعلامه وأعيانه وأئمته، وكانت لهم اختيارات فقهية كثيرة رجحوا فيها أقوال المذاهب الأخرى، ومن بينهم: عبد الرحمن بن القاسم، ويحيى بن يحيى الليثي، وأبو الحسن اللخمي، وأبو عمر بن عبد البر، وأبو عبد الله المازري، وأبو الوليد بن رشد الحفيد، وأبو بكر بن العربي وغيرهم.

وقد ناقش أبو عبيد القاسم بن خلف الجُبَيْري الطرطوسي ت 378هـ في كتابه "التوسط بين مالك وابن القاسم في المسائل التي اختلفا فيها من مسائل المدونة"،أربعا وأربعين مسألة، اختلف فيها ابن القاسم مع شيخه الإمام مالك. وتوسط أبو عبيد الجبيري بينهما مرجحا ما ظهر له، مع ترجيحه في الغالب رأي الإمام مالك[1].

ولأبي الحسن اللخمي اختيارات كثيرة خالف فيها من تقدمه،حتى قال القاضي عياض في ترجمته: "وهو مغرى بتخريج الخلاف في المذهب واستقراء الأقوال، وربما اتبع نظره مخالف المذهب فيما ترجح عنده، فخرجت اختياراته في الكثير عن قواعد المذهب"[2]. واللخمي أحد الأئمة الأربعة المعتمدة ترجيحاتهم في مختصر خليل[3]. ولكثرة اختياراته المخالفة للمذهب،أصبح يضرب به المثل في الخلاف، وهذا مما حدا بعضهم أن ينشد فيه هذا البيت:

لقد مزقت قلبي سهام جفونها ... كما مزق اللخمي مذهب مالك[4]

---

[1] انظر"التوسط بين مالك وابن القاسم في المسائل التي اختلفا فيها من مسائل المدونة" لأبي عبيد الجبيري، تحقيق: مصطفى باحو، ص:6.

[2] "ترتيب المدارك" 109/8

[3] انظر "الفكر السامي" 251/2

[4] "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" 232/2، للمقري التلمساني، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

وضَّمن هذا المعنى العلامة الغلاوي ناظم "بُوطْلَيْحِيَّة في المعتمد من الأقوال والكتب في المذهب المالكي"، حيث قال :

واعتَمَدوا تَبْصرةَ اللخمي *** ولم تَكُن لجاهل أمي
لكنه مَزَّقَ باخْتِياره *** مذهب مالك لدى امتياره[1]

وخالف الإمام أشهب الإمام مالكا في أحد الأقضية، واعترض عليه مخالفته لإمامه، فقال قولته الشهيرة:"وإن قاله مالك، فلسنا له بمماليك"[2]. وجاء في ترجمة أبي عبد الله محمد بن الفخار ت 419هـ قول ابن فرحون في "الديباج":" وكانت له مذاهب أخذ بها في خاصة نفسه، خالف فيها أهل قطره، فكان يصلي الأشفاع خمسا، ويعجل صلاة العصر شديدا، ولا يرى غسل الذكر كله من المذي"[3]، وجاء في ترجمة عبد الله بن سليمان الأنصاري الحارثي ت612هـ قول ابن فرحون: "وكان يدرس كتاب سيبويه ومستصفى أبي حامد، ويميل إلى الاجتهاد في نظره، ويغلب طريقة الظاهرية"[4] .

ولقد كان المذهب المالكي أكثر المذاهب الفقهية مراعاة للمرونة واليسر، وأكثر المذاهب استجابة لحاجة الناس فيما يصلح أمر دينهم ودنياهم مما جعل أبا حامد الغزالي الشافعي بعد دراسته للمذاهب الفقهية في أبواب المياه، يقول:"وددت أن مذهب الشافعي في المياه كان كمذهب مالك"[5].

كما ركز المالكية على التسهيل في المعاملات المالية، وذكروا في أبواب المعاملات قواعد جامعة، حتى اعتبر من أجود المذاهب في المعاملات. قال ابن تيمية:" فأصول مالك في البيوع أجود من أصول غيره، فإنه أخذ ذلك عن سعيد بن المسيب، الذي كان يقال: هو أفقه الناس في البيوع، كما كان يقال: عطاء أفقه الناس في المناسك، وإبراهيم أفقههم في الصلاة، والحسن أجمعهم لذلك كله"[6].

ويشترط علماء المالكية بأن يقام في الأسواق من يعرف الأحكام، لئلا يقع في الربا، ويوقع المسلمين فيه. يقول العلامة الرهوني:"سمعت سيدي أبا محمد رحمه الله تعالى، يذكر أنه أدرك بالمغرب المحتسب يمشي على الأسواق، ويقف على كل دكان، فيسأل صاحبه عن الأحكام التي

[1] "البوطليحية"، ص: 54-56
[2] "المعيار المعرب" للونشريسي 450/1
[3] "الديباج المذهب" 236/2
[4] "الديباج المذهب" 447/1
[5] انظر مجموع الفتاوى" لابن تيمية 501/21
[6] "مجموع الفتاوى" 27/29

تلزمه في سلعه، ومن أين يدخل عليه الربا فيها، وكيف يتحرز منها؟ فإن أجابه أبقاه في الدكان، وإن جهل شيئًا من ذلك أقامه من الدكان، ويقول : لا يمكنك أن تقعد في سوق المسلمين تطعم الناس الربا، وما لا يجوز"[1]

ولم تكن المرونة في المذهب المالكي عامة في كل الأبواب الفقهية، فقد وضع مالك قواعد صارمة وغير متساهلة في أحكام الدماء، وأفتى بعقوبات متشددة في كل من تسول له نفسه الاعتداء على حياة الناس وأرواحهم. وبذلك نجح في الحد من انتشار جريمة القتل في المجتمعات التي دانت له مدة سيادته في محاكمها، ووجوده في تشريعها.

وهكذا أوجب المالكية قتل الجماعة بالواحد إذا اشتركوا في قتله[2]، وأوجبوا القصاص في القتل العمد العدوان، بقطع النظر عن الآلة المستعملة فيه، والطريقة المتبعة في تنفيذه، والأسباب الدافعة لارتكابه، وظروف القاتل عند وقوعه ومكانه[3]، كما أوجبوا القصاص من الوالد والوالدة إذا قصدا قتل ولدهما، فذبحاه أو خنقاه، أو امتنعت من إرضاعه قصد قتله، ولم يستثنوا إلا من قصد تأديبه، فمات من جراء ذلك[4]. ولم يراع المالكية ظروف القاتل، فأوجبوا القصاص على السكران، إذا قتل في حال سكره، ولم يعذروه بزوال عقله، لأن إعفاءه من القصاص، يفتح باب القتل على مصراعيه[5]، وأوجبوا القود على البالغ العاقل، مهما كان سنه، غير آبهين بقانون التخفيف عن الأحداث. وأوجبوا القصاص كذلك فيما يعرف بقتل الشرف، ولم يعذروا القاتل بما هو فيه من الغضب الشديد، والغيرة على شرفه.

---

[1] "أوضح المسالك وأسهل المراقي" محمد بن أحمد الرهوني 2/5، دار الفكر، بيروت ط: 1398هـ/1978م، مصور عن الطبعة الأولى بمصر، المطبعة الأميرية، سنة 1306هـ.

[2] قال المواق في "التاج والاكليل" 306/8:" قال ابن عرفة: المذهب قتل الجماعة بالواحد"، وقال ابن رشد في "بداية المجتهد" 182/4:"فلو لم تقتل الجماعة بالواحد، لتذرع الناس إلى القتل بأن يتعمدوا قتل الواحد بالجماعة".

[3] انظر "خصائص المذهب المالكي" للدكتور محمد التاويل، مطبعة آنفو، فاس، ط 2014م، ص:58-72.

[4] قال ابن رشد في "بداية المجتهد" 183/4:" فقال مالك: لا يقاد الأب بالابن إلا أن يضجعه فيذبحه، فأما إن حذفه بسيف أو عصا فقتله لم يقتل، وكذلك الجد عنده مع حفيده. وقال أبو حنيفة والشافعي، والثوري: لا يقاد الوالد بولده ولا الجد بحفيده إذا قتله بأي وجه كان من أوجه العمد، وبه قال جمهور العلماء".

[5] قال ابن الجلاب في "التفريع" 206/2:" وإذا قتل السكران قُتل"، وذلك لأن القصاص المتمحض حق آدمي أولى، ولأنه حكم لو لم يجب عليه القصاص والحد، لأفضى إلى أن من أراد أن يعصي الله تعالى، شرب ما يسكره، ثم يقتل ويزني ويسرق، ولا يلزمه عقوبة ولا مأثم، ويصير عصيانه سببا لسقوط عقوبة الدنيا والآخرة عنه، ولا وجه لهذا. انظر "المغني" 524/2.

وسوى المالكية بين القتل مباشرة وبين التسبب فيه، كما توسعوا كثيرا في مفهوم السببية، ليشمل كل فعل أو إجراء يترتب عليه القتل عاجلا أو آجلا، وبذلك أوجبوا القتل على المكرَه على قتل الغير بغير حق، وأنه يقتص من المكرِه والمكرَه معا[1]، كما يقتص ممن دَلَّ على المحتبئ المراد قتله ظلما، فإنه يقتل إذا قتل المحتبئ، ومثله منع الطعام أو الشراب أو اللباس أو الدواء عن المضطر لذلك بقصد قتله، فإنه يقتص ممن منع ذلك عنه حتى مات[2].

وضيق المالكية مفهوم الشبهة الدارئة للحد، وجوزوا القياس في الحدود، ولم يقبلوا العفو من ولي القاتل إذا كان القتل غيلة[3]، كما أن القصاص لا يسقط بالتوبة أو التقادم، كما يحرم القاتل من الإرث فيمن قتله عمدا، كما يجب الدية المغلظة في القتل شبه العمد، وهو ضرب الزوج زوجته والمؤدب والأب ولده والأم وفعل الطبيب والخاتن[4].

يقول الدكتور محمد التاويل: "وبهذه التشريعات الصارمة وغيرها، مما يعرف في كتب المذهب، سدَّ جميع أبواب القتل، وأغلق نوافذه، وقطع الطريق على المتعطشين لماء الأبرياء، ونزع الحصانة عن الجميع، وضمن للناس حياة آمنة مطمئنة، كما وعد الله تعالى بها في قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾".

ولعل قلة نوازل الدماء في كتب النوازل الفقهية المالكية يفسر بقلة حوادث القتل، ويسجل شهادة واقعية باستتباب الأمن في الأزمنة والأمكنة التي ساد فيها المذهب المالكي، بينما تضيق بعض المذاهب من مفهوم القتل الموجب للقصاص، وخصته بالقتل المحدد، وتوسعت في مفهوم الشبهة المسقطة للقصاص، ومنعت القياس في الحدود، وأثبتت شبه العمد، وردت حديث القسامة، ومنعت قتل الجماعة بالواحد، وقتل من شارك من لا قصاص عليه من صبي أو مجنون أو والد أو مخطئ، وبذلك انفتح باب القتل على مصراعيه، وأصبح باستطاعة كل مجرم أن يحقق رغبته، وأن يقترف جريمته،

---

[1] قال الخرشي في "شرح مختصر خليل" 10/8:" يقتلان جميعا هذا لتسببه في الإكراه، وهذا لمباشرته".

[2] قال الخرشي في "شرح مختصر خليل" 7/8:" إن الشخص إذا خنق إنسانا أو منعه الطعام والشراب قاصدا قتله فإنه يقتل به، وكذا إذا قتله بمثقل كحجر أو خشبة".

[3] قال ابن أبي زيد القيرواني في "متن الرسالة"، ص: 123-124:"وقتل الغيلة لا عفو فيه، وللرجل العفو عن دمه العمد إن لم يكن قتل غيلة".

[4] قال الحطاب في "مواهب الجليل" 266/6:"الدية المغلظة تكون في شبه العمد وهو ضرب الزوج والمؤدب والأب في ولده والأم والأجداد، وفعل الطبيب والخاتن".

ويتخلص من عدوه بكل وسيلة من وسائل القتل التي لا قصاص فيها عنده، وهو آمن مطمئن على نفسه من القصاص، ضامن لنفسه الحياة بعد تخلصه من غريمه. وهذا مناقض للحكمة التي شرع لها الله تعالى القصاص التي لخصها قوله تعالى ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾[1].

وفي مجال المحافظة على الأمن الداخلي للأمة وحماية أموال الناس وأعراضهم وأنفسهم وتأمينا لحركة النقل والمرور في الطرقات في أمن وأمان، يتميز الفقه المالكي بمواقف صارمة وحازمة من المحاربين وقطاع الطرق، حيث توسع في مفهوم الحرابة ووسائلها ومكانها وزمانها، وفي لائحة الأشخاص المحاربين، وشدد كثيرا في عقوبتها وتساهل في وسائل إثباتها[2].

وهكذا يتبين من هذا العرض الموجز أن المذهب المالكي من أكثر المذاهب قدرة على استيعاب النوازل والمستجدات، وذلك لمرونته وخصوبته، ولوفرته أصوله، وصحة قواعده. وفي ذلك يقول ابن تيمية:"ثم من تدبر أصول الإسلام وقواعد الشريعة، وجد أصول مالك وأهل المدينة أصح الأصول والقواعد"[3]، وقال الذهبي:" بكل حال، فإلى فقه مالك المنتهى، فعامة آرائه مسددة... ومذهبه قد ملأ المغرب والأندلس، وكثيرا من بلاد مصر، وبعض الشام، واليمن، والسودان، وبالبصرة، وبغداد، والكوفة، وبعض خراسان"[4].

وصدق الشيخ أبو زهرة عندما وصف المذهب المالكي بأنه مذهب الحياة والإحياء، وأن العلماء اختبروه في عصور مختلفة، فاتسع لمشاكلهم، واختبره علماء القانون في عصرنا الحاضر،فكان مسعفا لهم في كل ما يحتاجون إليه من علاج، لكثرة مجتهديه، وكثرة أصوله، واختبره المجتمع، فوجده أقدر المذاهب على تحقيق الأمن الروحي، والاستقرار الديني[5].

فمن الواجب علينا إحياء تراثنا الفقهي، وإحلال المذهب المالكي مكانته اللائقة به، بإعادة قراءته بما يساعد على تطور الأحكام الاجتهادية، ليجعلها مواكبة لواقع الحياة المعاصرة والتحولات الجديدة، بما يحصن الأمة من الانزلاقات الفكرية، ومن الشذوذ العقدي.

والله ولي التوفيق

---

[1] "خصائص المذهب المالكي" للدكتور محمد التاويل، مطبعة آنفو، فاس، ط 2014م، ص:71-72

[2] "خصائص المذهب المالكي" للدكتور محمد التاويل، ص: 106.

[3] "مجموع الفتاوى" 328/20

[4] "سير أعلام النبلاء" للذهبي 92/8

[5] "مالك حياته وعصره"، ص:477

لائحة المصادر والمراجع:

- "اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء" تقي الدين المقريزي، تحقيق: جمال الدين الشيال، ومحمد حلمي محمد أحمد، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط1.
- "أحكام القرآن" لابن العربي، تعليق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3/ 1424 هـ - 2003 م.
- "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" أحمد الناصري، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ/ 1997م.
- "الأسماء والصفات" أبو بكر البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، ط1/ 1413 هـ - 1993 م.
- "أصول الفتوى والقضاء في المذهب المالكي" للدكتور محمد رياض، ص:513، ط 1/ 1416هـ-1996م.
-"أوضح المسالك وأسهل المراقي" محمد بن أحمد الرهوني، دار الفكر، بيروت ط/1398هـ-1978م، مصور عن الطبعة الأولى بمصر، المطبعة الأميرية، سنة 1306هـ.
- " بداية المجتهد ونهاية المقتصد" أبو الوليد بن رشد القرطبي الحفيد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط 1/ 1395هـ/1975م.
- البهجة في شرح التحفة" أبو الحسن التسولي، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1418/1هـ - 1998م.
- "بيوتات فاس الكبرى" دار المنصور الرباط، ط 1972م.
- "بوطليحية"، محمد النابغة الغلاوي، تحقيق: يحيى بن البراء، المكتبة المكية، ط1425/2هـ-2004م.
- "البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة" لابن رشد الجد، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1408/2 هـ - 1988 م.
- " التاج والإكليل لمختصر خليل" أبو عبد الله المواق المالكي، دار الكتب العلمية، ط1/ 1416هـ-1994م.
- " تاريخ بغداد" أبو بكر الخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1422/1هـ - 2002 م
- "ترتيب المدارك وتقريب المسالك" القاضي عياض اليحصبي، تحقيق : ابن تاويت الطنجي، وعبد القادر الصحراوي، ومحمد بن شريفة، وسعيد أعراب، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط1981/1-1983م
- " التفريع في فقه الإمام مالك بن أنس" أبو القاسم بن الجلاب المالكي، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1428/1 هـ - 2007 م

- "التوسط بين مالك وابن القاسم في المسائل التي اختلفا فيها من مسائل المدونة" لأبي عبيد الجبيري، تحقيق: مصطفى باحو، ص:6.
- " جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس" أبو عبد الله الحميدي، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ط 1966م.
- "حضارة الموحدين" محمد المنوني، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1/1989م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 1409هـ.
- "حاشية الهواري على شرح التاودي للامية الزقاق"، طبعة حجرية، 1327هـ.
- "خصائص المذهب المالكي" للدكتور محمد التاويل، مطبعة آنفو، فاس، ط 2014م.
- "الخوارج في بلاد المغرب" محمود إسماعيل عبد الرازق، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2/1985م.
- " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط 1392هـ/ 1972م.
- "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب " لابن فرحون، تحقيق وتعليق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
- "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2/ 1408 هـ - 1988 م.
- "رفع النقاب عن تنقيح الشهاب" لأبي علي الشوشاوي، تحقيق: عبد الرحمان بن عبد اله الجبرين
- "رياض النفوس" أبو بكر المالكي، القاهرة، 1951م.
- "سير أعلام النبلاء" للذهبي، دار الحديث، القاهرة، ط 1427هـ-2006م.
- "شرح تنقيح الفصول" شهاب الدين القرافي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط 1393/1 هـ - 1973 م.
- "العرف والعمل في المذهب المالكي" عمر الجيدي، مطبعة فضالة، المحمدية، ط1982م.
- "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"، محمد الحجوي الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1-1416هـ- 1995م.
- "شرح مختصر خليل" أبو عبد الله الخرشي المالكي، دار الفكر للطباعة، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- "مالك حياته وعصره" محمد أبو زهرة،، دار الثقافة العربية للطباعة، عابدين، مصر، بدون طبعة ولا تاريخ.
- " مجموع الفتاوى" تقي الدين بن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ط 1416هـ/1995م

- " المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين"، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1426/1هـ - 2006م.
- "معجم البلدان" ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط2/ 1995 م
- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد الونشريسي، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، ط1401هـ - 1981م
- المقدمات الممهدات" لابن رشد 309/2، تحقيق: الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1408/1 هـ - 1988 م.
- "الموافقات" للشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط 1/ 1417هـ-1997م
- " مواهب الجليل في شرح مختصر خليل" أبو عبد الله الحطاب الرُّعيني، دار الفكر، ط3/ 1412هـ - 1992م
- "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" 232/2، للمقري التلمساني، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.
- "نور البصر في شرح خطبة المختصر" أبو العباس الهلالي، مراجعة وتصحيح: محمد محمود ولد محمد الأمين، دار يوسف بن تاشفين، مكتبة الإمام مالك، ط1428/1هـ-2007م.
- " نيل الأمل في تأصيل ما جرى به العمل 1"، مقال للدكتور إدريس غازي، نشره مركز دراس بن إسماعيل لتقريب المذهب والعقيدة والسلوك، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، الموقع:http://www.derrass.ma.
- "يهود الأندلس والمغرب" حاييم الزعفراني، ترجمة: أحمد شحلان،مطبعة النجاح الجديدة، ط 2000م.

الأمن الروحي في الإسلام تجلياته ومقوماته من خلال القرآن والسيرة النبوية

د. عبد الرحيم العبدلاوي

(جامعة محمد الخامس الرباط)

مركزية الأمن الروحي في حياة الإنسان:

موضوع الأمن من الموضوعات الجديدة في الثقافة الإسلامية، ويجب التفريق بين الكلام عن الموضوع ووجود الموضوع، فالأمن موجود، والكلام عليه بالنفس الواسع قليل إلى حد الانعدام، هل هو استدراك من الخلف على السلف؟ أم أن الواقع تغير فتغيرت الأفكار بالتبع؟ ما هو الأمن وما معناه؟ هل هو نوع واحد أم هو أنواع وأصناف؟....

بهذا المقطع الغني بالمعاني والدلالات المركب من الاستفهامات والتساؤلات والتلميحات، والذي يجيب في نفس الوقت بما يحمل على التشوق لمعرفة التفصيلات والشروحات التي ستتولد مع التحليل والبسط، افتتح الدكتور محمد خروبات موضوعه "في فقه صيانة الأمن العقدي بين المقومات والتحديات"[1].

بهذا المقطع أناط اللثام عن موضوع هو المحور الأساسي الذي أنزلت الرسائل السماوية لإقامته وبنائه، وتتابعت الرسل والأنبياء لبعثه وإحيائه كلما تاهت البشرية وضلت إلى أن ختمت السلسلة بخاتمة الرسائل مع خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ألا وهي تحقيق الأمن في الأرض بمعناه الشمولي، فتعاقب الأنبياء هو تعاقب من أجل إتمام مراد الله تعالى من خلقه الإنسان واستخلافه في الأرض، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين))[2].

---

[1] - محمد خروبات، مجلة الاستناد، العدد الأول شتنبر 2013 م ص 13.

[2] - صحيح البخاري، "كتاب المناقب" باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم 3342

ومراد الله تعالى من استخلاف الإنسان هو تحقيق العبودية المطلقة له، ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[1] والعبادة التي يرتضيها الحق سبحانه وتعالى لا تتحقق إلا في ظل الأمن والاستقرار الروحي، والذي لا يكون إلا إذا كان دين الله متمثلا في حياة الناس ﴿وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾.[2]

على الرغم من كون موضوع الأمن كان ولا يزال وسيظل المطلب الأسمى وإن شئت الأوحد الذي تسعى لتحقيقه البشرية بمفهومها العام منذ أن كانت، بل وتتقاتل وتقيم الحروب الطاحنة المروعة طلبا في تحقيق الأمن الذي تمليه الظروف والحاجيات، فما يكون ظلما واعتداء عند أطراف قد يكون الوسيلة لتحقيق الأمن عند أطراف أخرى.

على الرغم من أهمية الموضوع ولا سيما في وقتنا الحاضر فإنه لم يأخذ حقه من الدراسة والتحليل والتنزيل. ولا أدل على ذلك من استمرار تردي الأوضاع في المجتمعات الإسلامية التي تملك مقومات الأمن وآليات بعثه وإحيائه.

- تملك السنن والقوانين التي يقوم عليها الأمن.
- تملك تمثلات لتحقيق الأمن بعد أن لم يكن.
- إن عدم امتلاك الأمم - المشاركة لأمة الإسلام إعمار الأرض وتدبيرها – جوهر حقيقة الأمن الذي يحقق الأمان والطمأنينة والسكينة والاستقرار في جميع مناحي الحياة اجتماعية أو سياسية واقتصادية أو عسكرية او ثقافية وغيرها، جعلها تتخبط في صياغة منظومة من المفاهيم الأمنية كلما دعت الحاجة إلى ذلك لتحقيق الأمن ومع ذلك تبقى قاصرة على بلوغ أهدافها وتبقى نظرتها الحقيقة للأمن حبيسة نظرتها للوجود.

[1] - سورة الذاريات الآية 56
[2] - سورة النور الآية 55.

الأمن الروحي في الإسلام

عند الاستقصاء عن مفهوم الأمن الروحي وتعريفه وتحديد مصطلحاته يتبين لنا أنه من المفاهيم الحديثة، فهو لم يكن متداولا بصيغته هاته عند السابقين وإن كان معناه حاضرا ومتمثلا في حياتهم وسلوكهم وعبادتهم بسبب ارتباطهم الوثيق بالفهم الصحيح والسليم للدين، ومعرفتهم بمقاصده فلم يكن لهذا المصطلح داع لطرحه والعمل على تحقيقه وحمايته. فقد ظهر هذا المفهوم إبان تصاعد موجة الاضطرابات الدينية الناتجة عن الانحرافات العقدية التي اكتسحت مناطق متعددة من العالم الإسلامي خلال العقود الأربعة الأخيرة مما أسفر عن ظهور ظواهر شاذة عن وسطية الإسلام واعتداله، الشيء الذي دعا إلى إحداث منظومة جديدة تواجه هذا التحول في واقع المجتمعات الإسلامية، بما يحقق عودة الفهم الصحيح للدين من جهة، وحمايته من التيارات المنحرفة من جهة أخرى .

ولمعالجة هذا الموضوع معالجة علمية موضوعية، نحدد من خلالها ماهية الأمن الروحي، ومركزيته من القرآن والسنة وبيان أهميته وضرورته في الحفاظ على استقرار المجتمعات الإسلامية مع تصحيح صورة الإسلام لدى الشعوب والمجتمعات المنزعجة والقلقة من الإسلام وأهله ثم تحديد مقومات الحفاظ عليه وترسيخه في وجدان الأمة. فقد حصرت محاور الموضوع في ما يلي:

- **تحديد المصطلحات**
- **الأمن والإيمان أية علاقة**
- **التأصيل الشرعي لمفهوم الأمن الروحي.**
- **قبسات من الأمن الروحي من خلال السيرة النبوية الشرية**
- **مقومات الأمن الروحي**
- **خاتمة**

1) تحديد المصطلحات:

أ) تعريف الأمن لغة:

الأمن من أمن يأمن أمنا، فهو أمن وآمن أمنا وأمانا، اطمأن ولم يخف، فهو آمن وأمن أمين. والأمن يعني الاستقرار والاطمئنان.

نقول أمن منه أي سلم منه، وأمن على ماله عند فلان أي جعله في ضمانه والأمان والأمانة بمعنى واحد، فالأمن ضد الخوف والأمانة ضد الخيانة، والمأمن الموضع الآمن[1] .

يقول الله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾[2].

دلت الآية على مفهوم ومعنى الأمن من حيث جاء الأمن في مقابل الخوف. كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا﴾[3].

ويقول الزمخشري: "فلان أمنة أي يأمن كل أحد ويثق به، ويأمنه الناس ولا يخافون غائلته"[4].

ب) تعريف الأمن اصطلاحا

(1 عرف الجرجاني الأمن بأنه "عدم توقع مكروه في الزمان الآتي" [5].

(2 ويعرف عطا محمد زهرة الأمن بأنه "إحساس بالطمأنينة يشعر به الفرد سواء بسبب غياب الأخطار التي تهدد وجوده، او نتيجة لامتلاكه الوسائل الكفيلة بمواجهة تلك الأخطار حال ظهورها[6].

كما جاء تعريفه في موسوعة السياسة: "هو تأمين سلامة الدولة ضد أخطار خارجية، وداخلية قد تؤدي بها إلى الوقوع تحت سيطرة أجنبية نتيجة ضغوط خارجية أو انهيار داخلي"[7].

وتعرفه دائرة المعارف البريطانية: "حماية الأمة من خطر القهر على يد قوة أجنبية".

كما عرفه هينري كسينجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق: "تصرفات يسعى المجتمع عن طريقها إلى حفظ حقه في البقاء"[1]

---

[1]- ابن منصور محمد بن مكرم، لسان العرب ج 1 ص 163.
[2]- سورة النور الآية 53.
[3]- سورة البقرة الآية 125.
[4]- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري. تحقيق محمد باسل عيون السود. ج 1 ص 35.
[5]- الجرجاني الشريف علي بن محمد/ التعريفات ص 34.
[6]- عطا محمد زهرة: الأمن القومي العربي منشورات جامعة قاريونس 1991م
[7]- موسوعة السياسة .د. عبد الوهاب وآخرون ج 1 ص 395.

تعليق حول التعريفات:

المستقرئ لتعريفات الأمن في اصطلاح أهل العلم بمشاربه المختلفة، يجد تنوع النظرة، واختلاف التصور، وتباين المشارب، يجد التأثير النسبي من حيث الزمان والمكان والأشخاص، يلاحظ اختلاف المدارس بين غربية وشرقية وعربية، اختلاف المذاهب بين فلسفية وواقعية، واختلاف المنظور الشرعي والقانوني والاجتماعي والعسكري... وإن احتوت معظم التعريفات على عناصر مشتركة وقيود هامة.

وتعلق شرين الضاني على التوجه الذي اتخذته جل التعريفات لمفهوم الأمن بقولها: "من خلال التعريفات السابقة نلاحظ أنها تركز على أمن الدولة – أو ما يعرف بالأمن الوطني – وتناست المفهوم الشامل للأمن في الإسلام والذي يتناول أمن الفرد دنيويا وأخرويا، وأمن الدولة داخليا وخارجيا، بل ويتعدى ذلك إلى أمن العالم والكون بعضه إلى بعض ثم تقول:

فالإنسان – في نظر الإسلام- هو جوهر العملية الأمنية، وهو محور الأمن الداخلي والخارجي، لأنه مناط التكليف في هذه الحياة الدنيا دون غيره من سائر المخلوقات.

وهنا يمكن لنا أن نعطي تعريفا للأمن في مفهوم الإسلام فنقول بأنه يعني: السلامة الحسية والمعنوية، والطمأنينة الداخلية والخارجية، وكفالة الحياة السعيدة للفرد والمجتمع والدولة[2].

ج) تعريف مفهوم الأمن الروحي:

مفهوم الأمن الروحي من المفاهيم الحديثة، فهو لم يكن معروفا في التاريخ الثقافي والفكر الإنساني، إذ لم تدع الحاجة إلى توظيف هذا المفهوم الذي يعني في مضمونه الدعوة إلى وضع قواعده وضوابط أمنية للحفاظ على العقيدة الدينية وحمايتها مما قد يعترضها من أفكار وتأويلات من الداخل أو الخارج تنحرف بها عن أصولها، وكذا حفظ الهوية الدينية للجماعة المسلمة الموحدة من الآفات والتحريفات الشاذة المخالفة التي تفرق وحدتها واجتماعها.

[1]- شرين بن الضاني: الأمن القومي ومشروعيته في الإسلام مجلة الحوار المتمدن 2010م.
[2]- شرين الضاني: الأمن القومي ومشروعيته في الإسلام مجلة الحوار المتمدن 2010.

ويمكن أن نعرف الأمن الروحي بأنه عملية حمائية وقائية استباقية يكون الهدف منها الحفاظ على المعتقد من الانحراف، وصيانة الهوية الدينية ووقايتها من التيارات الهدامة المخالفة لها وذلك من أجل إبقاء الجماعة المسلمة متماسكة موحدة.

كما يمكن أن نعرف الأمن الروحي بأنه الحالة التي تسمو فيها نفس العبد إلى درجة الإحسان، فيصبح الرضى والتسليم بقضاء الله خيره وشره سواء عنده، وتسكن جوارحه وتغشى الطمأنينة قلبه فتصير حياته طيبة .

2- الإيمان والأمن أية علاقة:

من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن جعل لأيمانهم ثمرات يتذوقونها في دنياهم ويجدون ثوابها في آخرتهم.

ثمرات يجدون حلاوتها عند الشدائد ويحسون بطعمها عند الرخاء فيتقلبون معها بين الشكر والصبر مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: "عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له" رواه مسلم.

وإن من أسمى المقامات التي يصلها المؤمن بإيمانه فتصير حياته في اليسر والعسر متصلة بالله، مقام الأمن الرباني الذي يودعه الله تعالى في قلوب من بلغوا مقام الرضا عنده سبحانه. ولمقام الأمن الرباني تجليات في حياة المؤمن تجسدها آيات الله تعالى نبسطها كالتالي:

1) إبعاد الخوف عنهم قال تعالى ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[1].

2) الإيمان الصادق يوجب لصاحبه الأمن من سخط الله ومكره ووعيده، قال تعالى: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم﴾[2].

---

[1] - سورة يونس الآية 62-63.

[2] - سورة التوبة 71-72.

3) تأمين الله لعباده المؤمنين وحفظه لهم في الشدائد، ودفاعه عنهم مما يحقق لهم الاطمئنان والأمن في معاشهم قال تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ [1]. وقال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾ [2].

4) الإيمان الصادق يكسب صاحبه طمأنينة في القلب تجعل حياته طيبة سالمة من القلق والتخبط، قال تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [3].

5) الإيمان السليم يجعل صاحبه يفر إلى الله طلبا في أمنه وهدايته قال تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [4].

6) الإيمان يؤمن أصحابه من الشك ويمنحهم اليقين والتصديق التام بكل ما جاءهم من الله تعالى، قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ [5]، وهذا لا يكون إلا مع الأمن الروحي الذي يقذفه الله في القلوب المقبلة عليه.

هذا غيض من فيض مما تتفجر به آيات القرآن مما يحدثه الإيمان من أمن في قلوب المؤمنين، وهو أمن رباني لا يحصل بسن القوانين، ولا يتولد مع التشريعات البشرية التي تنظر لبناء منظومة الأمن في مختلف ميادين الحياة البشرية، إنه أمن يودعه صانع الكون ومبدعه، ومركب الإنسان وجامعه في قلوب من يصلونه ويطلبونه.

3- التأصيل الشرعي لمفهوم الأمن الروحي

أ- الأمن مقصد من مقاصد الشريعة.

فصل أبو إسحاق الشاطبي تكاليف الشريعة قائلا إنها ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها أن تكون ضرورية والثاني أن تكون حاجية والثالث أن تكون تحسينية.

---

[1] - سورة الحج الآية 38.
[2] - سورة الطلاق الآية 4.
[3] - سورة النحل الآية 97.
[4] - سورة الأنعام الآية 48.
[5] - سورة الحجرات الآية 15.

فأما الضرورية فمعناها أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين.... إلى أن قال: " ومجموع الضروريات خمسة وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل وقد قالوا إنها مراعاة في كل ملة"[1].

وقال الشاطبي: فقد اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس وهي الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل وعلمها عند الأمة كالضروري[2].

فحفظها - أي الضروريات - هو تأمينها، وتأمينها هو ما يحقق الاطمئنان النفسي وهو عين الأمن الروحي.

ب- الأمن الروحي في القرآن الكريم:

القرآن الكريم منهج رباني أنزله الله تعالى ليحكم الحياة البشرية بجميع مواقفها، ولا نستطيع أن ندعي أن في القرآن تعريفا خاصا لمصطلح الأمن الروحي، إلا أننا نستطيع أن نستخرج من ثنايا الآيات القرآنية معاني واضحة تجسد معنى الأمن الروحي وتتكلم عنه.

والمتدبر لآيات القرآن الكريم يرى أن الآيات القرآنية تتحدث عن مستويين من الأمن، الأمن الروحي على المستوى الفردي، والأمن الروحي على المستوى الجماعي.

***- الأمن الروحي على مستوى الفرد.**

1- يذكر الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام وهو يحاور المشركين: ﴿وحاجه قومه، قال أتحاجون في الله وقد هدان، ولا أخاف ما أشركتم به إلا أن يشاء ربي شيئا، وسع ربي كل شيء علما أفلا تذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾[3].

---

[1] - أبو اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الموافقات دار ابن القيم 2003 م ج 2 ص 18.

[2] - الشاطبي ج 1 ص 38.

[3] - سورة الأنعام الآية 10.

يقول سيد قطب رحمه الله وهو يجسد الأمن الروحي الكامن في قلب إبراهيم عند مواجهة قومه: "فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته، ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئا، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته، ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاءه الله ووسعه علمه الذي يسع كل شيء".

ثم يعلق على ذلك الأمن الروحي الذي امتلك إبراهيم فلم يبق للخوف مكان في قلبه فيقول: " إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود، إنه إن كان أحد قمينا بالخوف فليس هو إبراهيم، وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق"[1].

-2 ومن الآيات القرآنية التي جسدت مفهوم الأمن الروحي تجسيدا يربط بين الباطن والظاهر، حيث يسدل الأمن الروحي الداخلي أستاره على الصورة الظاهرية وهو الجسد فيخلد هذا الأخير إلى الطمأنينة والسكينة في موطن يبعث على الخوف والفزع والقلق والحيرة. ففي غزوة أحد بعد أن أصيب المسلمون بجراحات كثيرة من بينها استشهاد سبعين صحابيا منهم حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم، وعقب هذه الإصابات المؤلمة وفي تلك اللحظة الحرجة جدا كان الذين في قلوبهم مرض يتوجسون شرا، ويرتعدون خوفا من كرة قريش مرة أخرى، ولكن الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان، ونعمت نفوسهم بالتوحيد رزقوا أمنا عجيبا، فالأمن الروحي الذي ملآ قلوبهم انعكس على جوارحهم فغطوا في نوم هادئ مريح، حيث قال الحق سبحانه: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل لنا من الأمر من شيء، قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾[2].

يقول أبو جعفر الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: ثم أنزل الله أيها المؤمنون من بعد الغم الذي أثابكم ربكم بعد غم تقدمه قبله (أمنة) وهي الأمان على أهل الإخلاص منكم واليقين دون أهل النفاق والشك[3].

وقد أخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "أمنهم يومئذ بنعاس غشاهم، وإنما ينعس من يأمن"[1].

---

[1]- سيد قطب: في ظلال القرآن ج.1، ص 1143 دار الشروق 2003 م.

[2]- سورة آل عمران الآية 154.

[3]- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري . تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آى القرآن. تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي . ج6 ص 159 و161.

***- الأمن الروحي على المستوى الجماعي (الأمة والدولة)**

خلق الله عز وجل الناس شعوبا وقبائل، وأودع فيهم طبائع وأحاسيس ثم دعاهم إليه، فمنهم من استجاب ومنهم من أعرض، ﴿فأما الذين استجابوا فقد سبق لهم من الله وعدا أن يستخلفهم في الأرض ويملي قلوبهم أمنا﴾، قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[2] قال الشوكاني " المعنى أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمنا . ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخافون إلا من الله ولا يرجون غيره[3].

ج- الأمن الروحي في السنة النبوية الشريفة:

إذا كان القرآن في مجمله جاء ليعالج قضية الإنسان الكبرى، ووضع المنهج الصحيح الذي ينبغي أن تقوم عليه المجتمعات، وبين بتفصيل سبيل تحقيق الأمن والاستقرار مع وجود الاختلاف والتنوع البشري. فإن السنة النبوية جاءت لتنزل القرآن عمليا وفعليا، جاءت لتجسيد التعاليم الربانية كاملة، ولتثبت للإنسان واقعية الوحي الرباني وإمكانية التحقيق والتنزيل لما حمله منهج الله تعالى المتضمن في كتابه، وذلك من خلال الرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد حدد الحق سبحانه وتعالى منزلة النبي صلى الله عليه وسلم من البشرية فقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[4] ففيه تجميع أمهات الأخلاق البشرية التي تعالج أمراض النفوس المريضة، وعنده اكتملت فضائل الأعمال التي على ضوئها تقاس أعمال البشر وإليها تعود لتقوم وتعدل، عنده يجد المؤمن ضالته إلى الله، وعنده يجد الكافر العدل والرحمة وبه يسترجع فاقد الشيء ما يفقده.

---

[1]- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آى القرآن. تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي . ج6 ص 159 و161.

[2]- سورة النور الآية 53.

[3]- محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . ج 4 ص 70.

[4]- سورة الأنبياء الآية 107.

إن المتمعن في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتدبر في معانيه، ليجد أن في كل حديث توجيها يدعو إلى تحقيق الأمن الروحي، فهو عندما يخاطب صلى الله عليه وسلم المخاطب لا يستهدف سمعه، وإنما يستهدف قلبه.

إن المتابع لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ليجد في سلوكه ومعاملته ومواقفه وحركاته معالم تبعث على تثبيت الأمن الروحي لدى المتلقي وقد صدق الحق سبحانه عندما أجمل في وصف صفيه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[1] .استحق من خلاله أن يكون النموذج الوحيد والفريد للاقتداء والإتباع فقال سبحانه: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة**﴾[2]. إسوة لمن يطلب الآخرة، ولمن يطلب الدنيا ولمن يطلبها معا. فخلقه وسمته وأدبه ومعاملته، عملة واحدة تصلح بها أمور الدين والدنيا.

وسوف أحاول بإذن الله أن أبين كيف أن سنة النبي صلى الله عليه وسلم بمعناها العام قولية وفعلية وتقريرية كانت تقصد تثبيت أسس الإيمان الصادق في قلوب المسلمين بما يحقق الأمن الروحي للفرد والمجتمع على السواء.

سوف أحاول أن أثبت ذلك من خلال استقراء سيرته صلى الله عليه وسلم وانتقاء بعض الأمثلة فقط، فسيرته بحر يعجز المرء إدراك أعماقه فضلا عن استخراج جميع كنوزه.

***- بواعث الأمن الروحي:**

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من أصبح آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده طعام يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)[3].

فالأمن على نفس الإنسان وسلامة بدنه من العلل، ورزقه، هو الأمن الشامل الذي أوجز الإحاطة به وتعريفه هذا الحديث وجعل تحقق هذا الأمن لدى الإنسان بمثابة ملك الدنيا بأسرها[4]. فالحديث الشريف يقصد غرس خلق القناعة والرضا لدى المؤمن، إذ بهما يستشعر العبد الأمن

---

[1] - سورة القلم الآية 4

[2] - سورة الأحزاب الآية 21.

[3] - محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري . صحيح الأدب المفرد تحقيق ناصر الدين الألباني. حديث رقم 300 ص 127.

[4] - د رشاد صالح رشاد زيد الكيلاني. الأمن الاجتماعي في التصور الإسلامي ص 15.

الروحي، ويتذوق طعم الإيمان، مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام: (ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس)[1].

وهذا الرضى لا يحصل إلا إذا استحضر العبد عظمة النعم التي أسبغها الله عليه، وقد أجمل النبي صلى الله عليه وسلم أمهات النعم التي يقلبها الله عز وجل على عباده، والتي يغفل عنها أكثر العباد مما يسلبهم نعمة الأمن الروحي فيعيشون في قلق وخوف دائم، وهي نعمة الصحة وسلامة الأهل والكفاف في الرزق.

فإذا حصل الرضا من العبد انتقل به إلى منزلة الشكر، شكر الله على ما اختصه به وما فضله به حال الرضى، فيتعلق قلبه بعد ذلك بوعد الله للشاكرين: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[2]. ويطمئن من انتقامه ﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾[3]

فهم الصحابة رضوان الله عليهم مضمون قول الرسول صلى الله عليه وسلم فعملوا على إصلاح جهاز التلقي والإرسال لديهم –القلب-، فصارت أعمالهم خالصة لله راغبة في ما عند الله، فأحياهم الله حياة طيبة قال تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾[4].

***- طلب حلاوة الأيمان**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا)[5]. جاء في كتاب إبهاج المسلم بشرح صحيح مسلم:

من فوائد الحديث:

- **الفائدة الأولى**: الحديث دليل على أن للإيمان لذة يحس بها المؤمن ويذوقها.
- **الفائدة الثانية**: الحديث دليل على أن طعم الإيمان يذوقه من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، والمقصود بالرضا القناعة بالشيء والاكتفاء به فلم يطلب معه غيره، فهو لم يطلب

---

[1]- البخاري: الأدب المفردة 252.
[2]- سورة إبراهيم الآية 7.
[3]-سورة إبراهيم الآية 7.
[4]- سورة النحل الآية 97.
[5]- مسلم بن الحاج صحيح مسلم رقم الحديث 608.

غير الله تعالى ولم يسع في غير طريق الإسلام ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بأن يجاهد بنفسه في هذه المطالب، ولا شك من كانت هذه حاله سيجد للإيمان لذة وحلاوة فهذا هو معنى الرضا الحقيقي الذي يجد معه المرء حلاوة الإيمان[1]

فالحديث يدلنا دلالة قاطعة، أن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت محصورة في إصلاح القلوب وإعادة تركيبها بما يحقق لها الأمن الروحي، الذي تنعكس ثماره على الفرد نفسه أولا ثم المجتمع ثانيا.

4- قبسات من الأمن الروحي من خلال السيرة النبوية الشريفة

ذكرت في الصفحات السابقة بما معناه أن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بكل تفاصيلها تحمل مقصدا واحدا وهو السمو بالمؤمن إلى الدرجة التي يتحقق معها الأمن الروحي داخل الوجدان، فتصير معه النفس مطمئنة رغم تبدل الأحوال عليها وتقلبها في السراء والضراء . طمأنينة تبعث على الرضا والرجاء(عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[2].

فالحديث يعني المؤمن الذي أشرب قلبه شرع الله كاملا، فلم يرضى من الحياة إلا السراء فقط ولكنه رضي منها أيضا الضراء لعلمه أن مصدرهما من الله ما كان العبد في طاعة مولاه والتزام بحدود خالقه.

وسوف أبسط الحديث عن تجليات مفهوم الأمن الروحي من خلال الاستنباط المبني على التدبر في سيرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ولأن استيعاب كل السيرة أمر غاية في الصعوبة والمقال لا يستوعب كل ما حبلت به السيرة النبوية، فسوف أقتبس منها قبسات أبين من خلالها جمالية منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في صناعة الأمن الروحي لدى الجيل الذي سيحمل مشعل هذا الدين، ومن سيوكل له تجسيد الأمن الروحي وتمثيله ليكون مدرسة للأجيال اللاحقة وإلى أن تقوم الساعة منهج يضع القواعد الكبرى التي ينبغي مراعاتها عند تبدل الأحوال وتغيرها للحفاظ على استقرار الأمن الروحي، لدى المؤمنين.

---

[1] - عبد الله بن حمود الفريح، إبهاج المسلم بشرح صحيح مسلم ص 48.

[2] - سبق تخريج الحديث.

لم يكن المنهج النبوي الشريف يعتمد أسلوب الوعظ والإرشاد والخطابة فقط في بناء الأمن الروحي لدى الجماعة المؤمنة.

كما أنه لم يعتمد أسلوب الأمر والنهي وتبيين الحلال والحرام في الحفاظ على الأمن الروحي في النفوس الطاهرة الزكية.

لقد نهج النبي صلى الله عليه وسلم في بناء الأمن الروحي وتزكيته وحمايته أساليب متعددة لتحقيقه. أساليب راعي فيها صلى الله عليه وسلم الأحوال التي تكون عليها الجماعة المؤمنة، والمراحل التي تمر بها.

واجب حماية الأمن الروحي

رغب رسول الله صلى الله عيه وسلم المستضعفين في مكة بداية الدعوة عندما كانت شوكة المشركين قوية، رغبهم بالهجرة سرا إلى أرض الحبشة النصرانية حيث يجدون الأمن الروحي، فيتسنى لهم عبادة الله دون خوف أو اضطهاد فيأمنون على دينهم وأرواحهم وأموالهم.

يقول محمد الصلابي: "اشتد البلاء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الكفار يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، ورمضاء مكة والنار ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه ويعصمه الله منهم، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: " لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه" فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام" [1]

فحرص النبي صلى الله عليه وسلم على تلك البذرة الإيمانية التي غرسها في قلوب تلك الثلة الصادقة وسط جحيم المشركين في مكة، هو ما دفعه صلى الله عليه وسلم لترغيبهم في الهجرة، حتى يتسنى لتلك البذرة أن تنمو وتثمر، وحتى تسلم من لهيب نار المشركين.

14 - علي محمد محمد الصلابي أصح الكلام في سيرة خير الأنام ج 1 ص 329

فدل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن حماية الأمن الروحي عند الشدائد يكون هو المطلوب والواجب.

تأمين موطن الأمن الروحي

هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة ومعه صاحبه الصديق رضي الله عنه، وهو لا يطيق فراق مكة، هاجر إلى المدينة وقد نشأت فيها أول قوة مؤمنة يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبلغ من خلالها رسالته، وأن يجعلها وطنا للأمن الروحي، يحج إليها المستضعفون في الأرض.

ومع هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حيث يتحقق الأمن الروحي ستأخذ الدعوة مسارا جديدا، وستفتح أمامها أبواب جديدة، وستبدأ عمليات الهجرة إلى يثرب بحثا عن الأمن الروحي، والاتصال بصاحب الرسالة مباشرة دون خوف أو تربص، وهو ما كانت تفتقده مكة خلال الثلاث عشرة عاما الأولى للدعوة.

تأمين انتشار الأمن الروحي

لأن قضية الأمن الروحي في الإسلام قضية عالمية ومقصد رباني عالمي، أثبته الحق سبحانه وتعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ وقوله ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ [1]

فهو ليس بقضية عرقية أو فئوية أو طائفية، وليس مقصدا نفسيا جسديا، فقد أرشد سبحانه وتعالى المؤمنين إلى المقصد الدنيوي الذي ينبغي تحقيقه حالة اختلاف البشرية حول الإسلام ألا وهو خلق التعايش والتعارف والتعاون فيما تتحقق به مصالح الإنسانية المشتركة على اختلافها، ودون المساس بالمعتقدات حيث يقول سبحانه: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [2]

فلما كان الأمن الروحي بناء على التوجيهات، الربانية مقصدا ربانيا فقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم عمليا على تأمينه داخل الدولة الجديدة، دولة المدينة حيث تتواجد الأديان المختلفة،

[1] - سورة البقرة الآية 256

[2] - سورة الحجرات الآية 13

والطبائع المتضاربة وذلك بوضعه صلى الله عليه وسلم لوثيقة المدينة، وهي أرقى وثيقة لتنظيم العلاقات بين مختلف أطياف المجتمع.

فبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة أقام قواعد المجتمع الإسلامي الجديد على قاعدة التعايش السلمي والتسامح والتعاون بين المسلمين وبقية الطوائف الأخرى، فدخل المسلمون في ميثاق مع القبائل العربية واليهودية المقيمة هناك، فكانت وثيقة المدينة هي الدستور الذي ينظم العلاقات بين مكونات المجتمع الجديد، وبين من انضوى تحته من الطوائف والتزموا جميعا بموجبها، مسلمين كانوا أم غير مسلمين بالتعاون فيما بينهم على إقامة العدل والحفاظ على الأمن وحماية الدولة من أي عدوان خارجي.[1]

فمسألة الأمن الروحي لا تتحقق إلا في ظل الاعتقاد الصحيح، والإيمان الطوعي المبني على التصديق والتسليم بما اعتقده الفرد ولا يتحقق مع الإكراه والحصار والتضييق الذي يخلق النفاق والعداء الداخلي المبطن الذي يظل يتربص لضرب وهدم الأمن الروحي كلما أتيحت له الفرصة لذلك، وهو ما حاول الرسول صلى الله عليه وسلم تجنيب المجتمع الجديد شروره وبوائقه بعقده لوثيقة المدينة حيث تم التنصيص على حرية المعتقد كبند أساسي من بنودها: جاء فيه: وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

ويعلق محمد الصلابي على هذا البند بقوله: "وبهذا ترى أن الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب الذين يعيشون في أرجائه مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين، ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، فاختلاف الدين ليس بمقتضى أحكام الصحيفة سببا للحرمان من مبدأ المواطنة.[2]

وأنا أرى والله أعلم، أن أولى الجبهات التي ينبغي اتقاء شرها ومكرها تلك التي تقوم على معتقد مخالف، فهي من يخشى منها زعزعة الأمن الروحي الحديث الولادة، فكان لزاما الأخذ بعين الاعتبار هذا المعطى، وتأمين هذا الجانب ومصداق ذلك قول الحق تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾[3]

---

[1] - د. رضية سالم، مجلة ملحق الصائم 2017/06/01

[2] - محمد الصلابي: أصح الكلام في سيرة خيرة الأنام ج 1 ص 562

[3] - سورة البقرة الآية 120

فالتنصيص على حرية المعتقد مع وضع ضوابط الممارسات التعبدية، في مقابل تزكية الروح الإيمانية لدى الطائفة المؤمنة هو ما يؤمن هذه الأخيرة ويحميها، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الوثيقة يحصن الأمن الروحي داخل المدينة.

التنازل مقابل الحفاظ على الأمن الروحي

إن هاجس الحفاظ على الأمن الروحي للجماعة المسلمة الفتية المشتعلة حيوية وقوة واندفاعا هو ما دفع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التنازل أثناء صلح الحديبية عن كتابة مجموعة من الثوابت العقدية والذي هز كيان الصحابة وأجج غضبهم.

لقد كانت لحظة كتابة المعاهدة لحظة فارقة في حياة الدعوة الصاعدة إما الصبر والتحمل للشروط المجحفة في سبيل الحفاظ على الجماعة المؤمنة أمل هذا الدين الجديد، وتثبيت الإيمان لديها وتأهيلها لحمل الرسالة إلى الآفاق، وإما الزج بها في مواجهة تفقد معها الدعوة أفضل رجالاتها، مع ما ستسنه من سنة الاندفاع وراء الغضب دون حساب للنتائج والعواقب.

فقبول الرسول صلى الله عليه وسلم لشروط المشركين لم يكن جبنا او خوفا على الأرواح إنما كان خوفه على الدعوة الفتية، وحفاظا وتزكية للأمن الروحي لدى العصبة المؤمنة، وترسيخ عقيدة الطاعة لأمر الله وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم وعدم الخروج عنهما مهما كان الأمر شاقا أو مكلفا، فذلك هو معيار الإيمان الكامل.

الأمن الروحي أساس النصر:

إن هاجس الحفاظ على الأمن الروحي للجماعة المسلمة هو ما دفع الرسول صلى الله عليه وسلم للتشاور مع المؤمنين في غزوة بدر، فالمشورة هنا لجس نبض الإيمان في قلوب تلك العصبة التي خرجت تطلب الغنيمة، هل هي جاهزة الإيمان، كاملة التصديق بعد أن تغيرت مجريات الأحداث آنذاك تتقدم فلا خوف على إيمانها، أم أنها مترددة متشككة مهتزة الإيمان، فالزج بها في معركة لا رغبة لها فيها ستنعكس آثارها على إيمانها، فالأولى عدم الإقبال، والتوجه لتزكية النفس وتقوية الإيمان.

توفير الأمن الروحي أساس الاستقرار

إن الحرص على الأمن الروحي وتوفير المناخ المناسب له هو ما يفتح الباب أما الشعوب للدخول إلى هذا الدين أفواجا أفواجا وهو ما يضمن للبلدان الإسلامية استقرارها وأمنها ويجنبها التطرف والتشدد والتفرقة، لهذا لم تكن رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء توجهه إلى مكة ليفتحها طلب الانتقام، ورد الصفعة صفعتين وقد هيأ الله تعالى له جميع أسباب التمكين في الأرض، ولم تكن رغبته إذلال واحتقار أولئك الذين أذلوا المسلمين واحتقروهم عندما كانوا مستضعفين أو غير مأذون لهم بالرد والمقاومة.

إنما كانت رغبته صلى الله عليه وسلم ومبتغاه فتح باب الإقبال على الله من أولئك الممتنعين والندم على ما فات بعد أن أظهر الله نبيه الكريم وأعزه، فلم يبق أمامهم إلا التصديق والتسليم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

فرغبة الرسول صلى الله عليه وسلم في فتح القلوب بدل فتح البلاد هو ما جعله يتوجه بالدعاء إلى الله تعالى بقوله "اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها"[1]

فلا يسل سيف ولا ترق دماء، وهو ما جعله صلى الله عليه وسلم يؤمن من دخل دار أبي سفيان وكان قبل الفتح أشد المحاربين له.

إن هذا السلوك النبوي هو ما سيضمن للمسلمين بعد عودتهم إلى مكة الأمن الروحي، فلن تكون هناك عداوات أو شحناء أو كراهية تحمل على طلب الانتقام، وهو ما سيرفع حجب الضلال ويحرر قلوب المعادين للإسلام من قيود الحقد والحمية الجاهلية، فتبصر الحقيقة التي ظلت تائهة عنها، فتتذوق بعد إسلامها حلاوة الإيمان الروحي الذي كانت تحاربه وتقاومه، فتنعم هي الأخرى بالأمن الروحي الذي يبعث على الطمأنينة والسكينة.

5 مقومات الأمن الروحي من خلال القرآن والسيرة النبوية.

إذا كان الله عز وجل قد اصطفى هذه الأمة من بين بقية الأمم، وقضى فيها الخيرية، فقال سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[2].

[1] - أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري السيرة النبوية ج 2 ص 397

[2] - سورة آل عمران الآية 110.

فهو سبحانه بهذا الاصطفاء قد جعلها مكلفة بهداية البشرية وإخراجها من ظلمات الجهل والتخلف والظلم والبغي والرقي بها عن الفواحش والمنكرات والإفساد في الأرض ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[1].

ولكي لا تزيغ عن هذا التكليف وتتملص من مسؤوليتها اتجاه الأمم الأخرى، فقد توعدها الله بالسؤال عما كلفت به ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[2].

وحتى لا تتعذر بعذر الجهل بمنهج التكليف وأسلوب الأداء فقد بين لها سبحانه منهج التكليف وفصله بما لا يدع لها حجة تحتج بها يوم القيامة فقال سبحانه ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[3].

فدلت الآية على حصر منهج التكليف في الهداية الأقوم والأكمل التي احتواها القرآن الكريم خاتم الرسالات.

وحتى لا تتفرق الأمة حول المنهج الرباني القويم، فقد دلها عز وجل على الأنموذج والمرشد الذي يترجم مراد الله في كتابه، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه: ﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر﴾ . فأمر الله سبحانه بالاقتداء والاتباع، ولكي لا تلبس على المؤمنين المقتدين مساحة الاقتداء والاتباع فقد قال سبحانه: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[4].

ولخطورة المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حذر سبحانه وتعالى المؤمنين فقال عز وجل ﴿ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم﴾[5].

---

[1] - سورة آل عمران الآية 110.
[2] - سورة البقرة 143.
[3] - سورة الإسراء الآية 9.
[4] - سورة الحشر الآية 7.
[5] - سورة الأحزاب الآية 36.

إذن فأمة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الخصائص الربانية التي انفردت بها دون بقية الأمم هي الموكول لها تحقيق الأمن الروحي والحفاظ عليه وتأمينه.

هي المؤهلة بما أمدها الله به وأنعم به عليها من وسائل وأسباب تحقيق الأمن الروحي، والمتضمنة في كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، هي المؤهلة لبعث الأمن الروحي والحفاظ عليه إذا ما تحققت مقوماته في واقع الأمة.

مقومات الأمن الروحي الأساسية

المقوم الأول:الدعوة:

فهي قلب الإسلام النابض، بها تنهض الأمة وتحيى، وبتعطلها تتعطل الأمة وتدب إليها الفتن وتحل بها المصائب وتعصف بها الأهواء ويستبيح بيضتها الأعداء.

فبداية هذا الدين كانت الدعوة ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾[1] ورسالته كانت الدعوة ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة﴾[2] ومنزلتها أشرف المنازل ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين﴾[3]. وخلد الله ذكر الدعاة في كتابه فقال: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾[4]، وهي وصية الرسول صلى الله عليه وسلم: ""فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم""[5].

فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبعا لهم. والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم لهم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه ولو بآية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثا، وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس،

---

[1] - سورة المدثر الآية 1.
[2] - سورة يوسف الآية 108.
[3] - سورة فصلت الآية 33.
[4] - سورة يسن الآية 20.
[5] - صحيح مسلم ص 2406.

وأما تبليغ السنن لا يقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفائهم في أممهم، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه[1]. وقال ابن تيمية رحمه الله: (الدعوة إلى الله واجبة على كل من اتبعه (أي الرسول) وهم أمته، يدعون إلى الله كما دعا إلى الله).

وهذا واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين، فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك، ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين، قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[2].

المقوم الثاني: التجديد:

- لأن شريعة الإسلام خالدة وممتدة إلى قيام الساعة .
- ولأن نصوص الشريعة محدودة والحوادث التي تقع ممدودة.
- ولأن تقادم الزمن وتبدله، وبعد الناس عن مصدر الوحي ومن عايشوه يؤدي إلى اندراس كثير من معالم الدين. وغلبة الفساد وعلوه، واتساع رقعة الضلالات والبدع والمنكرات.

اقتضت حكمة الله تعالى أن يحمل هذا الدين الخاتم سر البقاء والخلود، فهو الحاكم حال التمكين وهو الباعث المجدد حال الضعف والابتعاد عن الشرع.

لقد تكفل الله تعالى بحفظ دينه من الزوال، وتعهد سبحانه وتعالى، بإحيائه وتمكينه، عندما تتبدل الأحوال، تكفل بحفظ أصوله ومصادره فقال عز وجل: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [3]. وتعهد برعايته وإبقاء معالمه عند ما يشتد البلاء بالأمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ""لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك "[4]

---

[1]- تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي، إمتاع الأسماع بما للنبي صلى الله عليه وسم من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع. تحقيق محمد عبد الحميد النميسي .ج11/ص 139.

[2]- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الجزء 15 ص 165.

[3]- سورة الحجر الآية 9.

[4]- مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري . صحيح مسلم باب الإمارة حديث رقم 3660.

كما تعهد سبحانه بتجديد دينه ليتمكن من مواجهة التحديات الزمانية والمكانية وتبدل أحوال الإنسان.

ولضمان سلامة التجديد من الانحراف بالدين عن أسسه الربانية المصدر، فقد حدد العلماء ضوابط للتجديد تم حصرها في خمس مجالات هي كالتالي:

أ- الحفاظ على نصوص الدين الأصلية صحيحة نقية. لأنه إذا كان المراد من حديث التجديد إحياء وإعادة ما اندرس من الدين، فإن الدين إنما يقوم على النصوص الأصلية التي أنزلها الله في كتابه أو بينها رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا بقاء لدين دون حفظ نصوصه، وما حرفت الأديان السابقة على الإسلام، وانحرفت على الصراط المستقيم إلا بسبب ضياع أصولها[1]

ب- نقل المعاني الصحيحة للنصوص وإحياء الفهم السليم لها.

لأنه إذا تركت النصوص لفهوم الناس وعقولهم، فلا يبعد أن تتعدد أشكال الدين نظرا لاختلاف العقول والفهوم، وتأثرها بعوامل الزمان والمكان والبيئة والثقافة والأهواء والنزعات[2].

ج- الاجتهاد في الأمور المستحدثة وإيجاد حلول لها.

كي لا يقع الناس في حرج وضيق نتيجة بعدهم عن أحكام ربهم، واتهام الإسلام بالجمود والرجعية وعدم الصلاحية لكل زمان ومكان.

د- تصحيح الانحرافات:

والانحراف عن الدين على شكلين: الأول انحراف في المفاهيم والقيم، والثاني في السلوك والعمل.

فالأول يصيب المعتقد والتصورات الشاذة والمنحرفة عن الدين، والثاني بقاء المعتقد صحيحا لكن السلوك والعمل يكون مخالفا للاعتقاد والتصور.

فهذه الانحرافات بشقيها، تزعزع الأمن الروحي لدى الفرد ولدى الجماعة، لما ينتج عنها من انتشار الشبهات والاختلافات المذهبية المبنية عن جهل بمبادئ الاختلاف.

---

[1]- أحمد محمد الحنيطي: الثبات والمرونة في الشريعة الإسلامية بين التجديد والانفتاح، مجلة علوم الشريعة والقانون العدد 2- 2015.

[2]- القيسي مروان إبراهيم . معالي الهدى إلى فهم الإسلام ص 108.

يقول ابن القيم: "إن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان موته وهلاكه، وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله"[1].

هـ- حماية الدين والدفاع عنه:

وهو واجب العلماء وولات الأمور، حمايته من الأفكار والشبهات الهدامة بواسطة العلماء والضرب على يد المفسدين الذين لا تنصلح أحوالهم إلا بالسلطان، قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾[2] . يقول ابن تيمية رحمه الله: ""فأخبر أنه أرسل الرسل وأنزل الكتاب والميزان لأجل قيام الناس بالقسط، وذكر أنه انزل الحديد الذي ينصر هذا الحق . فالكتاب يهدي والسيف ينصره""[3].

المقوم الثالث: تثبيت العدل داخل المجتمع

يعد العدل من القيم الإنسانية التي جاء بها الإسلام وجعلها من مقومات الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية، حتى جعل القرآن إقامة القسط – أي العدل – بين الناس هدف الرسالات السماوية كلها فقال: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[4] .

وليس ثمة تنويه بقيمة القسط أو العدل أعظم من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الله تعالى رسله، وإنزاله كتبه، فبالعدل أنزلت الكتب وبعثت الرسل، وبالعدل قامت السماوات والأرض[5].

فإقامة العدل وتثبيته في أوساط المجتمع المسلم، يجعل النفوس تطمئن وتسكن، فلا أحد يخشى على حقوقه المادية أو المعنوية من أن يعتدي عليها أو يجار عليها . ولا أحد يتملص أو يحاول التهرب من القصاص عند ما يدان ويثبت عليه الجرم، بل يدفعه إيمانه لطلب القصاص منه ونفسه راضية

---

[1]- ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر مفتاح السعادة ومنشور ولاية العمر والإرادة . ج 1 ص 110.

[2]- سورة الحديد الآية 25.

[3]- ابن تيمية: مجموع الفتوى ج 18 ص 185.

[4]- سورة الحديد الآية 25.

[5]- يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص 133.

طائعة مطمئنة لأنها تعلم أن ما يقع عليها هو حكم الله الذي ما إن يتحقق حتى يكفر عنها ما اقترفت من ذنب أو معصية.

إن تحقيق العدل هو ما يضمن ثبات الأمن الروحي داخل المجتمع المسلم باختلاف طبقاته ومستوياته، أمن روحي يجعل الفقير راض بفقره لأن فقره لن يحرمه حقه في العدل أمام الغني، وهو ما يجعل الغني وصاحب المنصب يرضى بأخذ الحق منه لصالح من هم دونه ونفسه طيبة به.

إن ضياع العدل في الإسلام هو اعتداء ووأد للأمن الروحي بين المسلمين، هو انحراف بالعقيدة الصحيحة في مفهوم الرضا والتسليم لشرع الله.

إن الانعكاس السلبي لعدم تحقيق العدل على الأمن الروحي للمسلمين هو ما أغضب الرسول صلى الله عليه وسلم لما حاول أسامة بن زيد أن يتوسط لامرأة من قبيلة بن مخزوم ذات نسب كي لا تقطع يدها في جريمة السرقة، فخطب صلى الله عليه وسلم خطبة بليغة أوضح فيها منهج الإسلام وعدله، وكيف أنه سوى بين كل أفراد المجتمع رؤساء ومرؤوسين فكان مما قاله في هذه الخطبة: (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[1].

وهو ما جعل عمر بن الخطاب يقيم الحد على واليه على مصر عمرو ابن العاص رضي الله عنه ثم يعلنها مدوية كي تستقر في النفوس المؤمنة فيزداد إيمانها ويثبت أمنها الروحي ""متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا""[2].

وكما أن العدل يحافظ على استتباب الأمن الروحي وتقويته فإن ثمرة الأمن الروحي تدفع بالمجتمع إلى المساهمة في تثبيت ركائز العدل وتحصينها.

فقد جاء الصحابي الجليل ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب إقامة حد الزنا عليه .

لقد سلم ماعز نفسه للعدالة دون أن يكون هناك شهود على الجريمة، ودون أن يكون للعدالة خبر بالجريمة، ولكن كان هناك دافع قوي واحد، هو ما دفعه للتبليغ عن نفسه ثم طلب إقامة الحد.

---

[1]- البخاري: كتاب الأنبياء باب" أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم " 3288

[2]- شهاب الدين محمد أبي الفتح الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف ج 1 ص 239.

إنه دافع الإيمان الذي يرفض العيش مع الخطيئة، إنه الأمن الروحي الذي يأبى الإصرار على الذنب وعدم التكفير عنه، إنه التصديق والتسليم لحكم الله العدل، لحكم نزل من السماء ليقوم العدل على الأرض، فأي انحراف عن حكم السماء سينعكس سلبا على الأرض، وأي تملص عن إقامة العدالة تعقبه فوضى وزعزعة للأمن الروحي للفرد والمجتمع.

إن إقامة العدل هو ما يصلح القلوب ويحميها من شرور البغض والكراهية وحب الانتقام، إن من يحكم عليه بالعدل لا يبغض من حكم عليه ولا من حكم له ضده، لأنه يؤمن بأن الحكم عادل، وأن ما وقع عليه لابد منه لإصلاح المجتمع، فيحمله العدل على طلب التوبة والعزم على الإقلاع وعدم العودة.

بل إن العدل يجعل المتقاضيان يسيران بعد القضاء العادل جنبا إلى جنب بعد أن وقفا أما القضاء جنبا إلى جنب وقد أمن بعضهم بعضا، فهذا عمر رضي الله عنه وقد أجرى العدل في رعيته ينام تحت الشجرة وقد أمن على نفسه، لأنه يعلم أن عدله قد أقام الأمن الروحي بين رعيته فصار بعضهم أولياء بعض يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر.

تقويم للمقومات

فهذه المقومات الثلاثة، الدعوة والتجديد والعدل هي أمهات المقومات، فأي مقوم يخدم الأمن الروحي أو يساهم في بنائه وتثبيته لدى الفرد أو المجتمع يدخل ضمن هذه الثلاثة، فالتربية والتزكية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من القيم التي تساهم في الحفاظ على الأمن الروحي الفردي والجماعي لا تنفك تدخل ضمن هذه المقومات وهو ما حاولنا الاستدلال عليه من خلال النصوص والأحداث الثابتة في تاريخ الإسلام.

خاتمة

إذا كان مصطلح الأمن الروحي مصطلحا حديث النشأة كما مر معنا، فإن ممارسته وتجسيده في واقع الأمة كان حاضرا وماثلا في عقيدتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم.

فقد كان الأمن متجسدا في ارتباط الأمة بإيمانها العميق بأركان الإيمان ومستلزماته إيمانا يجعلها حريصة على البقاء داخل حمى العقيدة الصحيحة الذي يدفع عنها الشبهات والانحرافات الشاذة اما جهة التطرف والغلو أو التفسخ والرذيلة.

كان الأمن الروحي حاضرا في معاملاتها وتعاملاتها حيث كانت تنظر إلى العبادة نظرة شمولية، فالعبادة عندها تضبطها مراقبة الله، واستحضار اطلاعه سبحانه على عباده، فلا فرق بين وقفة صلاة في خلوة ووقفة بيع وسط الأنام، فالمطلع واحد والمطلوب واحد وهو الصدق والإخلاص.

كان الأمن حاضر في الأخلاق والأحاسيس، حيث كانت الحياة عند أولئك قنطرة عبور، إما إلى النعيم أو الشقاء، والأخلاق الحسنة هي عملة الرقي والسمو والعبور بسلام قال تعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾.[1]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم"[2].

ولما تعاقبت القرون وتباعدت بالأمة تصاريف الدهور، وكان كل جيل يحدث في زمانه ما يميزه عن الجيل قبله، واحتكت الثقافات وتداخلت التقاليد والعادات، فأنكرت وقبلت، فكان للإيمان في النفوس مد وجزر، ولقيت الأهواء والأطماع سبلها لهدم ما أرساه الأولون، من أمور الدين، فظهر المتقولون عن الدين، والقائلون في الدين بلا علم ولا دليل، فاحتيج إلى من يتصدى لهذا الغزو وحفظ الملة والذود عن الدين.

لقد جاءت الدعوة إلى حماية الأمن الروحي داخل المجتمعات الإسلامية كصحوة دينية تجديدية للدين، غايتها الحفاظ على صفائه ونقاوته مما قد يشوبه من الخرافات والبدع والضلالات وعلى وسطيته واعتداله في مواجهة الأفكار والسلوكات المتطرفة المغالية.

وإذا كانت هذه الدعوة جديدة وحديثة فهي تجسد مبدأ من مبادئ هذا الدين، وهو التجديد الذي نص عليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها "[3].

كما أنها تدعو إلى إقامة أساس من أسس هذا الدين وهو تحقيق الطمأنينة والسكينة في نفوس المؤمنين. فيعبدون الله ويسعون في الأرض في أمان وسلام، ويتعايشون ويتعاونون على البر والتقوى لا ينغص الخوف والشك عليهم حياتهم.

---

[1] - سورة آل عمران الآية 133.

[2] - الإمام الحافظ أب داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني: سنن أبي داود الجزء السابع الحديث رقم 4798 ص.167.

[3] - سبق تخريجه.

إلا أن هذه الدعوة التجديدية تبقى قاصرة وعاجزة أمام التحولات والأحداث المتسارعة التي صار يعرفها واقع الناس اليوم، والتحديات المعاصرة الهدامة التي لم تفرق بين الثابت والمتغير، ولم تقم للتقاليد ولا للأعراف احتراما، بل صار كل شيء قابل للمناقشة والمراجعة والتشكيك.

أمام هذه المتغيرات صار تحقيق الأمن الروحي أكثر إلحاحا من ذي قبل وصار على أصحاب هذه المسؤولية الجسيمة، وعلى رأسهم العلماء الربانيين حقا، أهل الاجتهاد والفتوى، صار عليهم التحرك بمستوى التغير المفروض عليهم، والتحرر من قيود المكان والزمان الذي يضمهم والتعامل مع المكان الواسع الذي يلف حولهم، والزمان الذي يتجاوزهم، ثم ولاة الأمور بما حباهم الله من سلطة التمكين للدين، فإليهم يرجع أمر إقامة الأمن الروحي في مجتمعاتهم، وذلك بتوفير أسباب ووسائل نشر تعاليم الدين ووصول الفهم الصحيح لمقومات الإيمان بالحجة والدليل، مع كشف انحراف المتشددين.

والسهر على تفعيل تعاليم الدين في المعاملة بين المسلمين، وذلك بتطبيق الحدود على الخارجين عن أوامر الشرع المبين.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش
- إبهاج المسلم بشرح صحيح مسلم للشيخ عبد الله بن حمود الفريح طبعة 1436هـ.
- أساس البلاغة لمحمود بن عمر الزمخشري جار الله أبو القاسم. تحقيق محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية 1419هـ .
- أصح الكلم في سيرة خير الأنام السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث دروس وعبر للدكتور علي محمد محمد الصلابي المكتبة الوقفية دار الكتب المصرية 2010 م.
- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والحفدة والمتاع لأحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين المقريزي (ت 845 هـ) الطبعة الأولى 1420 هـ.
- الأمن القومي ومشروعيته في الاسلام: لشرين الضاني: صحيفة الحوار المتمدن العدد 20/10/2010/3160
- الأمن في حياة الناس وأهميته في الاسلام لمعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.
- التعريفات لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ن 816 هـ) تحقيق وضبط وتصحيح جماعة من العلماء . دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط. الأولى 1403 هـ.
- تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي أبو جعفر الطبري (ت 310 هـ) تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة.
- الثبات والمرونة في الشريعة الاسلامية بين التجديد والانفتاح لأحمد محمد الحنيطي. مجلة علوم الشريعة والقانون العدد 2- 2015.
- دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة الأولى 1422 هـ .
- سنن أب داوود السجستاني (ت 275 هت) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية صيدا بيروت.
- السيرة النبوية لابن هشام لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد جمال الدين (ت 213 هـ) تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الثانية 1375 هـ.
- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري لمحمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله (ت 256 هـ) حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني دار الصديق للنشر والتوزيع . الطبعة الرابعة 1418هـ
- صحيح البخاري. تحقيق محمد زهير الناصر ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي دار طوق النجاة الطبعة الأولى 1422 هـ.

- صحيح مسلم بشرح النووي للإمام أبي بكر زكريا يحيى بن شرف النووي (ت 676 هـ) دار الدعوة الاسلامية الطبعة الأولى 1422 هـ.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني.تحقيق يوسف الغوش. دار المعرفة الطبعة الرابعة 1428 هـ.
- في ظلال القرآن سيد قطب دار الشروق.
- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منصور الأنصاري الرويفعي (ت 711 هـ) دار صادر –بيروت الطبعة الثالثة 1414هـ
- مجلة ملحق الصائم للدكتورة رضية سالم عدد 2017/06/01.
- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف المدينة النبوية المملكة العربية السعودية 1416 هـ.
- مجموع الفتاوى لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت 728 هـ) تحقيق عبد الرحمان بن محمد بن قاسم.
- المستطرف في كل فن مستطرف لشهاب الدين محمد أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (ت 52 هـ) عالم الكتب بيروت الطبعة الأولى 1419 هـ.
- معالم الهدى إلى فهم الاسلام للدكتور مروان إبراهيم القيسي المكتبة الاسلامية عمان الطبعة الأولى 1406 هـ.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة للعلامة الإمام شيخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (75 هـ) قدم له وضبط نصه وعلق عليه وخرج أحاديثه: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري. راجعه فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد. درا ابن عفان الطبعة الأولى 1416 هـ.
- ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ليوسف القرضاوي مؤسسة الرسالة ناشرون الطبعة الأولى 2001 م.
- الموافقات لإبراهيم موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت 790 هـ تحقيق أبو عبيدة بن الحسن آلا سلمان . دار عفان الطبعة الأولى 1417 هـ
- موسوعة السياسة: الدكتور عبد الوهاب الكيالي وآخرون دار الهدي للنشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

منظومة القيم القرآنية والأمن الروحي

د. محمد الناصري،
(جامعة المولى سلمان ببيت ملال)

مقدمة:

هناك لحظات حاسمة في تاريخ الأمم والشعوب والأفراد يجب أن يتوقف عندها المرء عن السير لكي يعطي العقل فرصة للتفكير والتأمل والنظر، وفي يقيني أن الأمة العربية والإسلامية - ومنذ وقت بعيد - مدعوة لأن تفكر وأن تعاود التفكير فيما آل إليه أمرها، الذي أقل ما يوصف به أنه العجز وأصدق ما يصور به أنه المهانة. وإذا كانت الأمة الإسلامية مدعوة للتفكير، فإن أكثر من توجه إليهم الدعوة للتفكير هم أبناؤها ممن يفكرون أو ممن يدعون أن بضاعتهم أو صنعتهم هي التفكير ... وهناك هموم عديدة لابد من أن يفكر فيها ويعاد تقويمها، وهي أمور جوهرية وخطيرة تشمل فيما تشمله: الدين، الثقافة، السلطة، الوحدة، وغيرها كثير، وكل أمر منها هم ثقيل.

بيد أنه يهمنا من هذه الهموم ما نعتقد أنه أكثرها إلحاحا وأشدها خطرا؛ ونعني به "التردي الأخلاقي" الذي تعيشه الأمة العربية والإسلامية، أفرادا وجماعات ونخبا. وربما اتهمني البعض بالغلو إذا قررت أن كل الكوارث التي أصابت وتصيب أمتنا ومزقت شملها مردها إلى هذا التردي. ولهذا فحاجة المشتغل بالفكر اليوم من المسلمين إلى أن يتأمل في الممارسة الأخلاقية أشد منها في أي وقت مضى، وذلك لاعتبارات ثلاث:

1. **أحدها:** لا تعسف في القول بأن المجتمعات المعاصرة تواجه اليوم مأزقها وتشهد على ذلك الإخفاقات المتلاحقة، والمشكلات المتفاقمة والانهيارات المفاجئة، والأزمة عالمية بقدر ما هي شاملة، إذ هي تضرب في غير مكان وعلى غير صعيد من صعد العمل الحضاري والنشاط البشري، وأصبح من تكرار القول: الكلام عن المأزق الوجودي الراهن كما تشير إليه عناوين المؤلفات والمقالات التي تتناول الوضع البشري مثل: الصدمة، الرعب، النهاية، السقوط، الانحلال، العدمية... ومن اللافت للنظر أن أكثر المؤلفات الفكرية والفلسفية التي صدرت في فرنسا 2005م قد جرى إدراجها تحت عنوان: "العالم في أزمة". أزمة أدت إلى إيذاء الإنسان في وجوده الأخلاقي

بما ييأس معه من الصلاح في حاله والفلاح في مآله، "عالمنا اليوم في محنة وكرب بلغا من الإلحاح مبلغا عظيما يدفعنا إلى سبر غورهما وعوارضهما بسبب عمق هذا الألم المستشري. السلام يفوتنا والكوكب يتعرض للدمار، الجيران يعيشون في خوف، هناك غربة بين النساء والرجال، والأطفال يموتون. إنه أمر بغيض"[1]. كانت هذه خلاصة عامين من التشاور بين مائتي أستاذ ورجل دين ينتمون إلى عدد كبير من التجمعات الإيمانية في العالم، اجتمعوا ضمن فعاليات البرلمان العالمي للديانات المنعقد بشيكاغو عام 1993م، وهي حصيلة لا يختلف حولها اثنان بالنظر إلى المعضلات المتفاقمة والإخفاقات المتلاحقة والانهيارات المفاجئة التي تعج بها الساحة الإنسانية. ومن اللافت للنظر أن أكثر المؤلفات الفكرية والفلسفية التي صدرت في فرنسا عام 2005م قد جرى إدراجها تحت عنوان" العالم في أزمة". وفي إدانتهم للآفات التي يعيشها عالمنا المعاصر يعلن المشاركون في البرلمان العالمي للديانات – السابق الذكر – في بيانهم الختامي: "أن العنصر الأخلاقي الكائن في صميم التعاليم الدينية العالمية جدير بأن يخلص العالم من محنته[2]".

1- هانز كينغ: نحو أخلاق عالمية إعلان عالمي صادر عام1993م م. التسامح، ع7، س الثانية 11.1425هـ، 2004م.ص.58.

2- ذلك أن الأخلاق لم تعد مجرد مواعظ وتوصيات وآداب بل غدت نظاما معرفيا يمتد إلى الفلسفة والعلم ونظام القيم. فقد اقتحم البحث الأخلاقي معظم الميادين، وبات مشروعا يساءل ويخضع للسؤال من قبل المفكر والفيلسوف.

ولماذا العودة إلى الأخلاق؟ وما معنى ذلك؟ يجيب عن هذين السؤالين المفكر الفرنسي: أندره كونت سبونفيل بقوله: "عندما أتحدث عن "عودة الأخلاق" أو عندما يجري الحديث عنها في وسائل الإعلام، فإن ذلك لا يعني أن الناس اليوم، صالحون أكثر مما كان عليه حال ذويهم أو أجدادهم، فالعودة إلى الأخلاق إنما تتم، جوهريا "من خلال الخطاب" ليس لأن الناس هم حقا أكثر صلاحا، بل لأن الأخلاق غدت، أكثر فأكثر مادة لحديثهم بحيث يسعنا في الأقل الافتراض أنهم يتحدثون عنها بمقدار ما هي غائبة عن واقع السلوك البشري ... فمثل هذا الأمر غير مستبعد على الإطلاق، غير أنهم يتحدثون عنها، وقد باتت عودة الأخلاق هذه إلى واجهة الخطاب المهيمن وواجهة الاهتمامات، ظاهرة اجتماعية تستحق التوقف عندها والتدقيق فيها ". من كتابه "هل الرأسمالية أخلاقية ؟"، دار الساقي، ترجمة بسام حجار بالاشتراك مع مركز البابطين للترجمة، ط1، 2005، ص 19. وفي رصده لنفس الإشكالية يقول محمد عابد الجابري "من الظواهر اللافتة للنظر في الفكر الأوربي المعاصر، وبالتبعية في الفكر العربي، الاهتمام المتزايد بمسألة الأخلاق والقيم فمنذ عقدين من السنين والأصوات ترتفع أصوات الفلاسفة والمفكرين وبعض الساسة لتطرح الناحية الخلقية والقيمية فيما يستجد على السواء، سواء في ميدان العلم أو في ميدان السياسة والاجتماع والاقتصاد". وترجع أسباب العودة للأخلاق للتطورات العلمية التي عرفتها البيولوجيا والطب، والمعلوميات والصناعة العسكرية يقول: إن التقدم العلمي الهائل في ميدان البيولوجيا والهندسة الوراثية كما في ميدان المعلوماتية، فضلا عن آثار الصناعة والتكنولوجيا على البيئة الطبيعية من جهة، والخطر الذي تشكله أسلحة التدمير الشامل على البشرية كلها من جهة ثانية، إن تقدم العلم في هذه المجالات كما في غيرها قد أدى، أو من شأنه أن يؤدي إلى نتائج تتعارض على طول الخط مع القيم الأخلاقية التي تكرست منذ فجر التاريخ البشري، وفي جميع المجتمعات ولدى مختلف الأديان، والفلسفات بوصفها عنصرا جوهريا في إنسانية الإنسان، إن لم يكن العنصر الجوهري الوحيد فيها...، الأمر الذي

.2 **الاعتبار الثاني:** إن العالم بلا شك مقبل على تحول أخلاقي عميق في ظل ما يشهده من تحولات متلاحقة في جميع مناحي الحياة الفردية وميادين الحياة المجتمعية. و"الملاحظ هو أن هذه الأزمة الأخلاقية تلاها بالفعل وعي أخلاقي خاص، تجلى هذا الوعي في مظاهر شتى منها تقوية تدريس مواد الأخلاق وإحداث كراسي لها في المعاهد والجامعات وعقد المؤتمرات والمناظرات حول الإشكاليات الأخلاقية المستجدة، ومنها أيضا إنشاء لجن الحكماء ووضع دساتير ومواثيق أخلاقية، وتأسيس حركات إصلاحية ومنظمات إنسانية، وكذلك فتح أبواب في علم الأخلاق غير مسبوقة ووضع نظريات فيه غير معهودة، فجرى الخوض في "أخلاقيات الحياة" و"أخلاقيات البيئة" و"أخلاقيات الإعلام" و"أخلاقيات الإدارة" و"أخلاقيات الشغل" و"أخلاقيات الأعمال والمقاولة". مما يؤكد أن العالم متجه إلى وضع نظام أخلاقي جديد كما شأنه مع النظام التجاري العالمي، وإن كان هذا النظام الأخلاقي الجديد قد لا يرى النور إلا بعد الفراغ من وضع سلسلة من أنظمة عالمية متعددة أخرى: اقتصادية، سياسية، عسكرية، إعلامية، ثقافية، ومرد هذا التأخير إلى سيادة تصور للأخلاق يجعلها تابعة ولاحقة لهذه الأنظمة الأخرى لا سابقة عليها.

.3 **الاعتبار الثالث:** إن هناك غيابا كليا للمساعي التي تعمل على تجديد النظر في الأخلاق الإسلامية بما يجعل تجديد النظر يضاهي الفلسفات الأخلاقية الغربية الحديثة، ولا بالأولى يجعله يواجه التحدي الأخلاقي المقبل. يزكي هذا الرأي ويدعمه أن نصيب التأليف في الأخلاق ظل هو الأقل مقارنة بغيره من العلوم والمعارف والفنون في تراثنا المدون بالعربية، فحين نطالع مراجع ببليوغرافية اهتمت باستقراء وتصنيف الكتب، نجد التفسير وعلوم القرآن والحديث والفقه وعلم الكلام وغيرها، احتلت حيزا واسعا من عناوين المؤلفات المذكورة في تلك المراجع، بينما لا نعثر على مدونات مستقلة تعالج البحث النظري في الأخلاق أو الفلسفة الأخلاقية في الفترة المبكرة في عصر التدوين... إلى أن يؤلف المؤرخ والفيلسوف المعروف مسكويه في القرن الرابع الهجري كتابه الموسوم ب: "تهذيب الأخلاق"، الذي دشن أرضية تأسيس علم جديد بموازاة العلوم والمعارف الأخرى في المجال الإسلامي، فقد رفع مسكويه الأخلاق أو البحث فيها إلى مرتبة العلم الكامل، وفرض بذلك في المجال الإسلامي اختصاصا فكريا موازيا لذلك الاختصاص الذي فرضه أرسطو في

أدى إلى انبعاث التفكير في الأخلاق والقيم وتزايد الميل إلى إخضاع العلم ونتائجه لها، وبالتالي تأسيسه عليها مما سمح بالحديث عن عودة الأخلاق". من كتابه "قضايا في الفكر المعاصر"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2003م، ص 35-36، بتصرف

اليونان عندما كتب رسالة في الأخلاق. وجرى من بعد استدعاء المواضيع الأساسية لكتاب مسكويه في آثار لاحقة؛ في "ميزان العمل" للغزالي و"أدب الدنيا والدين" للماوردي، و"الأخلاق والسير" لابن حزم. أما المحاولات الحديثة والمعاصرة في هذا الاتجاه، فلم تزل محدودة وضئيلة مقارنة بالمتطلبات الأخلاقية الملحة لمجتمعاتنا العربية والإسلامية التي تجتاحها أعاصير وموجات تقوض بناها التقليدية وتسوقها نحو فوضى شاملة ومصائر مجهولة. ولعل أبرز هذه المحاولات هي رسالة قدمها محمد عبد الله دراز لجامعة السوربون بباريس سنة 1945م، بعنوان: "أخلاق القرآن" لنيل شهادة الدكتوراه وترجمت إلى العربية باسم "دستور الأخلاق في القرآن". وفي سنة 2000م أصدر طه عبد الرحمن "سؤال الأخلاق" وهو كما يتحدث عنوانه الشارح "مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية"، كما أصدر محمد عابد الجابري في 2001م "العقل الأخلاقي العربي"، والذي جعل من دراسة نظم القيم في الثقافة العربية والإسلامية دراسة تحليلية نقدية إشكالية لكتابه. باستثناء هذه المحاولات لا نكاد نجد مثيلاتها في الفكر الأخلاقي العربي والإسلامي.

وعليه نستنتج صحة الاعتبار الثالث المؤكد لغياب المساعي التي تعمل على تجديد النظر في الأخلاق الإسلامية، وهذا الغياب المؤسف لن يزيد المسلمين إلا تضعضعا في مركزهم، ولا سيما أنهم لا يملكون على ما يبدو في الأفق القريب، إلا ما انطوى عليه الإسلام من القيم الأخلاقية والمعاني الروحية لتثبيت وجودهم وقول كلمتهم في الحضارة العالمية المعاصرة. وبناء على هذه الاعتبارات الثلاث: "الضرر الخلقي للحضارة المعاصرة" و"التحول الأخلاقي المنتظر" و"الفراغ الأخلاقي الإسلامي"؛ يصبح أمر توضيح معالم الفلسفة الأخلاقية الإسلامية بما يسهم في ملء الفراغ الأخلاقي العالمي، ضرورة شرعية وواجب ديني.

ونحن نعتقد أن الأخلاق القرآنية كفيلة بإنقاذ البشرية من هوة التوحش والتسلط الماديين، وإخراجها من مأزقها الوجودي الذي تعيشه، وذلك بفضل أصالة النظام الأخلاقي القرآني، وتتمثل هذه الأصالة في جوانب ثلاثة:

.4 إن القرآن من حيث كونه حافظا لما سبقه واستمرارا له قد تميز عنه بذلك الامتداد الرحب الذي ضم فيه جوهر القانون الأخلاقي كله، وهو الذي ظل متفرقا في تعاليم القديسين والحكماء، من المؤسسين والمصلحين، الذين تباعد بعضهم عن بعض زمانا ومكانا، وربما لم يترك بعضهم أثرا من بعده يحفظ تعاليمه، ولعل هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات القرآن وإن لم تكن أثمن سماته.

.5 وتبدو أصالة هذا النظام ثانيا في طريقته التي سلكها لتقديم تلك الدروس المختلفة عن الماضين وتقريبها بحيث يصوغ تنوعها في وحدة لا تقبل الانفصام، ويسوقها على اختلافها في إطار من الاتفاق التام، وذلك لأنه بدأ بأن نزع عن الشرائع السابقة كل ما كان في ظاهر الأمر إفراطا أو تفريطا، وبعد أن حقق وضع التعادل في ميزانها دفعها جميعها في اتجاه واحد، ثم نفخ فيها من روح واحدة بحيث صار حقا أن ينسب إليه بخاصة مجموع هذه الأخلاق.

6. وأعجب من ذلك وأعظم أصالة جانبه الخلاق، فليس يكفي في الواقع لكي نصف أخلاق القرآن أن نقول: إنها حفظت تراث الأسلاف ودعمته، وأنها وفقت بين الآراء المختلفة التي فرقت أخلاقهم، بل ينبغي أن نضيف: أن الأخلاق القرآنية قد رفعت ذلكم البناء المقدس، وجملته، حين ضمت إليه فصولا كاملة الجدة، رائعة التقدم، ختمت إلى الأبد العمل الأخلاقيَ[1].

وهذا كله يستوجب توضيح فلسفة القرآن الأخلاقية ويجعلها ضرورة شرعية بل ضرورة وجود وحياة لأمتنا التي ما تزال موضع هجوم وابتزاز يستهدف استئصال ثقافتها والقضاء على نظامها المعرفي. إن غرضنا من هذا البحث هو أن نبين أسس النظرية الأخلاقية كما يمكن استخلاصها من القرآن الكريم، والتدليل على اتصاف هذه النظرية بالخصائص القادرة على إقناع المغرم بالحقيقة، وتنزهها عن كل النقائص التي تعيب كل نظرية أخلاقية باطلة. ونأتي بهذا البيان من خلال تناولنا بالدراسة والتوضيح العناصر والأسس التي تقوم عليها الأخلاق في القرآن، وذلك بعد تناولنا بالبحث المعايير التي يمكن أن نبرر بها ا السلوك الأخلاقي للإنسان انطلاقا من اعتبارات قيمية تم تكريسها في القرآن الكريم.

7. معايير العمل الأخلاقي من منظور القرآن الكريم: نقصد بمعايير العمل الأخلاقي تلك المباحث النظرية التي يمكن من خلالها تقييم الأحكام الخلقية، وتحديد الموقف الأخلاقي، باختيار ما يجب أو ما ينبغي أن يعتمد من بين البدائل المتعددة المتاحة لنا، وبتعبير آخر، الأخلاق المعيارية تزودنا بغاية أو غايات أخيرة نستطيع بها أن نبرر اختيار عمل أو اعتماد موقف دون آخر. ونشير

1- محمد عبد الله دراز. دستور الأخلاق في القرآن .ترجمة عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ط10، 1418هـ/1998م، ص8-9. وهذا الكتاب هو في الأصل أطروحة دكتوراه بالفرنسية بجامعة السوربون 1947م. ونشرها الأزهر بلغتها الأصلية عام 1950م. ثم ترجمها وحققها الدكتور عبد الصبور شاهين .ونشرت طبعتها الأولى بالعربية سنة 1973م. وللإشارة فقد اعتمدنا في بحثنا هذا بشكل كبير على كتاب دستور الأخلاق في القرآن لأنه بحق يعد من المصادر الأساسية في موضوع النظرية الأخلاقية القرآنية، فهو في أصله دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن الكريم.

إلى أن معايير العمل الأخلاقي تتعدد لكونها تخضع لرؤية الإنسان للعالم والحقيقة وغاياته في الوجود والحياة. وتبعا لذلك يمكن التمييز في معايير العمل الأخلاقي بين ثلاثة:

1. **المعيار الأول:** المصالح والغايات الدنيوية كما هو معمول به في الغرب، وهو ما يسمى بمذهب "المنفعة" الذي ينص على أنه "مبرر أخلاقيا أن يتصرف الفرد في ضوء مصالحه، وأنه كلما فعل الفرد هذا أكثر عاش حياة أفضل" ويمكن أن تأخذ المصالح شكل إشباع الرغبات أو التفضيلات على مر الوقت"[1]، ويزكي مذهب المنفعة "أن الطبيعة البشرية تؤكد أن الناس يتصرفون على وجه الحصر بدوافع المصلحة الذاتية"[2]. ويتميز هذا المذهب بالخصائص التالية: حيث إن الفعل لا يعتبر صحيحا أو غير صحيح بذاته بل بناء على نتائجه. كما تقاس نتيجة الخير أو الشر بالسعادة أو التعاسة التي وصلت إليها الأفعال ولذلك تبدو صحيحة تلك الأفعال التي تقود إلى السيادة العظمى، كما أن مصلحة الإنسان هامة بنفس حجم أهمية مصلحة الناس الآخرين"[3]. وعليه لا يمكن إلزام الإنسان بالأخلاق إذا لم يكن يرى فيها منفعة أو مصلحة ذاتية ليصح إطلاق المذهب الأناني الذي روج له هوبز على مذهب المنفعة[4]. فالفعل الذي لا يجلب لصاحبه لذة أو خيرا أو سعادة يرفض ولو كان أخلاقيا، فالأخلاق تتأسس على المنفعة ومتى تعارضتا ثم إلغاء الأخلاق والصد عن اعتبارها. ففي الكتابات الأخلاقية لجون استيوارت ميل ومن قبله جرمي بنتام تفقد القيم قدسيتها وتتحول إلى قيم شبه اقتصادية. وقد اعتبرت الستينات والسبعينات من القرن المنصرم إحياء واضحا للاهتمام بمذهب المنفعة، واعتبرت النفعية من طرف فلاسفة الغرب "نظرية أخلاقية جذابة جدا ليس فقط من وجهة النظر العقلية بل والعملية"[5] أيضا، ليمتد تأثيرها ويشمل كل جوانب الحياة في الغرب؛ السياسية والاقتصادية والمعرفية، فأصبح كل فعل إنساني ينظر

---

[1] - بيتر إدواردز، مستقبل الأخلاق، ضمن كتاب: مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين. تحرير أوليفر ليمان، ترجمة:مصطفى محمود محمد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مارس 2004، ع 301، ص 100.

[2] - المصدر السابق، ص98.

[3] - شفا رتزمان، الأخلاق البرجوازية في العصر الحالي، ترجمة محمد شعبان، دار دمشق للطباعة والنشر، ط1، 1986، ص131.

[4] - بيتر ادواردز، م.س.، ص98.

[5] - شفا رتزمان، م.س.، ص174.

إليه بناء على نتائجه النفعية. فتم فصل الأخلاق عن السياسة والاقتصاد والعلم[1]. إجمالا فإن مذهب المنفعة يعتمد معيار الغايات والمصالح الدنيوية في تقييمه للعمل الأخلاقي.

.2 **المعيار الثاني:** يأتي كنقيض للأول، إذ يعتمد الغايات الأخروية كمعيار لتقييم الأعمال، بحيث يكون الأساس الأخلاقي في الفعل هو ما يحققه الإنسان في عالم الآخرة، فلا حسن للفعل بالنسبة لعالم الدنيا، وإنما حسنه بمقايسته بالآخرة فقط. وهو المعيار المعمول به عند الطرق التعبدية وأهل التصوف، ورجال الكنائس.

3. **المعيار الثالث:** المعيار القرآني فما طبيعة المعيار الأخلاقي الذي يدعو إليه القرآن الكريم؟ لتتفرع عن هذا السؤال أسئلة من قبيل: هل المعيار المطروح قرآنيا هو معيار نهائي أم معيار واسطة ؟ وهل المعيار من منظور قرآني واحد أم معايير متعددة ولو كانت متعددة، فهل يكتفى بمعيار واحد أم المطلوب معايير مركبة ؟

ولتحديد النظرة القرآنية للمعايير الأخلاقية لابد من معالجة دقيقة للتساؤلات المطروحة، وإذا استقرأنا آيات القرآن المجيد محاولين الإجابة عن تلك الأسئلة نجد أن القرآن يطرح معايير عدة:

.4 قد يطرح **القرآن** الكريم "الاستقامة" أساسا للتقييم ﴿:"قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه﴾[2]. ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾[3]، ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[4].

.5 وقد **يدعو** القرآن الكريم إلى "العمل الصالح" ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾[5] ﴿والعصر إن الانسان

---

[1]- راجع:

–فرانسوا سليه، الأخلاق والحياة الاقتصادية. ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات بيروت، باريس، ط1، 1980.

–فرانسوا غريغور، المذاهب الأخلاقية الكبرى، ترجمة قتيبة المعروفي، منشورات: عويدات بيروت، باريس، ط1، 1970.

–شفا رتزمان، م.س.

[2]-سورة فصلت، الآية 06.

[3]- سورة هود، الآية 112.

[4]- سورة الاحقاف، الآية 13.

[5]- سورة الملك، الآية 1-2.

لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[1] ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[2].

.6 وقد **يطرح** القرآن الكريم "المنفعة" ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال**﴾[3] ﴿**ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله**﴾[4] ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾[5]. والمنفعة التي يعتبرها القرآن الكريم كأساس للفعل الأخلاقي ليس المصلحة الخاصة وإنما المنفعة العامة الشاملة لكل الناس –كما تدل الآيات أعلاه- المقدمة على المنفعة الفردية متى تعارضتا، ومما يدل على صحة القول تنديد القرآن بإيمان المنفعة وتشنيعه بأصحابه ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإنه أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين**﴾[6]. فهنا القرآن عمد إلى طريقته الفذة في تصوير العقيدة التي يبتغي بها أصحابها جذب المنافع إليهم واجتناء الثمرات من ورائها دون أن يكلفهم ذلك عناء ولا مشقة، معتبرين العقيدة صفقة في سوق التجارة يزينونها بميزان الربح والخسارة، منتهزين الفرص التي تجلب وتجر إليهم المنفعة، فهؤلاء فريق قلق في روحه ومضطرب في ضميره خاسر للدنيا والآخرة"[7].

7. وقد يطرح **القرآن** "التقوى" كقيمة أساسية في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية كما يطرح قيما أخرى تصلح أن تكون معيارا للعمل الأخلاقي، من قبيل: العدل والإحسان والكرامة.

الأمر الذي يصعب معه القول بأن القرآن الكريم يدعو إلى معيار واحد وحصري في مجال القضايا الأخلاقية، إلا أنه يمكن أن تجتمع جميع المعايير والقيم الأخلاقية التي أشرنا إليها- والتي لم نشر إليها- تحت مظلة قيمة واحدة ومعيار واحد، هو معيار: التوحيد، وبالتالي القول أن المعايير

---

[1]- سورة العصر، الآيات 1-3.
[2]- سورة التين، الآيات 4-6.
[3]- سورة الرعد، الآية 17.
[4]- سورة الحج، الآية28.
[5]- سورة البقرة، الآية 164.
[6]- سورة الحج، الآية 11.
[7]- راجع سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق. ط.الثلاثون .القاهرة .1422ه.2001م، ج4، ص 2412.

الأخلاقية التي يعلنها القرآن هي معايير واسطة وليست نهائية، لأنها تنتهي جميعها عند المعيار الجامع والنهائي والغاية من الخلق والحياة ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[1]. فعندما يستشعر الإنسان وجود الله في كل كيانه، يدرك أن وجوده لا استقلالية له بعيدا عن ارتباطه بالله سبحانه، عندها يسعى الإنسان إلى تحقيق الهدف الوجودي الذي من أجله خلق، والذي تتكاثف فيه كل الوصايا ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[2].

ومن تم فـ"إن الهدف الذي ينبغي لنشاط المؤمن الطائع أن يتوخاه وهو يؤدي واجبه لا يكمن في طيبات هذه الدنيا، ولا في السرور والمجد في الآخرة، ولا في إشباع شعوره الخير، بل ولا في إكمال وجوده الباطن، إنه الله، الله الذي يجب أن يكون نصب أعيننا، وأية غاية أخرى تدفع الإنسان للعمل هي في ذاتها انتفاء للقيمة وعدم"[3]. فهذا هو المبدأ والمنتهى والهدف في كل الحالات، الذي تتوافق فيه كل العناصر الفردية والاجتماعية، والإنسانية والإلهية والدنيوية والأخروية والروحية والمعنوية، ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾[4].

8. أسس النظرية الأخلاقية من منظور القرآن الكريم: إن الاعتراف بوجود معايير أخلاقية من منظور القرآن الكريم الذي منتهاها وجماعها التوحيد بما هو إقرار تام بوجود الله سبحانه، وإيمان مطلق به جل شأنه الخالق الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء، لا يعني "أن الأخلاق القرآنية أخلاق دينية بمعنى إن رقابتها توجد فقط في السماء، وأن جزاءها فيما وراء الموت، إذ أنها تخول هذه الصلاحيات في نفس الوقت لقوتين مؤثرتين أيضا هما: الضمير الأخلاقي، والسلطة الشرعية، وليس ذلك فحسب، بل إنها تكلف كل فرد في الأمة أن يحول بكل الوسائل المشروعة دون انتصار الرذيلة والظلم.

وهي أيضا ليست دينية، بمعنى أنها لا تجد دافعا إليها إلا في الخوف والرجاء، ولا تجد تسويغها إلا في إرادة عليا تملي على وجه الاستعلاء أوامرها مستقلة عن كل ما يقتضيه العقل، والشعور الإنساني، وهي إرادة يجب على الإنسان أن يطيعها دون مناقشة أو فهم.

---

[1] - سورة الذاريات، الآية 56.

[2] - سورة الذاريات، الآية 56.

[3] - محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن م.س، ص 680.

[4] - سورة القصص، الآية 77.

إنها ليست دينية بهذا المعنى، لأن القرآن لم يزل يدعو إلى هذه المفاهيم الإنسانية على وجه التحديد، لتسويغ أوامره، ومن هذه الوجهة نستطيع أن نقول إنه قد زود تعليمه الأخلاقي بنظام تربوي غاية في الكمال، بحيث يصلح لجميع مراتب الأخلاقية"[1]. هذا النظام التربوي الأخلاقي القرآني يتأسس على خمسة عناصر "الإلزام، والمسؤولية، والجزاء، والنية، والجهد، [و] تلكم هي العمد الرئيسة لكل نظرية أخلاقية واعية بمراميها"[2].

فما رؤية القرآن الكريم لهذه العناصر ؟

9. **الواجب / الإلزام:** "يستند أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم - في نهاية الأمر- إلى فكرة الإلزام L'obligation، فهو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي، والذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته، وفناء ماهيتها، ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسؤولية، وإذا عدمت المسؤولية فلا يمكن أن تعود العدالة، وحينئذ تتفشى الفوضى، ويفسد النظام، وتعم الهمجية، لا في مجال الواقع فحسب، بل في مجال القانون أيضا، وطبقا لما يسمى بالمبدأ الأخلاقي"[3].

والقرآن الكريم كتاب إلزام وتكليف بالنظر إلى كثرة أوامره وتعدد نواهيه ﴿**فاعبد الله مخلصا له الدين**﴾[4]، ﴿**إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري**﴾[5]، ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾[6] ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾[7].

إن الأخلاق القرآنية تتأسس على فكرة الواجب:"ففي نظر هذه الأخلاق ليست اللذة، ولا المنفعة، ولا السعادة، ولا الكمال، ليست هذه كلها بقادرة في ذاتها أن تنشئ هذا المبدأ (التوحيد)، وكل ذلك يجب أن يكون خاضعا لسلطان الواجب بأقدس معاني الكلمة وأكثرها واقعية، وأسماها

[1]- محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، م.س.، ص 676-677.
[2]- المصدر السابق، ص 685.
[3]- المصدر السابق، ص 21.
[4]- سورة الزمر، الآية 02.
[5]- سورة طه، الآية 14.
[6]- سورة البقرة، الآية 21.
[7]- سورة النساء، الآية 29.

درجة"[1]، "والواجب الذي يدعو إليه القرآن الكريم يختلف عن الواجب بمفهومه الكانطي، وذلك في السمات الرئيسة الثلاث التي يرى كانط للواجب، حين يقرر أولا: أن الواجب صوري محض، لا صلة له بتغيرات الواقع والتجربة، وثانيا: إنه منزه عن كل غرض، أي لا يطلب من أجل تحقيق منفعة أو لبلوغ السعادة، وثالثا: قاعدة لا مشروطة للفعل لا يؤسس الواجب على شيء آخر.

فالقرآن الكريم لا يعتبر الواجب صوريا بحثا ليس له صلة بتغيرات الواقع ومفاعيل التجربة، لأنه قد يتغير الواجب، يتأكد أو يتحقق بالنظر إليها، كأن يتحول:"الواجب الكفائي" مثلا إلى "الواجب العيني" والعكس صحيح أيضا.

كما أن الواجب والتكليف القرآنيين ممزوجان بالغاية، وليس منزهين عنها، فتنشأ التكاليف الأخلاقية لأجل غايات كبرى، وإن كان الواجب والتكليف ثابتين في كل الأحوال، فقد تكون التزكية –مثلا- الغاية القصوى ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[2] أو التقوى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ كما أن الواجبات القرآنية ليست واجبات قاعدية محضة - كما هو الحال مع كانط - بل واجبات معللة بأمور أخرى ومؤسسة على غيرها ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[3].

وأهم ميزات الواجب القرآني أنه يقوم على أساس حرية الاختيار، فهو يكلفنا، ولكنه لا يقهرنا ماديا، وإنه يدع لنا أولا إمكان مراعاته أو مخالفته. وتلك هي القاعدة الأصلية التي لا يفتأ القرآن يعلنها، سواء فيما يتعلق بواجب الإيمان، أو بواجب الفضيلة العملية، واقرأ إن شئت هذه الآيات الكريمات ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾[4]. ﴿لا اكراه في الدين﴾[5]. وهكذا يمثل سلطان الواجب بطابعه الخاص الأصيل، فهو لا يقهر الجوارح، ولا يكره المدارك"[6].

إن الواجب القرآني لا يمكن أن يصبح إلينا تكليفا إلا برضانا، لذا فالواجب الذي يدعو إليه القرآن ليس واجبا قاهرا، بل هو واجب مرن يستحضر ظروف المكلفين وطاقاتهم ﴿لا يكلف

[1]-دراز، دستور الأخلاق في القرآن، م.س.، ص 681.
[2]- سورة التوبة، الآية103.
[3]- سورة المائدة، الآية 08.
[4]- سورة النساء، الآية 80.
[5]- سورة البقرة، الآية 256.
[6]- دراز، دستور الأخلاق في القرآن، م.س.، ص 21 وما بعدها.

﴿لا نفسا إلا وسعها﴾[1] ﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها﴾[2] كما يستحضر الغايات الحميدة التي تعود بالنفع على الفرد والجماعة.

10. **النية**: عنصر النية، هو جوهر الأخلاق القرآنية، ويحتل كل الضمير الأخلاقي القرآني، إذ يرتبط بجانب القصد ودافع الإنسان للعمل. ومن تم جاء التأكيد عليه في العديد من الآيات القرآنية ﴿ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[3]. ﴿هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب﴾[4]. وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأعمال لا تقوم ولا توجد إلا بالنيات "إنما الأعمال بالنيات"[5] وقال عليه الصلاة والسلام "ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[6].

ومما يزيد من أهمية النية كعنصر أساسي من عناصر النظرية القرآنية كون الله عز وجل لا ينظر إلى الشكل والمظهر والصور، وإنما ينظر إلى الباطن والجوهر قال صلى الله عليه وسلم "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[7]. فالنية تؤثر بشكل عميق على طبيعة العمل الأخلاقي. إلا أن ذلك لا يعني "أن النية الحسنة هي في ذاتها الحيز الأخلاقي "الخير المطلق بلا قيود" الخير الوحيد في العالم، بل وفيما وراء العالم (كما هو الحال عند كانط) فيلسوف يقودنا ذلك منطقيا لا إلى تسويغ جميع الأخطاء، والضلالات، التي تحدث للضمير فحسب بل إلى أن تتخذ منها قيما مطلقة، ونماذج كاملة من نماذج الفضيلة"[8]. فالنية لا تحول الشر إلى الخير، كما أن الفعل الخير لا يكسب السمة الأخلاقية، إلا بالنية الحسنة، فالنية الحسنة تجلب لصاحبها الأجر

---

[1]- سورة البقرة، الآية 286.
[2]- سورة الطلاق، الآية 7.
[3]- سورة الشعراء، الآيات 87-89.
[4]- سورة ق، الآيتان32-33.
[5]- صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، رقم الحديث 1.
[6]- صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم الحديث 1599.
[7]-صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم الحديث 2564.
[8]- عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص437-438.

على العمل وإن لم يفعله لمانع كالسفر أو المرض، قال عليه الصلاة والسلام:"إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة"[1].

ولأنها شرط أساسي في قبول الأعمال، فالعمل قد يكون في ظاهره صالحا عائدا بالنفع على الفرد والجماعة، ومع ذلك فإن صاحبه لا يؤجر عليه، وإنما يبطل كمن تصدق بصدقة فأتبعها بالمن رياء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كمن ينفق ماله رءاء الناس﴾[2].

بل أكثر من ذلك يعتبره الإسلام على الرغم من ظاهره ونفعه رذيلة يأثم صاحبها ويعاقب عليها، قال صلى الله عليه وسلم:"إن أول الناس، يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه قال فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت بها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال كذبت ولكنك تعلمت العلم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار"[3] وروى النسائي عن أبي أمامة الباهلي قال: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال صلى الله عليه وسلم:"لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا، وابتغى به وجهه"[4]. إن جزاء العامل بحسب نيته، وليس للعامل من عمله إلا ما يعود عليه بحسب نيته نفعا أو ضررا، ويجزى عليه ثوابا أو عقابا، فإن كانت نيته صالحة فعمله صالح وله أجره، وإن كانت فاسدة فعمله فاسد وعليه وزره. فمدار الأمر على هذا يتمثل في مدى صدق النية الموجبة للمثوبة. فالعمل قد يؤدي بصاحبه إلى نتيجة ذلك يؤجر عليه متى كانت نيته حسنة، قال صلى الله عليه وسلم "إذا حكم الحاكم

[1]-صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، رقم الحديث 6126.
[2]- سورة البقرة، الآية 264.
[3]-صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار،رقم الحديث 1905.
[4]- سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، رقم الحديث 3140.

فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فاخطأ فله أجر واحد"[1]. فالعمل – بناء على كل ما سبق- يوزن بميزان النية، والعمل يكسب أو يعدم قيمته الأخلاقية تبعا للدافع الذاتي (النية)، ومن تم على كل امرئ أن ينظر إلى عمله، ولا يتعب نفسه بفعل أو ترك إلا متى أحسنت نيته، وإلا فإنه فاشل في محاولته، وخائب في سعيه، وجزاؤه ضياع مجهوده، ويوم القيامة يظهر ويهتك سره، ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾[2]. وهكذا نجد أن الشرط الأولي للفعل الأخلاقي في القرآن هو وجود إرادة تشرع في العمل ابتغاء وجه الله وامتثالا لأمره ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾[3] "[4].

11. **الجزاء:** هذا عنصر ثالث من عناصر النظرية الأخلاقية القرآنية، لا يقل أهمية عن سابقيه، وله الدور الكبير في دفع الإنسان نحو الالتزام بالأخلاق الحسنة، إذ أن القانون الأخلاقي لابد له من محرك ينظم العلاقات الأخلاقية ويضمن تحقيق هذا القانون فكان الجزاء هو ذلك المحرك. حيث إنه رد فعل القانون على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون، والجزاء في القرآن ثلاثة أنواع:

1. **الجزاء الأخلاقي:** يغلب عليه الشعور النفسي، ودليله السعادة الروحية التي تغمر النفس حين أدائها واجبا أخلاقيا أو الشعور بالنكد حين اقتراف عملا لا أخلاقيا. فقد روى أحمد في مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن"[5]. وقال أيضا "المؤمن يرى ذنبه فوقه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره"[6]. وقوله أيضا "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"[7]. فالجزاء الأخلاقي في القرآن يرتبط بضمير الإنسان أي أن ما يؤلم الضمير فهو قبيح

---

[1]- صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم الحديث 1716.
[2]-سورة الشورى، الآية 20.
[3]- سورة النساء، الآية 114.
[4]- راجع محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، م.س.، ص 432 وما بعدها.
[5]- مستدرك الحاكم، كتاب الإيمان، رقم الحديث 33.
[6]- مسند أحمد، مسند عبد الله بن مسعود، رقم الحديث 3620.
[7]- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والاثم، رقم الحديث 2553.

وما يرتاح له فهو حسن. وهذه بعض الأمثلة، مما ساقه القرآن وأثبت به أن ممارسة الخير والشر في مختلف صورهما تحدث أثرها في النفس الإنسانية:

محاسن الفضيلة:

.12 الصلاة: وهي بالنسبة إلى أولئك الذين يؤدونها بروحها ذات وظيفتين أخلاقيتين: فهي لا تقتصر على كونها ﴿:"تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ ولكن ﴿ولذكر الله أكبر﴾[1] فهي تجلعنا روحيا على اتصال بالمنبع الشامل لجميع الكمالات.

.13 الصدقة: حيث لها أيضا أثر مزدوج الفائدة، فهي "تطهر" النفس حين تصرفها عن حرصها الزائد على الكسب، وهي "تزكي" نضارتها ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[2].

وكذلك سائر الشعائر التعبدية (كالصوم والحج) والأفعال الفاضلة (الكرم، الصدق، العدل...).

قبح الرذيلة:

.14 السكر والقمار: يقدم لنا القرآن الكريم الخمر والميسر بقبح مزدوج، أعني أنهما يزرعان البغضاء والعداوة بين الناس، ويمنعان من ذكر الله ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[3]. والواقع أنه إذا ذهب العقل فأية سيطرة تكون لنا على أنفسنا ؟

وإجمالا نقول: إن الجزاء الأخلاقي الثوابي يتمثل في الحسنة والسيئة أي في كسب القيمة أو خسارتها ﴿:"كلا إن كتاب الفجار لفي سجين... كلا إن كتاب الابرار لفي عليين﴾[4].

.2 **الجزاء القانوني / التشريعي:** حين ننتقل من الناحية الأخلاقية إلى الناحية القانونية، يكون الجزاء الثوابي قد فقد نصف معناه، فهو لا يحتفظ من طابعه المزدوج، الثوابي والعقابي، سوى بالطابع الثاني، والجزاء هنا يعني أساسا (العقوبة) بالمعنى الواسع للكلمة التي تضم الإجراءات التأديبية، والإجراءات العقابية بالمعنى الصحيح على السواء.

---

[1]- سورة العنكبوت، الآية 45.
[2]- سورة التوبة، الآية 103.
[3]- سورة المائدة، الآية 91.
[4]- سورة المطففين، الآيات 7-26.

ويمكن أن نميز في هذا النوع من الجزاء بين مرتبتين مختلفتين، فهناك الجزاءات (العقوبات) التي حددها الشرع بدقة وصرامة وهي التي تسمى بالحدود، وهناك جزاءات (عقوبات) أخرى، تسمى التعزيرات، وهي متروكة لتقدير القاضي. فالمرتبة الأولى: تتكفل بمجازاة عدد قليل من الجرائم، مثل الحرابة، السرقة، الزنا، القذف، شرب الخمر، القتل العمد، أما الجرائم الأخرى فتتبع المرتبة الثانية، وما ميز الطائفة الأولى أن العقوبة فيها محددة تحديدا دقيقا كيفا وكما وذات صبغة مطلقة، والواجب تطبيقها بلا هوادة أو رأفة، فالصرامة في هذا الصدد لا تجعل مجالا أمام أي تنازل أو حل وسط، سعيا لمساواة الجميع أمام القانون قال صلى الله عليه سلم" أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها"[1]. فالهدف من هذا النوع من الجزاء هو تحقيق الأمن والسلام الاجتماعي"[2]، ومن هنا تأتي أهميته ومركزيته في النظام الأخلاقي القرآني.

3. الجزاء الإلهي:

لقد آن لنا أن نتساءل عن طبيعة الجزاء الإلهي، ومجاله، على ما وصفه القرآن. إن الجزاء الإلهي في القرآن يجمع بين الجزاء الدنيوي والأخروي، على عكس التوراة التي تجعل السعادة الموعودة في طيبات هذا العالم، ويحصرها الإنجيل تقريبا في السماء، وبيان ذلك كالآتي:

15. الجزاء الإلهي في العاجلة:

هذا الوعد بالجزاء الإلهي هو في جانب كبير منه ذو طابع أخلاقي، عقلي أو روحي، فالطابع المادي الخالص يمثل هنا، على نقيض المنهج العبراني نسبة تافهة، إن لم يكن كمية سلبية. فالآيات القرآنية التي تقرر وعدا ببعض الخير العاجل قليلة جدا منها ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[3] ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾[4] ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[5]. ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم

[1]-صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحدود، رقم الحديث 6406.

[2]- راجع، عبد الحميد أبو سليمان، الأمن والسلام الاجتماعي هدف نظام العقوبات الإسلامي، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الرابعة، ع 14، ص 167 وما بعدها.

[3]-سورة الطلاق، الآية 2-3.

[4]- سورة الطلاق، الآية 4.

[5]- سورة الأعراف، الآية 96.

ماء غدقا لنفتنهم فيه﴾[1]. وهذا النص الأخير - فضلا على ما ذكر- لا يقدم هذا الإحسان الموعود على أنه مكافأة، بل هو اختبار وفتنة.

وهناك عنصر يمكن إدراجه في الجانب المادي من الجزاء الإلهي في العاجلة يتصل بتأييد جماعة المؤمنين ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾[2] ﴿إن الله مع المتقين﴾[3]﴿"وأن الله مع المؤمنين﴾[4]﴿"واعلم بأن الله مولى الذين آمنوا﴾[5]﴿. "ولله العزة ولرسوله وللمومنين﴾[6]﴿"ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[7]. وأما خصومهم فعلى العكس من ذلك مسوقون إلى الهزيمة وإلى العذاب﴿"قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾[8]﴿"وأن الكافرين لا مولى لهم﴾[9].

وما يمكن ملاحظته من خلال تتبع آيات القرآن الكريم الدالة على الجزاء الإلهي في العاجلة، أن هذا الجزاء قاصرا وليس شاملا وكاملا، وهو ليس في ذلك أكثر من الجزاءات الطبيعية، والجزاءات الإنسانية، فأما أنها ليست شاملة فالله يقول ﴿:"ويعفو عن كثير﴾[10] وأما أنها ليست كاملة، فالله يقول: ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾[11]، ليتوق الإنسان إلى جزاء كامل وشامل ذلك هو:

---

[1]- سورة الجن، الآيتان 16-17.
[2]- سورة الحج، الآية 38.
[3]- سورة البقرة، الآية 194.
[4]- سورة الانفال، الآية 19.
[5]- سورة محمد، الآية 11.
[6]- سورة المنافقون، الآية 08.
[7]- سورة المائدة، الآية 56.
[8]- سورة آل عمران، الآية 12.
[9]- سورة محمد،الآية 11.
[10]- سورة الشورى، الآية 30.
[11]- سورة آل عمران، الآية 185.

16. الجزاء الإلهي في الحياة الآخرة:

فالسعادة الروحية والحسية لمن أحسن في الدنيا وعمل صالحا ينالها بدخوله الجنة ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾[1] ﴿"مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾[2]. والواقع أن ما من إنسان يعلم ما أعد للمتواضعين والمحسنين والذاكرين الله في غالب أحوالهم من مفاجآت جميلة، وإنعام يفوق خيالهم وقد حدث القرآن عن ذلك ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾[3].

وعلى النقيض من ذلك تماما، قد أعد الله للعاصين أوامره في الدنيا، عذابا عظيما في الآخرة بدخولهم النار، وهو عذاب يمكن التمييز فيه بين عقوبات معنوية ﴿فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾[4] ﴿"ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم﴾[5] ﴿اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾[6]. وعقوبات بدنية﴿: "لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا﴾[7]﴿، "ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع﴾[8] ﴿"وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾[9].

هذه هي طبيعة الجزاء في القرآن وهذا هو مجاله وأنواعه، والملاحظ أن القرآن الكريم يغلب الجزاء الأخروي ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم

[1]- سورة البقرة، الآية 82.
[2]- سورة محمد، الآية 15.
[3]- سورة السجدة، الآية 17.
[4]- سورة البقرة، الآية 217.
[5]- سورة البقرة، الآية 174.
[6]- سورة الجاثية، الآية 34.
[7]- سورة النبأ، الآيتان 24-25.
[8]- سورة الغاشية، الآيتان 6-7.
[9]- سورة ابراهيم، الآيتان 49-50.

ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1] ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعلمون﴾[2].

وحين يغلب القرآن الكريم الجزاء الأخروي، فإنه لا يقر ذلك على حساب إرادة واختيار الإنسان للفعل الأخلاقي، بحيث أن أخطر الاعتراضات التي تثار غالبا ضد الأخلاق الدينية بعامة ينحصر في القول بأنها تضرب صفحا عن الضمير، فرديا كان أو جماعيا، وأنها تستمد كل قوتها وكل سلطانها من إرادة علوية خارجة عن طبيعة الأشياء، وأنها تفرض نفسها بخاصة عن طريق الترغيب في التواب، والخوف من العقاب الذي قررته تلك الإرادة العليا[3].

إلا أن هذا النقص في أية حالة من حالاته، لا يمس الأخلاق القرآنية، فالقرآن ما يلبث يعلن أن النفس الإنسانية مستودع قانون أخلاقي فطري، نفخ فيها منذ الخلق ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾[4]. والنبي صلى الله عليه وسلم يأمر كلا منا أن يستفتي قلبه، كي يعرف ما يأخذ وما يدع من الأعمال وما يقبل عليه أو يمسك عنه من التصرفات: "استفت قلبك، البر ما اطمأنت النفس إليه، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر"[5].

كما أنه حين يغلب القرآن الجزاء الأخروي لا يكون بدعا من الرسالات السابقة، فمفهوم الجزاء الأخروي في القرآن، يعتبر عنصرا مشتركا بين جميع الأخلاق الدينية، التي تعترف للناس بحياة أخرى، سوف يجتمع فيها البدن والروح من جديد، بعد أن يكونا قد انفصلا مؤقتا بالموت، يجتمعان ليتلقيا معا ثوابا خالدا، أو عقابا أبديا.

ولا ريب أن هذه هي حال الأخلاق المسيحية، فلقد أجمع الآباء وفقهاء الكنيسة على أن يعلموا عقيدة بعث الجسد، وعقيدة اشتراكه مع الروح في الجزاء، وهما عقيدتان قائمتان على أساس متين من تعليم السيد المسيح، والدعاة، فقد قال يسوع لحواريه "لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها، بل خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس

---

[1]- سورة البقرة، الآية 274.

[2]- سورة الأحقاق، الآيتان 13-14.

[3]- محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص 243 وما بعدها.

[4]- سورة الشمس، الآيات 7-8-9-10.

[5]-سنن الدارمي، كتاب البيوع، باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، رقم الحديث 2438.

والجسد كليهما في جهنم"[1]. وقال أيضا: "يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلي الإثم، ويطرحونهم في أتون النار، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان"[2]. وكثيرا ما صورت نصوص الإنجيل جهنم على أنها:"النار التي لا تطفأ، حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ"[3].

والجنة كانت أقل ترددا في العهد الجديد من النار، وجاء صفاتها تحمل السعادة الحسية لأصحابها بجانب السعادة الروحية "من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله[4] أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجانا[5] لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس، ولا شيء من الحر"[6].

وهكذا نرى الآن رحابة الفكرة القرآنية عن الجزاء، إنها ليست نزعات خاصة لإنسان، ولا آراء شخصية لفيلسوف، ولا رأيا شائعا في عصر، أي عصر، سواء أكان معاصرا للإسلام، أم سابقا عليه، أم لاحقا به، ليس ذلك كله هو ما تعبر عنه هذه النظرية، إذ أنها لما كانت شاملة بفضل غايتها أرادت أن تكون كذلك شاملة بفضل منهجها، ومن تم فإن ما تركه الحكماء الأقدمون منذ سقراط وإبيكتيت وما كتبه فلاسفة العصر الحديث حتى كانط "وجون اسيوارت ميل" وما جاء به القديسون، والأنبياء منذ بدء الزمن، حتى موسى وعيسى، كل مذهب من هذه المذاهب لابد أن يجد في النظرية القرآنية إحدى الصيغ التي يوافق عليها. وما ذلك إلا لأنها تستهدف النفس بكل قواها وفي كل أعماقها، ولأنها تدعو جميع الناس، في جميع الطبقات، ومن جميع درجات العقل[7]، وتضع الإنسان أمام مسؤولياته في إدراك الفرق الكائن بين الحق والباطل، وبين العدل والظلم، وبين الخير والشر.

---

[1]- إنجيل متى، الإصحاح 10، الفقرة 28.
[2]- إنجيل متى، الإصحاح 13، الفقرة 43.
[3]- انجيل متى، الإصحاح 4، الفقرة 43.
[4]- رؤيا يوحنا،الإصحاح 2، الفقرة 7.
[5]- رؤيا يوحنا،الإصحاح21، الفقرة 6.
[6]- رؤيا يوحنا،الإصحاح 7، الفقرة 17.
[7]-محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، م.س، ص 243 وما بعدها.

17. المسؤولية:

وهذا يقودنا للحديث عن عنصر جد مهم في النظرية الأخلاقية القرآنية، يتعلق الأمر بالمسؤولية، ذات الارتباط الوثيق بفكرتي الواجب والجزاء "والواقع أن هذه الأفكار الثلاثة [الواجب، الجزاء، المسؤولية] يأخذ بعضها بحجر بعض، ولا تقبل الانفصال، فإذا ما وجدت الأولى تتابعت الأخريات على إثرها، وإذا اختفت ذهبتا على الفور في أعقابها، فالإلزام بلا مسؤولية يعني القول بوجود إلزام بلا فرد ملزم، وليس بأقل استحالة من ذلك أن نفترض كائنا ملزما ومسؤولا بدون أن تجد هذه الصفات ترجمتها وتحققها في "جزاء" مناسب، فإن معنى ذلك تعرية الكلمات من معانيها"[1].

إن "الالتزام الأخلاقي مستحيل من دون مسؤولية أو حساب، فما لم يكن الإنسان مسؤولا، وما لم يكن محاسبا على أفعاله، يغدو التشكيك لا مهرب منه، فالحساب أو تحقق المسؤولية، شرط لازم للالتزام الأخلاقي والإلزام الأخلاقي"[2].

والقرآن في حديثه عن المسؤولية يحصرها في ثلاثة أنواع:"المسؤولية الدينية، والمسؤولية الاجتماعية، والمسؤولية الأخلاقية المحضة. وإن القرآن ليذكر هذه الثلاثة مجتمعة في هذا النظام في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾[3]. وها هنا بعض الآيات القرآنية التي خصت المسؤولية بالذكر ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾[4] ﴿"فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾[5] ﴿"فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾[6].

"ولو أردنا أن نصوغ قولة تلخص عنصر المسؤولية في شموليته، فلن نجد خيرا من تلك الكلمة المعروفة التي شبه فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كل فرد من بعض وجوهه بالحارس أو

---

[1]- المصدر السابق، ص 136.

[2]- إسماعيل راجي الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية. ترجمة عبد الواحد لؤلؤة .المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1998م، ص134.

[3]- سورة الأنفال، الآية 27.

[4]-سورة الإسراء،الآية 36.

[5]- سورة الحجر، الآيتان 92-93.

[6]- سورة الأعراف، الآية 6.

المدير المسؤول عن خير العاملين معه: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته"[1]، فكل فرد في مجاله مسؤول عن حسن سير الأمور العامة والخاصة التي وكلت إليه[2].

ومما يؤكد عليه القرآن الكريم أن المسؤولية ذات طابع شخصي، لا تحمل مواريث الأصول وعادات الآباء والأجداد ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾[3]. ومما يشترطه القرآن لتحقيق مسؤوليتنا، شرط الحرية في العمل، ومن تم فمن أكره على شيء فإن الله لا يعاقبه عن فعله المكره عليه، حتى وإن تعلق الأمر بعمل الكفر أو النطق به، مع اطمئنان القلب وإيمانه بالله ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[4] ولهذا جاءت القاعدة العقلية "الضرورات تبيح المحظورات". وعليه "يبقى العمل الإرادي للفرد الإنساني المزود بالعقل، الموضوع الدائم، والوحيد للمسؤولية، وتبقى أيضا نية فعل الشر شرطا ضروريا للعقاب"[5].

ومن ثم فالشروط الضرورية والكافية لمسؤوليتنا أمام الله، وأمام أنفسنا هي: أن يكون العمل شخصيا، إراديا، تم أداؤه بحرية (أقصد دون إكراه) وأن نكون على وعي كامل، وعلى معرفة بالشرع أو القانون"[6].

إجمالا "فإن المبدأ القرآني للمسؤولية هو مبدأ فردي، يستبعد كل مسؤولية موروثة، أو جماعية بالمعنى الحقيقي للكلمة"[7].

---

[1]-صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب قوا أنفسكم وأهليكم نارا، رقم الحديث 4892.
[2]- دراز، دستور الأخلاق في القرآن،م.س.، ص 148 بتصرف يسير.
[3]- سورة الأنعام، الآية 164.
[4]- سورة النحل، الآية 106.
[5]- الجابري، العقل الأخلاقي العربي، المركز الثقافي العربي ط.2002م، ص 78.
[6]- دراز، دستور الأخلاق في القرآن، م.س.، ص 222.
[7]- المصدر السابق، ص 242.

18. القدرة والاستطاعة:

أخيرا نشير إلى عنصر - وهو العنصر الخامس والأخير من النظرية الأخلاقية القرآنية - شديد الارتباط بعنصر المسؤولية الأخلاقية، ذلك هو عنصر الاستطاعة أي القدرة على الفعل أو الترك، فلا مسؤولية عن العمل مع عدم القدرة على فعله أو تركه، فكما أن الحرية شرط في المسؤولية، فالاستطاعة شرط لترتيب المسؤولية. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر في آيات عديدة منها ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾[1] ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾[2] ﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها﴾[3]. فبقدر استطاعة الإنسان بقدر مسؤوليته، ومتى استفرغ وسعه في فعل الشيء أو تركه ولم يستطع إنجازه، كان الجزاء الإلهي كأنه فعله، قال صلى الله عليه وسلم "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة ولم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة"[4].

بهذا نكون قد أتينا على بيان أسس النظرية الأخلاقية القرآنية، كما قدمتها لنا آيات القرآن الكريم، كاملة على خير وجه، مستوفية كل العناصر الضرورية لكي تتكون لدينا فكرة دقيقة عن الطريقة التي ينبغي أن نتصور بها معنى الأخلاق: من أين تأتي القاعدة الأخلاقية ؟ وبأي الشروط تفرض نفسها؟ وما النتائج التي تترتب على موقفنا منها ؟ وما المبدأ الذي يجب أن يلهم سلوكنا؟ وبأية وسيلة تنال الفضيلة ؟[5] مما يتأكد معه وجود فلسفة أخلاقية إسلامية واعية بمراميها متفوقة على ما عداها من فلسفات الأرض جميعها.

19. شبهة ورد:

لاحظ بعض المستشرقين أن القرآن لا يعرف شيئا اسمه الضمير في نظامه الخلقي، ومن تم حكموا بضعف الجانب الأخلاقي في القرآن الكريم، واعتبروا الأخلاق القرآنية ليست ذات قيمة، ومن تم فهي لا تصلح لتكون نظاما أخلاقيا يحتكم إليه.

---

[1] - سورة البقرة، الآية 186.
[2] - سورة الأنعام، الآية 152.
[3] - سورة الطلاق، الآية 7.
[4] -صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، رقم الحديث 6126.
[5] - راجع دراز، دستور الأخلاق في القرآن، م.س.، ص 675

والعجيب أن واحدا من أكبر المستشرقين عداء للقرآن هو جولد زيهر، قد رد على هذا الادعاء الباطل، بقوله: "وقد حاول بعض الباحثين التدليل على قلة القيم الدينية والأخلاقية للإسلام بالاستناد إلى حجج ترجع إلى اللغة التي ظهرت بها تعاليمه، فقد قالوا مثلا: إن الإسلام خال من الفكرة الأخلاقية التي نسميها الضمير، محاولين أن يسندوا هذا الزعم بأن اللغة العربية نفسها وسائر اللغات الإسلامية خالية من كلمة خاصة للتعبير تعبيرا دقيقا عما نقصده من كلمة "ضمير". ويعترض جولد زيهر على ذلك مستشهدا بقول القائل: "إن النقص أو الثغرة في اللغة لا يفترض حتما نفس النقص في القلب" ملاحظا أن هناك لغات ليس فيها كلمة "شكرا" مثلا ويتساءل: فهل هذا دليل على أنه لا مكان فيها للعرفان بالجميل، كما يشير إلى رفض الجاحظ لما تردد على لسان بعض معاصريه من أن خلو لغة الروم من كلمة "الجود" دليل على بخلهم. وأن خلو اللغة الفارسية من كلمة "نصيحة" دليل على "الغش الغريزي الذي فيهم" !. ثم يشير جولد زيهر إلى أن المعنى الأخلاقي الذي تفيده كلمة ضمير في اللغات الأوربية يعبر عنه في اللغة العربية بكلمات أخرى في مقدمتها: القلب"[1].

والحق أن ما ذهب إليه جولد زيهير صحيح تماما، فإذا كانوا يطلقون الضمير "ويقصدون به الملكة التي نصدر بها أحكام القيمة التي من طبيعة أخلاقية"[2]. فإن هذه الوظيفة هي أساس الأخلاق القرآنية، وهي من عمل "القلب" فالقلب في القرآن والضمير في الفكر الغربي، وتشهد على ذلك آيات قرآنية عديدة منها: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[3] ﴿"إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[4] ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[5] ﴿"وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾[6].

---

[1]- جولد زيهير، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى بغداد، ط2، د.ت، ص 38، نقلا عن: الجابري، العقل الأخلاقي العربي، م.س.، ص 120-121.

[2]- الجابري، العقل الأخلاقي العربي م.س.، ص120.

[3]- سورة الشعراء، الآيتان: 87-89.

[4]- سورة ق، الآية 37.

[5]- سورة الحج، الآية 46.

[6]- سورة الحديد، الآية 27.

فالقلب بحسب هذه الآيات القرآنية موقع الحس الأخلاقي، فهو ينفعل ويحس بفضائل الأخلاق ومحاسن السلوك، كما يحس برذائل الأخلاق ومساوئ السلوك، فيميز بينهما، فيكون بهذا مساويا للفظ "الضمير" في الفكر الأخلاقي الغربي قائما بدوره. كما يستعمل القرآن كلمة "النفس" بمعنى الضمير، ويميز فيها بين ثلاثة أنواع من النفوس "النفس المطمئنة" مصدر فعل الخير، و"النفس الأمارة بالسوء" وهي مصدر الشر وبينهما النفس اللوامة، التي تلوم صاحبها على تقصيره في فعل الخير، وتؤنبه على فعل الشر، ولا تزال كذلك حتى ترده إلى جادة الطريق وهذا هو المقصود بكلمة "الضمير" في الفكر الأخلاقي الغربي "لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة"[1].

وهناك أحاديث نبوية كثيرة تعتبر "القلب" أو "النفس" مستودع الحس الأخلاقي بنفس معنى "الضمير" في الفكر الغربي منها ما رواه مسلم عن النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:"البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس"[2]، وكذا حديث أحمد والدارمي بإسناد حسن عن وابصة بن معبد قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "جئت تسأل عن البر؟" قلت: نعم فقال: "استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك"[3]، وكذا قوله صلى الله عليه وسلم" ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي: القلب"[4].

إن هذا كله يفيد أن القلب / النفس تقوم في النسق الأخلاقي القرآني بدور الضمير الفردي، كما هو متعارف عليه في أدبيات الفكر الأخلاقي الغربي، ومن ثم فادعاء ضعف الجانب الأخلاقي في القرآن لغياب لفظ "الضمير" ادعاء باطل لا أساس له من الصحة.

تلكم هي الأسس التي تنبني عليها كل نظرية أخلاقية واعية بمراميها. وقد حاولنا توضيح رؤية القرآن لتلك الأسس. وفي محاولتنا هاته لاحظنا كيف أن القرآن وهو يعرض نظريته، يحرص أن

---

[1]- سورة القيامة، الآيتان 1-2

[2]- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، رقم الحديث 2553.

[3]- سنن الدارمي، كتاب البيوع، باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، رقم الحديث 2438.

[4]- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم الحديث 1599.

يثبت لها الصفات والخصائص القادرة على إقناع الآخر المغرم بالحقيقة، وأن ينفي عنها النقائص التي تعيب كل نظرية باطلة أو ذات هدف.

إن القرآن يعلن أن أخلاقه أخلاق:

.20 **شاملة:** لكل مناحي حياة الإنسان، في علاقته بنفسه أو مع خالقه، أو مع غيره من بني جنسه أو مع الكون. فالقانون الأخلاقي القرآني لم يدع للنشاط الإنساني في ناحيته الفردية والاجتماعية مجالا إلا رسم له منهجا للسلوك وفق قاعدة معينة، فمن أخلاق القرآن الكريم ما يتعلق بالفرد نفسا وجسما وعقلا ﴿**ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾[1] ومنها ما يتعلق بالمجتمع في آدابه واقتصاده وفي سياسته وحكمه، ومنها ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير، ومنها ما يتعلق بالكون والحياة ﴿**ولا تبغ الفساد في الأرض**﴾[2] ومنها قبل كل هذا ما يتعلق بحق الخالق الله عز وجل﴿"**وأحسن كما أحسن الله إليك**﴾[3]. لتكون بذلك أخلاق القرآن الكريم مستوعبة لكل مجالات واحتياجات الإنسانية سواء منها المادية أو الروحية، وسواء على صعيد أفراد المجتمع الإسلامي، أو غيره إن اجتماعيا او اقتصاديا أو سياسيا.

21. **عالمية ومتعدية:** فأخلاق القرآن "لا تخص صلاح الفرد الواحد، ولا صلاح الأمة الواحدة، وإنما تبتغي صلاح البشرية قاطبة، بل تبتغي صلاح جميع المخلوقات التي في عالم الإنسان، ذلك أنها ترفع همة الإنسان إلى أن يأتي أفعاله على الوجه الذي يجعل نفعها يتعدى نفسه وأسرته ووطنه إلى العالم بأسره بحيث تكون كل بقعة من العالم وطنا له ويكون كل إنسان فيها أخا له ويكون كل كائن سوى الإنسان نظيرا له في الخلق"[4]. لذا "لا تبيح لجنس ما تحرمه على آخر، العرب والعجم فيها سواء، بل المسلمون وغيرهم أمام أخلاقها سواسية، الربا حرام مع المسلم والكافر، والسرقة حرام لمال المسلم والكافر، والزنا حرام بالمسلمة وغير المسلمة، والعدل واجب مع المسلم وغير المسلم، والعدوان حرام على المسلم وغير المسلم ...، "﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على**

[1] - سورة الشمس، الآيات 8-9-10.
[2] - سورة القصص، الآية 77.
[3] - سورة القصص، الآية 77.
[4] - طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي .ط.الأولى 2000م، ص.158.

﴿ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾"[1] "[2]. "وبهذا تنزهت الأخلاق الإسلامية عن النزعة العنصرية التي اتسمت بها الأخلاق اليهودية والأخلاق القبلية والبدائية على وجه العموم"[3]. فقيم القرآن وأخلاقه، بحكم تصديقه وهيمنته على ميراث الأنبياء والمرسلين ليست خاصة بالمسلم لوحده، وإنما هي منفتحة على سائر الأمم والشعوب.

22. **واقعية:** ومن واقعية الأخلاق القرآنية "أنها لم تفترض في المؤمنين المتقين أن يكونوا ملائكة أولوا أجنحة لا تسول لهم أنفسهم سوءا يوما، ولا يتورطون في أوحال الرذيلة أبدا، كلا إن الإنسان خلق على طبيعة مزدوجة جمعت بين طين وحمإ مسنون وبين نفخة من روح الله، فليس بمستنكر أن يذنب، ثم يثوب، إنما المنكر أن يتمادى في الذنوب ويستمر في الرذيلة والعصيان، لقد أذنب آدم أبو البشر وتاب فتاب الله عليه، ولا غرابة أن يكون بنوه مثله ولهذا جعل القرآن من أصناف المتقين ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾"[4]"[5]. ومن واقعيتها أيضا "أن الله سبحانه وتعالى لا يفرض علينا أي تكليف فوق وسائلنا، ولكن ذلك لا يمنع أنه يحثنا على طاعته، "بكل" ما نملك من "قوانا" ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾[6]. والقرآن يدعو إلى أن نبذل هذا النشاط ونمده على طريق التقدم الأخلاقي الصاعد، وهي دعوة يصوغها في تشبيه مجازي جميل وهو يقول: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ثم يبين حقيقتها﴿"وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾[7]. فالله عز وجل لم يطلب من الإنسان مطلق الكمال، في تمثل أخلاق القرآن، ولكنه طلب منه الصعود في سلمه قدر جهده واستطاعته ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾[8]. ومن المسائل التي تميز الأخلاق القرآنية عن غيرها، وتدل

---

[1]- سورة المائدة، الآية 8.

[2]- يوسف القرضاوي، مدخل لمعرفة الإسلام، مؤسسة الرسالة ط.الخامسة .1422هـ ص 99.

[3]- المصدر السابق، ص99.

[4]- سورة آل عمران، الآية 135.

[5]- القرضاوي، مدخل لمعرفة الإسلام، م.س.، ص 100.

[6]- سورة التغابن، الآية 16.

[7]- سورة البلد، الآيات 11-17.

[8]-سورة الانشقاق، الآية 6.

دلالة صريحة على واقعيتها: وجود القدوة الصالح: ﴿لقد كان لكم في رسول إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكر الله كثيرا﴾[1]. فحياة الرسول صلى الله عليه وسلم الواقعية العملية التي عاشها في تماه تام مع تعاليم القرآن الأخلاقية ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2] تمثل الوحدة القياسية الواجب على كل إنسان الأخذ بها في سعيه إلى تحقيق الهدف الأخلاقي الذي من أجله خلق ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[3] كل حسب جهده واستطاعته. إن حث المؤمنين على اتباع الرسول والتأسي به باعتباره قدوتهم، دلالة على واقعية الأخلاق القرآنية، فبشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾"[4] حافز قوي وعامل محرك لكل إنسان نحو الهدف الأخلاقي. وبهذا تتفوق الأخلاق القرآنية مرة أخرى على نظيرتها اليهودية، فالتوراة دعت إلى التمسك بالأخلاق الحسنة، فحرمت الكذب[5] والرشوة[6] والربا[7] والغش[8] والقتل[9] والسرقة[10] والزنا [11]... ودعت إلى الصدق[12] والعفة[13] والتعاون على الخير[14] والحث على تقديم يد المساعدة للمحتاج[15] ومساعدة الفقير والأرملة واليتيم[16] والدعوة إلى الإحسان[17]. ولكن في مقابل ذلك نجد في العهد القديم نصوصا أخرى أخلت بإطلاقية تلك النصوص وأكدت أن هذه التعاليم

[1]-سورة الأحزاب، الآية21.
[2]- سورة القلم، الآية 04.
[3]- سورة الذاريات، الآية 56.
[4]- سورة فصلت، ا لآية 6.
[5]- سفر التثنية، الإصحاح، 5، الفقرة 11.
[6]-المصدر السابق، الإصحاح 16، الفقرة، 19.
[7]-المصدر السابق، الإصحاح 23، الفقرة 20.
[8]-المصدر السابق، الإصحاح 25، الفقرة 13.
[9]-المصدر السابق الإصحاح 5.
[10]-المصدر السابق، الإصحاح 5.
[11]-المصدر السابق الإصحاح5.
[12]-المصدر السابق، الإصحاح 5، الفقرة 11.
[13]-المصدر السابق، الإصحاح 5، الفقرة 21.
[14]-المصدر السابق، الإصحاح 24، الفقرة 29.
[15]-المصدر السابق، الإصحاح 15، الفقرة 7.
[16]-المصدر السابق، الإصحاح 24، الفقرة 19.
[17]-سفر العدد، الإصحاح 10، الفقرة 29.

ليست للتطبيق والتنفيذ أبدا، وذلك حين نعتت الأنبياء والرسل بأقدح النعوت التجريحية، منقصة من قدرهم متهمة إياهم بالفاحشة، ليمحي المثل الأعلى وتزول القدوة الصالحة ويحكم على كل الأخلاق الفاضلة بالمثالية والتجريدية، لأن خير البشر عجزوا عن تطبيقها، إذ وصف سفر التكوين نوحا بأنه سكر حتى تعرى[1] وأن إبراهيم باع عرضه مرتين[2] وأن لوطا زنا بابنتيه[3] وأن يعقوب كذاب ومخادع[4] وأن يهودا بن يعقوب زنا بزوجة ابنه[5] وأن داود زان وقاتل[6]. هكذا حكمت التوراة بعدم واقعية أخلاقها، عكس القرآن الذي يعلي من شأن الأنبياء والمرسلين ويعتبرهم خيرة البشرية مما يدل على واقعية أخلاقه. لقد استفضنا في الحديث عن هذه الخصيصة (الواقعية)، لأن من أهم الانتقادات التي توجه إلى الأخلاق القرآنية هي المثالية والتجريدية، ومن تم صعوبة تطبيقها، وصعوبة تمثلها مهما كان الإنسان فاضلا. ولقد اتضح لنا بما قدمنا من حجج وبراهين عكس هذا الادعاء.

"ومجمل القول في [القرآن الكريم] أنه يورث الإنسان أخلاقا مؤسسة (بفتح السين المشددة) ومتعدية وشاملة، مما يجعلها أنسب أخلاق للعالم المنتظر، وبيان ذلك أنها، بفضل أساسها الإلهي، تجلب الثقة في هذا العالم، وبفضل تعديها من بعض أفراده إلى الباقي، فإنها تسوي بين حقوقهم وواجباتهم، وبفضل شمولها لجميع الأفعال، فإنها تحفظهم من ظلمهم لأنفسهم أو ظلم بعضهم لبعضهم، وبهذا تكون أخلاق [القرآن] هي الأخلاق الكونية بحق وليس سواها"[7].

في هذه الظروف نستطيع أن نختم محاولتنا هذه قائلين: بالنظر إلى تطلع البشرية لنظام أخلاقي جديد، فإننا نأمل أن تجد في القرآن أنى توجهت قاعدة لتنظيم حياتها أخلاقيا، لأن أدنى ما يقال في الأخلاق القرآنية: إنها تكفي نفسها بنفسها فهي أخلاق متكاملة .

---

[1]- سفر التكوين، الإصحاح 2، الفقرة 2-42.
[2]- المصدر السابق، الإصحاح12، الفقرة 10-20.
[3]- سفر التكوين، الإصحاح 19، الفقرة30-39.
[4]- المصدر السابق، الإصحاح 27، الفقرة12.
[5]- المصدر السابق، الإصحاح 28، الفقرة12-30.
[6]- صموئيل الثاني، الإصحاح 11، الفقرة 1-15.
[7]- طه عبد الرحمن، روح الحداثة، م.س.، ص 159، بتصرف.

استمدادات الأمن الروحي
من خلال سورة الإسراء.

د. لطفي الحضري / ذة.صليحة الطالب

(جامعة محمد الخامس بالرباط)

مقدمة:

نُزِّل القرآن كتابا للعالمين، ومنهج حياة للبشرية، وهدى لكل مؤمن، ولأنه كذلك؛ فطبيعي أن يستمد منه الإنسان عموما، والمسلم خصوصا كل ما يصلح في الحياة، بمختلف مجالاتها الفردية والاجتماعية، وبمختلف أبعادها الروحية والنفسية والمادية.

وبما أن الله عز وجل فصل في هذا القرآن من كل مثل، فيعني ذلك أن مفاتيح العلم متضمنة فيه، وعجائبه لا تنتهي، وكيف لا؛ وقد قال الله عز وجل في كتابه الحكيم: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف/ 104]، فإذن العلم الرباني لا حد له ومفاتيحه هي في القرآن، ولا على الباحث إلا أن يبذل الجهد في محاولة استكشاف هذه المفاتيح واستعمالها لولوج العلم الحق، واستعمالها يكون بإعمال البصيرة والفكر، وتوكله على الله .

في مسيرة التدبر للقرآن الكريم[1]، وقفنا بفضل من الله ومنه على سورة الإسراء؛ لما فيها من عجائب ودرر، فأثار الانتباه والفضول موضوعان من المواضيع التي تتضمنها السورة، وهما: أولا موضوع شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، ثانيا موضوع القرآن الذي ذُكر في هذه السورة مرات عديدة، وهما موضوعان مرتبطان ببعضهما البعض، ستتم فقط الإشارة إلى الأول على أساس إفراده بحثا آخر، أما الثاني، فهو موضوع المقال.

ورد لفظ القرآن بالاسم أحد عشرة مرة في سورة الإسراء، ويزداد العدد بذكره بالضمير، فتميزت هذه السورة عن باقي السور بذلك، وإن كان من المعلوم أن لله تعالى حكم في ورود

[1] موضوع المقال هو خلاصة عملية التدبر مبنية على التفسير.

بعض الآيات في سور محددة، وورودها بترتيب معين، وبمفردات خاصة، فالآيات التي تتحدث عن القرآن في سورة الإسراء مثيرة للانتباه، تدفع إلى التساؤل إن كانت تشير إلى أمر ما؟ لأنها أولا تتحدث عن القرآن، ثانيا لأنها تتراتب بشكل محدد، ثالثا لكونها تشمل أكبر عدد للفظ "القرآن"، كأن المعاني التي تتضمنها الآياتُ متسلسلة، كأنها تنسج بل تُنشئ أمرا مرتبطا بعلاقة المؤمن بالقرآن، علاقة من المحتمل أن تكون منبع استمداده الأمنَ الروحي والنفسي، أمنٌ من شأنه أن يشكل المناعة التي تجعله يتعامل مع مواقف الحياة بشكل صحيح، فما هو الأمر الذي تنشئه الآيات بشكلها المتسلسل؟ وكيف يحدد علاقة المؤمن بالقرآن الكريم؟ للإجابة على هذا السؤال المطروح، تم الاعتماد في البحث على المنهجية التالية:

- o حصر الآيات التي تتحدث عن القرآن في سورة الإسراء، ثم تقسيمها إلى مجموعات.
- o الاعتماد على تفاسير العلماء لهذه الآيات.
- o الاعتماد على مناهج الاستقراء والتدبر، والاستنباط لبعض المعاني التي تتضمنها الآيات.

وقبل عرض الآيات موضوع الدراسة وتحليلها، لا بأس من تقديم تعريف لمفردات العنوان.

الاستمداد: هو طلب المدد، أما الأمن: فهو " نقيض الخوف، أمِن فُلان يأمن أمْنا وأمَنا... وأمَنَةً وأماناً فهو أمِنٌ" (...) وفي التنزيل العزيز: " وآمنهم من خوف"[1].

وفي حديث نزول المسيح: "وتقع الأمنة في الأرض" أي: الأمن، يريد أن الأرض تمتلئ بالأمن فلا يخاف أحد من الناس والحيوان".[2]

وفي الحديث: "النجوم أمنةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماءَ ما توعد، وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون" [3]

جاء في شرح النووي لهذا الحديث: " قوله صلى الله عليه وسلم: "النجوم أمنةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماءَ ما توعد" قال العلماء: "الأمنة" بفتح الهمزة والميم، والأمن والأمان بمعنىً.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثامن، دار الحديث، القاهرة،2003م - 1423هـ.باب الميم، ص 230 .

[2] ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، دار الحديث، القاهرة،2003م - 1423هـ. باب الهمزة، ص 232- 233.

[3] رواه أحمد.

ومعنى الحديث: أن النجوم مادامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم، وتناثرت في القيامة، وهنت السماء، فانفطرت وانشقت، وذهبت.

قوله صلى الله عليه وسلم: "وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون" أي من الفتن والحروب، وارتداد من ارتد من الأعراب، واختلاف القلوب، ونحو ذلك مما أنذر به صريحا، وقد وقع كل ذلك.

قوله صلى الله عليه وسلم: "وأصحابي أمنةٌ لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون" معناه من ظهور البدع، والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك." [1]

ورد أيضا في مفردات ألفاظ القرآن: " أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف(...)والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر(...) وآمن: إنما يقال على وجهين: أحدهما متعديا بنفسه، يقال أمنته، أي: جعلت له الأمن، ومنه قيل لله: مؤمن. والثاني غير متعدٍ، ومعناه صار ذا أمن.

والإيمان يستعمل تارة اسمًا للشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى ذلك: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة/69] (...) وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد/19] (...) قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف/17] قيل: معناه: بمصدق لنا، إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن.[2]

أما كلمة الروح فقد جاء في لسان العرب: "الرُّوح: النفْسُ، والجمع الأرواح (...) والروح: القرآن، والروح: الأمر،(...) وقوله عز وجل: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ قال أبو العباس: هذا كله معناه الوحي، سُمّي روحا لأنه حياة من موت الكفر، فصار بحياته للناس كالروح الذي يحيا به جسد الإنسان؛ (...)

---

[1] النووي محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف(ت 676هـ)، صحيح مسلم بشرح النووي، الجزء 16، كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للأمة. ص78-79.حديث 2531.

[2] الأصفهاني الراغب، ت: 425هـ، مفردات ألفاظ القرآن، تح: صفوان عدنان داوودي- دار القلم، دمشق، ط 5/ السنة: 1433هـ-2011م.ص. 91.92.

وقد تكرر ذكر الرُّوح في الحديث كما تكرر في القرآن ووردت فيه على معانٍ، والغالب منها أن المُراد بالرُّوح الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة، وقد أطلق على القرآن والوحي والرحمة".[1]

ورد في مفردات ألفاظ القرآن: " الرَّوْح والرُّوح في الأصل واحد، وجعل الرُّوح اسما للنَّفَس(...) وذلك لكون النَّفَس بعضَ الرُّوح كتسمية النوع باسم الجنس، نحو تسمية الإنسان بالحيوان، وجُعل اسما للجزء الذي به تحصُل الحياة والتحرك، واستجلاب المنافع واستدفاع المضار، وهو المذكور في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء/85]

وسمي القرآن روحا في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[الشورى/52]، وذلك لكون القرآن سببا للحياة الأخروية الموصوفة في قوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت/64]".[2]

سورة الإسراء:

سورة الإسراء مكية، نزلت في السنة الحادية عشرة من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك قبل الهجرة، فكانت عبارة عن تمهيد للعهد المدني.

من محاور سورة الإسراء الأساسية: العقيدة (التوحيد والتسبيح والتنزيه والعبودية)، وشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم قيمة القرآن، فكانت السورة الوحيدة التي تم فيها ذكر القرآن أحد عشرة مرة، فقد جاء فيها لفظ "القرآن" معرفاً بأل في عشرة مواضع منها: في الآيات التالية: 9، 41، 45، 46، 60، 78(مرتين)،89،88،82، وجاء ذكر القرآن منكراً بدون آل في محل واحد في الآية 106 في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء/106]. وبينت السورة قيمته، وإعجازه والحكم من تنزيله منجما، فتصبح السورة الوحيدة التي يُذكر فيها لفظ القرآن بهذا العدد.

ومن خلال التعريفات المفصَّلة نستنتج النقاط التالية:

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، دار الحديث، القاهرة،2003م - ن1423هـ، باب الراء، ص 290- 291.

[2] الأصفهاني الراغب، ت: 425هـ، مفردات ألفاظ القرآن، تح: صفوان عدنان داوودي- دار القلم، دمشق، ط 5/ السنة: 1433هـ-2011م.ص369.

1. أولا أن الأمن هو زوال الخوف، فيحصُل في النفس، وهو الطمأنينة، ويحصل في الأرض بنزول المسيح عليه السلام، وقد حصل عند الصحابة رضوان الله عليهم؛ بوجود الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم، فلما غاب وقعت الفتن بينهم، والحروب والارتداد واختلاف القلوب، وقد حصل للأمة في دينهم لما كان الصحابة بينهم، فلما غابوا رضوان الله عليهم حصلت البدع والحوادث في الدين والفتن وغيرها من مسببات الخوف ومبيدات الأمن.

.2 ثانيا كلماتٌ مثل الأمن، والأمانة، والأمان، والإيمان لها أصل واحد، وتدور معانيها في مدار منسجم ومتكامل، فالإيمان اسم للشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي تُفرز في الإنسان المسلم - إن عمِل بها - مشاعر الأمن والأمان، والإيمان هو إذعان للنفس على سبيل التصديق، باجتماع ثلاثة عوامل: تحقيق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بحسب ذلك بالجوارح، وهذا المستوى يُشعر المؤمن بالأمن والطمأنينة، والله عز وجل مؤمن لأنه يجعل لنا الأمن، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم أمنة لأصحابه إلا لأنه حمل الرسالة الربانية وبلغها لهم، وحمَّلهم أمانتها، وكذلك الأمر بالنسبة للصحابة مع الأمة، وقس على ذلك، كل فرد ينهل حقيقة من المنبع الصادق القرآن الكريم والسنة المطهرة.

.3 ثالثا كلمة الروح تدل عموما على معنيين، المعنى الأول وهو معنى النفس[1]، وهو الجزء - كما سبق – الذي تحصُل به الحياة، حياة الأجساد من الموت، والمعنى الثاني وهو القرآن؛ الذي هو حياة النفوس والقلوب من موت الغفلة والكفر، فهي معاني شديدة الارتباط، نزل الله عز وجل القرآن الكريم، لتتلقى معانيه كل نفس بشرية تؤمن به وتهتدي، وتحيى به وتستنير؛ علها تصل إلى الاطمئنان، فتكون جالبة للمنفعة دافعة للمضرة بفعل القرآن الكريم، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى/ 49]

4. رابعا لعل سورة الإسراء تقدم منهجا لكل مؤمن يسعى إلى اتخاذ القرآن هدى، ويرتقي بنفسه أو بروحه، بتلقيه لحقائقه ومعانيه، إلى أعلى مراتب الإيمان، كما تُقدم قدوة له وهي شخص الرسول صلى الله عليه وسلم؛ الذي قالت عنه عائشة رضي الله عنها بأنه صلى الله عليه وسلم

[1] لا مجال في هذا المقال للخوض في مدارسة الفرق بين النفس والروح، لأننا في علم النفس الفطري (وهو علم يستمد أسسه من الشريعة، ويستفيد من علم النفس الحديث) نفرق بينها، نقتصر هنا بالمعنى الشامل للنفس والروح الذي هو "الجزء الذي تحصل به الحياة".

كان قرآنا يمشي على الأرض، فالاستهلال الذي اختاره الله عز وجل لسورة الإسراء بعبارة: "سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ" يصف لنا حقيقة الارتقاء، حيث أنعم الله عليه بعد شهود[1] البصيرة بشهود البصر، وهي درجة أُعطيت للنبي صلى الله عليه وسلم، هذه العبارة الكريمة تشكل لُبَّ موضوعات السورة ومدارَها الجوهري، حيث إنها تصف العلاقة بين الرب بمربوبه، وبين المعبود بعابده، علاقة وصلت أوجها في القرب؛ قرب الرسول صلى الله عليه وسلم بربه، وهو الصدق في العبودية، الذي استحق به العبد الصادق العطاء الرباني؛ بأن أُسري به جسدا وروحا ورأى ما رأى من آيات خارقات، فشهود البصيرة هو الذي جعل الرسول صلى الله عليه وسلم ينعم بشهود البصر.

وإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة للمؤمن، فهذا يقتضي أن يتتبع هذا الأخيرخطوات نبيه، ويقتدي به بما ينسجم مع بشريته، فالقلب الصادق يستطيع أن يصل إلى شواهد الحقائق الإيمانية، بالدُّربة على ذكر الله عز وجل ومحبته وتنزيهه وتعظيمه وتوقيره، والحضور المستمر لذلك في قلبه، عندئذ لا محالة أنه يصل إلى الشعور بالأمن والطمأنينة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد/28]، وقال أيضا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه/122]، والضنك هو الضيق الشديد الذي يشعر به الإنسان ببعده وإعراضه عن ذكر الله، وقال تعالى أيضا: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام/126].

نتساءل في ظل ما سبق، عن أحوالنا اليوم، كيف يحصُل أن الشريعة الإسلامية بيننا، والإنسان المسلم في أغلب أحواله معرض للشعور بالخوف والقلق، وفاقد للأمن؛ بلْه أن يرتقي في مسالك الطمأنينة؟ كيف يحصُل والقرآن بيننا، والكثير منا مُصاب بهشاشة نفسية وروحية، ومُعرض بسهولة لاختراقات فكرية وعقائدية قد تضله؛ وبالتالي تضره وتؤدي به إلى الاضطراب والشذوذ؟

[1] "الشهود والمشاهدة هو الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر أو بالبصيرة " .مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص. 465.

الجواب الأساس هو البُعد عن القرآن، لأن القرآن هو الرسالة التي أنزلها الله عز وجل للإنسان، ليريه معالم طريق الأمن والإيمان، وإن حصل وتعامل المسلم مع القرآن فإنه يتعامل معه بالحفظ والتفسير؛ وهذا أمر مهم؛ مُهمِلا بذلك منهج التدبر والتلقي[1].

فكيف يصل الإنسان بنفسه إلى استمداد الأمن والطمأنينة والسكينة من القرآن؟ بل كيف يرتقي بها إلى درجات الشهود وزوال الحجب.

سورة الإسراء تقدم المنهج من خلال الآيات التي تتحدث عن القرآن والتي تم حصرها[2] على الشكل التالي:

1. ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[9]﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [10]
2. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[41] ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[42] ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[43] ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[44]
3. ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[45] ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾
4. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾[46]

---

[1] (تلقي القرآن)، بمعنى استقبال القلب للوحي على سبيل الذكر(...) حيث يتعامل معه العبد، ويتدبره آية آية، باعتبار أنها تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فتبعث قلبه حيا في عصره وزمانه، ومن هنا وصف الله تعالى العبد الذي (يتلقى القرآن) بهذا المعنى، بأنه يلقي له السمع بشهود القلب، قال تعالى:" إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد" ق.37.

أن تتلقى القرآن معناه إذن أن تصغي إلى الله يخاطبك فتبصر حقائق الآيات وهي تتنزل على قلبك روحا، وبهذا تقع اليقظة والتذكر، ثم يقع التخلق بالقرآن، على نحو ما هو مذكور في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لما سئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم، قالت: كان خلقه القرآن. رواه مسلم."

من كتاب: "ميثاق العهد" للشيخ فريد الأنصاري.

[2] تم الاحتفاظ بتسلسل الآيات التي تذكر القرآن كما هو في السورة، وإنما فقط استُخرجت وصُنفت في مجموعات لخدمة غرض البحث.

5. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[70]﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [71]﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[72]﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾[73]﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[74]﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[75]

6. ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[76]﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[77].

7. ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ

8. ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[78]

9. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [79]

10. ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [80]﴿وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[81]

11. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[82]

12. ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[86]﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾[87]

13. ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[88]

14. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [89]

15. ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[94]

16. ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [105]

17. ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[106]

18. ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[107]﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾[108]

بعد استخراج الآيات وحصرها، وتتبعها بالقراءة والتدبر؛ محافظين على ترتيبها الأصلي في القرآن، تم استنباط المراحل التالية:

I. مرحلة الإقلاع وتشمل بدورها مراحل هي:
1. مرحلة تحديد الهدف.
2. مرحلة الاستعداد.
3. مرحلة التطبيق والممارسة.
4. مرحلة الاختبار والتثبيت والصيانة.

II. مرحلة التعمق والفيض وتشمل:
1. مرحلة شهود البصيرة.
2. مرحلة المقام المحمود.
3. مرحلة الصدق.
4. مرحلة الشفاء.

III. مرحلة العطاء والتعليم والتبليغ وتشمل:
1. القرآن: فضل الله على العباد.
2. قيمة القرآن وقدره.
3. مرحلة التبليغ.

IV. مرحلة صدق العبودية وتشمل:
1. مرحلة العلم.
2. مرحلة التسبيح والصدق.
3. مرحلة الخشوع.

مرحلة الإقلاع؛ هي موضوع الدراسة والتحليل في هذا المقال؛ على أساس متابعة الدراسة للمراحل الباقية في مقالات لاحقة بحول الله.

I. مرحلة الإقلاع:

بها يبدأ السالك مسيرة تغييره وارتقائه، وتبدأ ب:

1. مرحلة تحديد الهدف:

مستنبطة من الآيتين الكريمتين: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[9]﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [10].

في الشطر الأول من الآية إخبار بأن "القرآن يهدي"، ولا على الإنسان إلا الاختيار، من هنا تُستنبط المرحلة الأولى من مراحل الارتقاء؛ التي يحدد فيها المؤمن هدفه وهو اعتبار القرآن هدى، يهدي لأقوم طريق وأوضح سبيل[1]، فهي إذن مرحلة إدراك وقناعة وإيمان بالهدف، وهي مرحلة اختيار وقرار والتزام، اختيارٌ للهدف، واختيارٌ للفرد من يصاحب: (المؤمنين والذين يعملون الصالحات) ومن لا يصاحب: (الذين لا يؤمنون).

فما معنى أن يصل الإنسان إلى درجة اختيار للهدف؟ معناه أنه كان من قبلُ في حالة جهل به، وحالة الجهل تبعد الإنسان عن إدراك حقيقة العلاقة به، فينتقل بتحديده للهدف إلى إدراكها، ومن تم القرار بالتعامل معها، ولذلك سُمّيت المرحلة الأولى بمرحلة الإقلاع، لأنها تساعد الشخص على الإقلاع من حالة الجهل إلى حالة المعرفة بالهدف والسير في تحقيقه.

فإذا حدد الفرد هدفه باتخاذ القرآن وسيلة للاهتداء، أو وسيلة للتغيير للأفضل، للتي هي أقوم، ثم سار في سبل تحقيقه[2]، فهذا يعني أنه يعلم حصيلة هذا القرار وهو "الأجر الكبير"، وهذا الذي يوحي به الشطر الثاني من الآية، فإن تأملنا وتدبرنا هذه العبارة فسنجدها زاخرة بالمعاني، فهي تتضمن كل ما سيحصل للمؤمن من رِبْحَيْ الدنيا والآخرة، وهذا ما يخبرنا به القرآن الكريم؛ متناثرا في آياته، فلا علينا إلا استنباطه وتصنيفه ليشكل حصيلة واضحة؛ يضعها الفرد أمامه في

---

[1] في هذا الأمر طمأنة لأمة محمد " فأخبروا بأن في القرآن ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل، ولذلك ذكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة.
التحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور.http://library.islamweb.net

[2] استنباط من القرآن المنهج الفكري والعملي وتحقيقه في الحياة [وإذا تحقق كان بذلك عملا صحيحا وصالحا.

هذه المرحلة؛ ليحفز نفسه على السير في مسالك الإيمان، فالعلم بالحصيلة أو بالنتيجة هو من الأمور التي تعطي القيمة للهدف، وتُحفز على الانخراط فيه، وتُعطي الأمل والطاقة، فإذن هنا يشكل الفرد بُعدَ نظر وإلا فلا قيمة لأي هدف بدون ذلك.

2.مرحلة الاستعداد:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[41] ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[42] ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[43] ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[44]

نلاحظ في الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أن الله عز وجل لم يذكر المفعول به وهو ما صُرف في القرآن، وقد يكون " من كل مثل " ولم يذكر أيضا " لمن صُرف، وقد يكون: " للناس" كما هو الشأن في الآية التي ستأتي لاحقا في السورة[1]، وذلك – حسب تقديرنا – لبيان الغاية الكبرى من كل ما صُرف في القرآن، والتأكيد والتركيز عليها في هذا السياق؛ وهي "التذكُّر"، فليس ما صُرف هو الأهم هنا؛ ولا لمن صرف، بل الأهم لماذا صُرف؟ في مرحلة الاستعداد هذه؛ ننتقي إذن عبارةً واحدةً من كل العبارات الأخرى؛ وهي " **ليذكروا**" لإعطائها الأهمية، لأن عليها سيركز السالك وبها سينطلق عمليا في توجيه ذاته عبر عملية التعلم.

حين نلاحظ أن أهم كلمتين في الآية الكريمة هما: " القرآن" و" ليذّكروا "، نتساءل عن الرابط عمليا بينهما؟ أي بين ما يقدمه القرآن من مضمون وبين النتيجة وهو الذكر، بعبارة أخرى كيف يصل المؤمن لمرحلة التذكر؟ أي إيقاظ القلب من الغفلة، وإحياء النفس من الموت،[2]؟ قال الله عز وجل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص/28] الجواب إذن في الآية؛ وهو التدبر، هذا الأمر ينسجم مع السياق ومع المنطق البنائي لمضمون الآيات موضوع الدراسة، فمباشرة بعد أن يحدد المؤمن هدفه في المرحلة الأولى، وهو أن يتخذ القرآن هدى له، يمر إلى المرحلة التالية ليعرف فيها لماذا اتخذه هدفا، أي الغاية الكبرى والأولى من ذلك:

[1] الآية: ﴿ وَلَقَد صَرَّفنا لِلنّاسِ في هـذَا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكثَرُ النّاسِ إِلّا كُفورًا ﴾ (89)

[2] المقصود هنا هو موت الشرك والكفر.

" ليذكروا "، ويطرح السؤال في مسيرته كيف أصل إلى التذكر؟ فيخبره القرآن بالمنهج الواجب اتباعه وهو أن يتدبر لكي يتذكر، فما معنى التدبر؟

التدبر لغة من" دبر الأمر وتدبره: نظر في عاقبته، واستدْبره: رأى في عاقبته ما لم ير في صدره؛ وعرف الأمر تدبرا أي بأخَرَة (...) والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبتُه، والتدبر: التفكر فيه"[1]

وقد ورد في تفسير الطاهر ابن عاشور رحمه الله: " والتدبّر مشتقّ من الدُّبر، أي الظَّهر، اشتقّوا من الدُّبر فعلاً، فقالوا: تدبّر إذا نظر في دبر الأمر، أي في غائبه أو في عاقبته، (....) والتدبّر يتعدّى إلى المتأمَّل فيه بنفسه، يقال: تدبّر الأمَر. فمعنى (يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) يتأمّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبّر تفاصيله؛ وثانيهما أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنّه من عند الله، وأنّ الذي جاء به صادق"[2].

قال الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله: " فتدبر القرآن وآيات القرآن: هو النظر إلى مآلاتها وعواقبها في النفس وفي المجتمع، وذلك بأن تقرأ الآية من كتاب الله، فتنظر – إن كانت متعلقة بالنفس – إلى موقعها من نفسك، وآثارها على قلبك وعملك، تنظر ما مرتبتك منها؟ وما موقعك من تطبيقها أو مخالفتها؟ وما آثار ذلك كله على نفسك، وما تعانيه من قلق واضطراب في الحياة الخاصة والعامة؟ تحاول بذلك كله أن تقرأ سيرتك في ضوئها، باعتبارها مقياسا لوزن نفسك وتقويمها، وتعالج أدواءك بدواتها، وتستشفي بوصفاتها"[3]

إن كان التدبر إذن هو تأمل دلالات آيات القرآن، بهدف الاعتبار والاتعاظ، أي بهدف النظر لمآلاتها وآثارها في النفس والقلب والعمل، فأول خطوة في النظر والتأمل في آثار الآيات على النفس والقلب، أن نتساءل ما مدى أثرها في عملية التذكر؟ وهنا يتحتم علينا أن نقف وقفة لطرح السؤال: لماذا استُعملت كلمة " ليذكروا "؟ وليس مثلا "ليوحدوا"؟ علما بأن ما سيأتي في

[1] ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث، الأحرف، خ – د- ذ .باب الدال، ص.289. دار الحديث القاهرة، سنة الطبع:2423هـ-2003م.

[2] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير.http://library.islamweb.net/newlibrar

[3] فريد الأنصاري، بلاغ الرسالة القرآنية، دار السلام، الطبعة الثانية، 1431هـ-2010م

سياق الآيات هو مسألة توحيد الله عز وجل، عملية التذكر تقتضي أن يكون قبلها عملية نسيان لأمر ما، قال فريد الأنصاري رحمه الله: " إن ميلاد كل شخص من بطن أمه، ونزوله إلى الدنيا؛ هو كنزول آدم عليه السلام، من الجنة في عالم الغيب؛ إلى الأرض في عالم الشهادة، حيث تبدأ حجب الحياة الدنيا تنسج على الإنسان غلائل النسيان وتغرقه في جزئياتها اليومية، فيضرب بعيدا عن استشراف السماء مرة أخرى، ومن هنا اقتضت رحمة الرب العظيم – وهو الرحمن الرحيم – أن يرسل الرسل إلى الناس، أن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة/20]، إذن أنزل الله عز وجل الرسالات، وبعث أنبياءَ ورسلا، ليُذَكّروا الإنسان بحقيقته، حقيقةٌ تبدأ من لحظة إبرامه ميثاق العهد مع ربه، لحظةَ وجوده الروحي في عالم الذر، ميثاق وإشهاد على نفسه بأن الله عز وجل ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف/172]، وحين أتى إلى عالم الشهادة أتى بهذه الفطرة[1]: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"[2]، لكن ما تفتأ تُحجب هذه الفطرة بنسيج النسيان والغفلة في الحياة الدنيا، فيبتعد الإنسان عن تذكر الميثاق، وتحجب قلبه شباك الكبر أو الكفر أو الشرك، ولذلك كانت " ليذكروا " هي أولى الغايات وكُبراها في اتخاذ القرآن وسيلة للاهتداء، ليذكروا أن يعبدوا الله عز وجل خالق السماوات والأرض وما بينهما، ليحققوا الانسجام مع العهد، والانسجام معه هو الصدق فيه، والصدق فيه هو ما تقتضيه العبودية لله من توحيد، لأنه هو الذي سيضبط كل ما سيأتي من بعد. التوحيد[3] هو العمل الذي استغرق فيه نبينا صلى الله عليه وسلم مدة ثلاثة عشرة سنة لكي يطهر به قلوب جيل الرسالة، ويربّيهم عليه، من هنا نفهم المقصد من الاستعمال الدقيق لعبارة: "ليذكروا" لتتحدد الوظيفة الأولى أو الغاية الكبرى للقرآن ولترسم الطريق للسالك، فهذه المرحلة هي إذن مرحلة وعي، أي استحضار فكري، واستشعار قلبي أن القرآن إنما هو ذكر له، وأن المنهج الوحيد للتذكر هو التدبر في آياته، أول وأهم أمر سيُذكر به في رحلة الهداية هو مسألة

---

[1] نشير هنا إلى معنيين منسجمين من معاني الفطرة وهما المعنى الأول والذي قال به السلف وهو الإسلام، والمعنى الثاني وهو العهد الذي أخذه الله عز وجل من بني آدم حين أشهدهم على أنفسهم: "ألست بربكم قالوا بلى".

[2] رواه الشيخان، أخرجه البخاري(1385) في الجنائز، ومسلم (2685) في القدر.

[3] قال الصاوي" ختم به الأحكام كما ابتدأها إشارة إلى أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها، وهو رأس الأشياء وأساسها، والأعمال بدونه باطلة لا تفيد شيئا. المختصر 2/377 منقول من صفوة التفاسير. ص 154 المجلد الثاني.

التوحيد، إذا تم الوعي بها، وتم الانخراط في العمل فيها، سيصبح الإنسان المؤمن منسجما مع الكون الذي يسبح لله، أي ينزهه من كل شركٍ يجعل الذين لم يؤمنوا بعيدين عن نعمة الذكر، بل يزيدهم موقفهم بعدا ونفورا، فهي منزلة يتماس فيها القلب الغافل الأعمى بالآيات البصائر فتشعل فيه النور، وتدله على الطريق القويم، وهنا تكمن أهمية التعرف على ما يضمره القلب، القلب وعاء، فماذا يحمل هذا الوعاء؟ بماذا يتعلق القلب؟ وما درجة تعلقه؟ هو اشتغال يومي على الوعي بالذات، بالأفكار والتمثلات والمعتقدات التي تنعكس في أعمال وسلوكيات[1]، اشتغال يجعل الإنسان يستعد للمرور إلى المرحلة التالية، فمن الأفضل قبل المرور إليها؛ ضبطها قدر الإمكان لأنها مرحلة تحرُّك لعمليتي التخلية والتحلية، وهي تشكل القاعدة الأساس للمرحلة الموالية لها؛ حيث تثبيت عملية التعلم، هي مرحلة وقع فيها تذكر أن الله خالق المخلوقات وربها ووجب توحيده، وعملية التوحيد هي التي ستوجه وتضبط كل عمليات التعلم التالية.

3.مرحلة التطبيق والممارسة:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[45] ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[46].

بعد أن اتخذ المؤمن القرآن هدى في المرحلة الأولى، وبعد أن أدرك في المرحلة الثانية؛ أن ما صُرف فيه فإنما هو ليتذكر، تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة التدريب والتطبيق في عملية قراءة القرآن.

نتأمل الآيتين المذكورتين أعلاه، ونستخرج منهما ثلاثة مواضيع: موضوع قراءة القرآن، يليه موضوع الحجاب المستور، ثم أخيرا موضوع ذكر الله وحده في القرآن، وسيتبين لاحقا خصوصية العلاقة بينها.

نبدأ بموضوعي قراءة القرآن والحجاب المستور فنلاحظ أمرين في الآية الأولى: الأمر الأول أن اللهتعالى، بدأ مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم [2] بقوله ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وفعل" قرأت"

[1] أهمية الرجوع إلى مفهوم التعلق وكيف يتجسد بدرجات مختلفة في علاقتنا بالله وبالإنسان وبالكون، فكلما كانت درجة التعلق بالله عالية كلما أصبحت درجة التعلق بغير الله معقولة، وارتقى الإنسان في الصدق في العبودية لله.

[2] هذا الخطاب كما نعلم خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولكنه في نفس الوقت خطابا لعموم المسلمين.

هو في زمن الماضي، ولو رجعنا إلى المرحلة السابقة التي نستنبطها من الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ نلاحظ أن فعل " ليذكروا " جاء بصيغة المضارع أو المستقبل، وهذا يوحي أن عملية القراءة تتم بينهما، فعملية القراءة التي بدأت في المرحلة السابقة؛ والتي بها بدأ يحصل التذكر تصل أوجها هنا بتنمية الحجاب المستور، فيتذكر المؤمن أن الله ربه وخالقه، ورب وخالق الخلائق كلها، أي يتذكر ميثاق العهد، ولكن هذا ليس معناه أن التذكر قد وقر وثبت في القلب، الثبات يأتي بالتكرار والاستمرار، وهنا يكمن الهدف من هذه المرحلة. الأمر الثاني أن فعل " قرأت" مسبوق ب "إذا" التي هي ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط ومتعلّق بالجواب: " قرأت"، وفعل "جعلنا " جواب شرط، ومن هنا نستخلص أن سياق الجملة يوحي أنه لا يُجعل الحجاب المستور بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الذين لا يومنون إلا بقراءة القرآن فهو إذن رهين بعملية القراءة.

فما القراءة إذن ؟

ورد في لسان العرب: " قرأ القرآن: التنزيل العزيز (...) قرأه، ويقرَؤه، ويقرُؤه (...) قرْءا وقراءة وقرآنا (...) فهو مقروء (...) ومعنى القرآن معنى الجمع، وسمي قرآنا لأنه يجمع السور، فيضمها.

قرأت الشيء قرآنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض، (...) وسُمّي القرآن لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضا إلى بعض"[1]

كما ورد في مفردات ألفاظ القرآن في شرح قوله تعالى:" ﴿إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ [القيامة/ 17-18] قال بن عباس: إذا جمعناه وأثْبتناه في صدرك فاعمل به، (...) وقال بعض العلماء: " تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعا لثمَرة كتبه" بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿وتفصيل كل شيء﴾ [يوسف/111]. وقوله: ﴿تبيانا لكل شيء﴾ [النحل/8] و﴿قرآنا عربيا غير ذي عوج﴾ [الزمر/ 28]، ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس﴾ [الإسراء/ 78] أي قراءته (...) وتقرَّأْت: تفهمت، وقارأْته: دارسته"[2]

[1] ابن منظور، لسان العرب، باب القاف ص 283.
[2] مفردات ألفاظ القرآن ص 668.

والقراءة نطق بكلام معين مكتوب أو محفوظ على ظهر قلب "[1]

نستنتج مما سبق ذكره في التعريف اللغوي للقراءة أن لها معان الجمع والضم، ومثلُه تعريف قراءة القرآن؛ له معاني ودلالات الجمع؛ منها: جمعُه لثمرة كتب الله، وجمعُه وضُمُّه للآيات وللسور، وجمعُه للعلوم، وجمعُه للقصص والأوامر والنواهي والوعد والوعيد، وقد جمع الله عز وجل القرآن في صدر الرسول صلى الله عليه وسلم، ومكَّنه من فهم معانيه ومقاصده، وأقدره على تعليمه وتبليغه.

استنادا على ذلك نقول: إن القرآن بما أنه يجمع ثمرات الرسالات السابقة، بل هو الرسالة الخاتمة لها، المتضمنة لهداية الإنسانية، ويجمع العلوم كلها، وهو تبيانٌ وتفصيلٌ لكل شيء،

فينبغي أن يكون المصدرَ الأول للبحث والمعرفة، لكل مسلم بل لكل إنسان، بينما إذا تأملنا حالنا اليوم فنحن نعيش فصالا شبه تام بين القرآن وتعاليمه؛ وبين ما نعيشه في الواقع؛ بمختلف مجالاته الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية وغيرها، بل يغلب علينا طابع الجهل؛ وإن تعلمنا نتعلم عموما من العلوم الكونية غير المضبوطة بالعلوم القرآنية، ونمارس أعمالنا ومهننا وفق مناهج مغتربة، ومذاهب وإيديولوجيات دخيلة، ولذلك فقدنا الانسجام ليس فقط مع الفطرة بل مع الكون كله، وترتب على كل ذلك حالات الفساد والإفساد التي تفشت في عصرنا الراهن والتي- في تقديرنا - تنطبق عليها الآية الكريمة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم/40]، وحالات الخوف والاضطراب الذي تشهده مجتمعاتنا، ولذلك يتحتم علينا الرجوع إلى المنطلق القويم؛ وهو القرآن الكريم، تلاوة وحفظا لآياته، ومُدارسة واستكناها لمعانيه، وتدبرا واستنباطا لمقاصده، وتطبيقا وعملا بأحكامه، وذلك لإعادة الحياة والحيوية في شرايين مجتمعاتنا المريضة[2]، كما أعادها الرسول صلى الله عليه وسلم للإنسانية في عصره، بتعلمه القرآن وتعليمه للصحابة رضوان الله عليهم، الذين بدورهم أخذوا أمانة التبليغ والتعليم للعلوم المستنبطة من القرآن، حتى أخذها منهم التابعون وتابعوهم، وهكذا توالى الأمر إلى أن أصبح ربوع الكون يستنير بأنوار علوم القرآن من تصانيف في التفسير، والقراءة، والإعجاز، والناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، والمحكم والمتشابه، ومن علوم

[1] التحرير والتنوير .الطاهر بن عاشور . المجلد 15. الجزء 30.ص 435

[2] رغم الأمراض المتفشية نتفاءل دائما خيرا لأن الله عز وجل وعد الأمة الإسلامية بالتمكين مستقبلا، ولأننا نرى بوادر خير في أفرادها، بقي أن نعمل بالأسباب لتحقيق معنى الاستخلاف من جديد.

كونية مضبوطة بالقرآن من فيزياء ورياضيات وطب وفلك، وعلوم إنسانية، نفسية، واجتماعية، وتربوية، واقتصادية وسياسية وغيرها، إلى أن تجمع ركام علمي كبير من العطاء منبثقٌ من هذا الكتاب المعجز، ابتداء من القرن الإسلامي الأول، مرورا بأوْجِه في القرنين الرابع والخامس، إلى القرن التاسع، إلى منارات في القرن الرابع عشر، إلى بعض الإشعاعات في عصرنا الحالي.

إن ربطنا ما سبق ذكره بالخطاب الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم بالآية: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، فذلك يعني أن مرحلة التدريب المستنبطة منها هي مرحلة تعلم السالك؛ من المنبع القرآني، هي مرحلة فهم وتدبر، واستنباط للمعاني والحقائق الإيمانية؛ التي يتضمنها القرآن، مرحلة دراسة ومدارسة للمناهج والموضوعات التي يقدمها القرآن للإنسان، بكل مجالاتها النفسية والتربوية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، ووضع الخطط لتحقيقها على صعيد الواقع المعيش، مرحلة القراءة هذه هي مرحلة التراكم المعرفي، هي مرحلة نشاط يحرك العقل والقلب، يطهرهما، ويشحذهما لاستقبال سلس ومتواصل لأنوار القرآن؛ فتتلقى النفس التوجيهات السامية والعلم الحق، فهي مرحلة التحلية بامتياز، مرحلة التراكم المعرفي الذي سيحدد ويضبط الأفكار والمعتقدات، والأقوال والسلوكيات.

نشير هنا أن الجسد وخاصة الدماغ هو مما سخره الله عز وجل للإنسان؛ لكي يقوم بعملية التعلم، فلولا نعمة الدماغ لما استطاع الإنسان أن يتعلم، وملايير الخلايا العصبية ليست إلا جنودا مجندة للإنسان، منوطة بوظائف التعلم، وبعديد من النشاطات الذهنية التي تساعد عليه، من انتباه وإدراك وتفكير وحفظ في الذاكرة، يتم تلقي المعلومات من القرآن، وتتم معالجتها، وترسيخها وتوظيفها في التعامل مع العالم الخارجي، فإدراك كيفية اشتغال الدماغ ووظائفه هي بالأهمية بمكان في عصرنا اليوم لكي نحسن تدبير عملية التعلم، لكن إذا لم يتم الوعي بأهميتها وطريقة اشتغالها في استقبال المعلومات، ومعالجتها، وترسيخها، واستدعائها، وتوظيفها، قد تُستخدم لا شعوريا في غير المنفعة.

في هذه المرحلة تتجمع المعلومات والمعارف عند السالك، وتتوضح الرؤى والتصورات في ذهنه، ويترسخ الإيمان في قلبه، وتضبط العقيدة أنماط تفكيره وسلوكه، فتثبُت المعتقدات والمفاهيم، ويثبتُ معها التعامل مع العالم الخارجي، حتى إذا حصلت الفتنة يسر الله في الثبات، والأمر

واضح في الآية الكريمة أعلاه، أن الشرط الوحيد لتنمية المناعة[1] (التي هي الحجاب المستور) هو قراءة القرآن، والمناعة تعطي الثبات، ولا مناعة أكبر وأمتن من المناعة التي نستمدها من قراءة القرآن الكريم.

فما الحجاب المستور المنوط بقراءة القرآن؟

الحجاب لغة من "حجب الشيء يحجُبه حجبا وحجابا وحجبه: ستره" والحجاب: الستر، وهو اسم ما احتُجب به، وكل ما حال بين شيئين" [2]، أما اصطلاحا ف" الحَجْب والحجاب: المنعُ من الوصول"[3].

مستورا لغة من "ستَر الشيء يستُره ويَستِرُه سَتْرا وسَتَرا: أخفاه" "وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ قال أهل اللغة: مستورا ههنا بمعنى ساتر"[4]، أما اصطلاحا ف" الستْر: تغطية الشيء، والاستتار: الاختفاء"[5].

الحجاب هو حاجز، ومستور قد يعني مخفي وقد يعني ساتر.

يقول القرطبي في تفسيره للآية: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله تعالى عنها قالت: لما نزلت سورة (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ) أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهى تقول:

مذمما عصينا

وأمره أبينا

ودينه قلينا

---

[1] سنرى لاحقا أن من معاني الحجاب المستور قد تكون المناعة.

[2] ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، الأحرف، ج - ح .باب الحاء، ص.325. دار الحديث القاهرة، سنة الطبع:2423هـ-2003م.

[3] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تح. صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة، سنة الطبع: 1433هـ- 2011م. ص. 219.

[4] ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، الأحرف، ر- ز - س .باب السين، ص.490.

[5] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص.396.

والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها لن تراني" وقرأ قرآنا فاعتصم به﴿﴾كما قال. وقرأ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾. فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا أبا بكر، أخبرت أن صاحبك هجاني! فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها.

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: لما نزلت (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر: لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما يؤذيك، فإنها امرأة بذية. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه سيحال بيني وبينها" فلم تره. فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك! فقال: والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله. فقالت: وإنك لمصدقه، فاندفعت راجعة. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، أما رأتك؟ قال: "لا. ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت"[1].

ننتقي مما سبق: عبارة "وقرأ قرآنا فاعتصم به" ثم "إنه سيحال بيني وبينها" ثم "ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت " فنستخلص من القصة معنى للحجاب المستور: وهو البُعد المادي الذي يُترجم في حجب الرؤية بمعنى البصر، أي أن القرآن الذي قرأه صلى الله عليه وسلم عصمه من أن تراه أم جميل وتؤذيه؛ مع أنه كان موجودا بالمسجد.

لكن قد نستمد معنى آخر من سياق الآيات أعلاه، وهو البعد المعنوي للحجاب المستور، وهو ينسجم مع السياق أيضا، أي أن ما يُقرأ من القرآن، وما يُفهم، وما يُتعلم منه، يشكل مع الدُّربة مناعة أو عصمة للمؤمن من تأثير معتقدات أخرى غير صحيحة؛ قد تؤذي الفهم، وهذا الذي سنراه لاحقا في تحليل الآية: ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴿...﴾ لولا أن ثبتناك﴾.

الحجاب المستور له إذن معنيان: المعنى المادي؛ وهو الذي تشير إليه القصة، وقد يحصُل بحفظ الله عز وجل لكل مؤمن، أن يسخر له ملائكة تحجبه من أعين المؤذين، والمعنى المعنوي؛ أي حفظ الأفكار والمعتقدات السليمة النافعة من تأثير الأفكار والمعتقدات الباطلة الضارة.

[1] تفسير القرطبي http://www.al-eman.com

إضافة إلى ذلك نرجح أن الحجاب المستور يتعلق بالمؤمن، وأنه شيء إيجابي، يستره ويحفظه من الاختراق، أي يشكل مناعة وحصانة له، وبالنسبة للكافر؛ أكنة ووقر مانعة له من وصول أنوار الحق، ودليل ذلك سياق الآيات من جهة: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾، هنا نلاحظ أنه استنادا على معنى الشرط، فإنه إذا قُرأ القرآن يُجعل الحجاب المستور عند المؤمن بقراءته للقرآن، وفي مقابل ذلك بالنسبة للكافر؛ تقول الآية التالية: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾،أي جواب شرط ثاني؛ أنه إذا قرأ القرآن يجعل الأكنة على القلوب والوقر في الآذان، ولم يذكر الحجاب المستور، هذا يعني أن أثر قراءة القرآن تختلف باختلاف موقف الفرد اتجاهه، إما حجاب ساتر وحافظ، وإما أكنة ووقر، فالأثر على المؤمن، الإقبال عليه وتلقي معانيه، والأثر على الكافر النفور والإعراض، وهذا الذي تبينه الآية: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ كما تبينه آيات متناثرة في القرآن ومنها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف/56]، وعليه فإن الحجاب المستور يشكل المناعة النفسية والروحية بالنسبة للمؤمن؛ التي تحفظ له الأمن العقدي والفكري والعاطفي والسلوكي، والذي يُتمَّى بقراءة القرآن، وبالنسبة للكافر؛ الشيء المانع له من وصول أنوار القرآن؛ هو الأكنة في القلوب والوقر في الآذان.

من جهة أخرى في القصة أعلاه، صيغ العبارات مثل: "إنها لن تراني" و"وقرأ قرآنا فاعتصم به" و" لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما يؤذيك" ثم "إنه سيحال بيني وبينها» ثم "ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت، فإنها امرأة بذية" هي عبارات توحي على أن الستر هو للرسول صلى الله عليه وسلم، يستره ويحميه من رؤية أم جميل وإيذاءها.

السؤال الذي يُطرح: ممّاَ يتكون الحجاب المستور؟

من خلال التجربة والممارسة في العلاج النفسي، تشكلت لدينا رؤية عن مفهوم الحجاب المستور، وذلك قبل أن يتم التدبر في سورة الإسراء، واستنباط هذا المعنى منها، كنا نسميه " الحاجز المخفي" "Barrière cachée" وهو يعني: المناعة بالنسبة للمؤمن التي تحميه ضد الاضطرابات والأمراض على المستوى الروحي، وبالنسبة للإنسان عموما تحميه ضد

الاختلالات والأمراض النفسية، كما الجهاز المناعي هو يحمي الجسد ضد كل ما من شأنه أن يخترقه من فيروسات وجراثيم. الحاجز المخفي بالنسبة للإنسان يتكون عموما من فكره، وتصوراته، وقناعاته، ومعتقداته، ومواقفه، وتوجهاته؛ بالطبع الإيجابية والصحيحة؛ التي تقوي مناعته وتعطيه التماسك والتوازن النفسي، وتحميه من التأثيرات السلبية للعالم الخارجي، وبالنسبة للمؤمن - ونستنبطه هنا من سورة الإسراء بالذات- هو كل المعاني والحقائق والأحكام التي يستمدها بقراءة القرآن ومدارسته وتدبره؛ والتي تحدد وتضبط معتقداته وأقواله وأعماله، وأي مناعة أكبر من المناعة التي يمدنا بها القرآن الكريم؟ مناعة الأمن والإيمان، ولا أدل على ذلك الشطر من الآية: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾، الفعل الماضي: "ذكرت" توحي بأن الذكر توضح وترسخ وثبت، وأن التعلم من القرآن قد وصل إلى ما يكفي ليتشكل الحجاب المستور، و" ربك في القرآن وحده" تعني أن كل المعتقدات والأقوال والأفعال للمؤمن لا تُضبط بالطبع إلا بأول غاية لما صُرف في القرآن وهي "ليذكروا"؛ أي معرفة الله عز وجل وتوحيده.

الحجاب المستور عند المؤمن؛ تقابله الأكنة والوقر عند الكافر، ومن هنا يعرض الله عز وجل الفئتين المتقابلتين: فئة تقرأ القرآن وتتذكر ميثاق العهد، فتنمي الحجاب المستور وتنسجم مع فطرتها، وفئة لا تقرأ القرآن، وتنسى ميثاق العهد، فتبتعد عن المعتقد الصحيح، والتفكير السليم، وما الذي يجعلها تبتعد إلا أنها كونت معتقدات وتصورات وأقوالا استغنت بها، وأبعدتها عن ضوابط الوحي، فانخرمت فطرتها. المعتقدات الضارة والفاسدة – حسب تقديرنا - هي التي تتشكل أكنةً على القلوب، وتبعا لها الوقر على الآذان، فهي الحواجز أو الحجب التي تجعل هذه الفئة لا تستقبل ولا تنصت إلى صوت الحق، بل يكون سلوكها النفور والإعراض، ولنا في القرآن من الأمثلة ما لا يعد ولا يحصى على ذلك.

الوصول إلى تمية الحجاب المستور لا يعني أنه بهذه المرحلة من الارتقاء قد وصل السالك إلى مناعة غير ممددة باختراقات، بل منطق الحياة الدنيا هو منطق المواجهة الدائمة بين الخير والشر، بين الإيجابي والسلبي، بين الحق والباطل، بين النافع والضار، ولذلك وجب إدراك هذه الحقيقة، وعدم الاطمئنان التام، بل العمل على صيانة المناعة باستمرار، والحذر من أي تهديد خارجي من شأنه أن يزلزلها ويخترقها فتحصل الفتنة، وهذه سنة كونية ربانية مر بها الأفراد والمجتمعات على مر التاريخ، وواجهتها الأمة الإسلامية وما تزال، وهذا ما سنراه في المرحلة التالية المستنبطة من قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴿...﴾وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾

4.مرحلة الاختبار والتثبيت والصيانة:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[70]﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [71]﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[72]﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾[73]﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[74]﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[75]﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[76]﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[77].

في مستهل هذه المجموعة من الآيات تذكيرٌ بتكريم الله للإنسان، والتكريم عموما هو تكريمٌ بالخلق وتكريمٌ بالإمداد، وهو تفضيلٌ عن باقي المخلوقات، فما العلاقة بين هذا وما سيأتي من الآيات؟ لماذا يُخبرنا الله عز وجل في هذا السياق بالتكريم ويورد مباشرة الآيات في الفتنة والتثبيت؟ حسب تقديرنا لكي يذكّر الإنسان بحقيقته، أنه بالفطرة مرتبط بالله أي بمقتضى العبودية، وهذا هو التكريم الأسمى؛ لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنه عز وجل، هو الضعيف للقوي وهو الفقير للغني، لو استغنى ابتعد عن فطرته، وبالتالي فُتن وتاه في الضلال عن الحق، الاستغناء عن الله يكون بكل شيء: بالعلم، وبالمال، وبالجاه، وبالبنين، وبالعلاقات، وبالجمال وغير ذلك، فكيف يستغني الإنسان بالخلق عن الخالق؟ وعليه فلا فرق بين الإنسان الكافر والعبد المؤمن إلا مسألة استحضار هذه الحقيقة: الارتباط بالخالق وحده، والعمل وفقها، والانسان مهما استغنى يبقى ضعيفا فقيرا لاحول له ولا قوة إلا بخالقه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام/164]، هي دعوة إلى الوعي بذلك، وبين الكفر والإيمان مستوياتٌ هي بين الموت والحياة، وبين الغفلة واليقظة، وبين النسيان والتذكر، فالعبد المؤمن بإيمانه يتذكر ويجدد العهد في قلبه؛ حيث إن درجة تجديد العهد منوطة بدرجة الإيمان في القلب، ودرجة الإيمان منوطة بقدر استمداد العلم من القرآن، أي استحضار ميثاق العهد في الدنيا؛ وفي كل لحظة؛ مع الذي كرمه وفضله وأمده وذلك بتمسكه بالقرآن: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف/170] وبذلك يحمي نفسه من الضلال. المشهد التالي يُخبرنا عن مآل الفئتين التي

تستجيب لدعوة الله في الدنيا والتي لا تستجيب: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [71]﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[72]، لو تخيلنا هذا المشهد؛ وتساءلنا كيف يكون الإنسان بصيرا وكيف يكون أعمى؟ سوف نُدرك أن من أوتي كتابه بيمينه، هو من أبصر آيات الله في الدنيا، وأنار طريقه إلى الله بها، أي عمِل وفق حقيقة ارتباطه بالله، وذلك باتباعه المنهج القرآني، ألم يقل الله عز وجل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[الأنعام/105]؟ فآيات القرآن بصائر، أي" براهين قاطعة، وأدلة ساطعة، على أن الله هو المعبود وحده، وأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق"[1]، فهي إذن منارات تدل على الطريق السالكة إلى الله عز وجل ، من سلكها اطلع على حقيقة الوجود، وتعلم من العلم الحق، ومن أعرض عنها فقد اختار العمى فهو كذلك في الآخرة بل أضل، وبالتالي كل ما نستمده من رسالة الله عز وجل لنا؛ ألا وهي القرآن، وكل ما نجمع من علوم منه في صدورنا ومؤلفاتنا، هو منبع مناعتنا إن اتبعناه، وهو مناط تجديد العهد في القلب، وسبب التثبيت من الله عز وجل ، وهو الذي سنؤلف به كتاب كل فرد منا يوم القيامة، غير أن الإنسان المؤمن معرض للفتنة، فإن كان شخص الرسول صلى الله عليه وسلم هو محور سورة الإسراء عموما، ومحور الآيات هنا خصوصا، فلأنه القدوة للإنسان وللمؤمن، لكي يتأسى به ويتبع طريقه، وهو صلى الله عليه وسلم معصوم من الله عز وجل، وهو الذي نزل جبريلُ عليه السلام القرآنَ على قلبه، وقالت فيه عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن"، ومع كل هذا كاد أن يُفتن للحظة، عن الذي أُوحي إليه لولا أن ثبته الله، قال عز وجل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾[73]﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[74]،فكيف بالمؤمن؟ المؤمن معرض في كل لحظة للضعف، فلا ضمان البتة أن يتوكل على نفسه ولو طرفة عين، لا يدخل ذلك في صلاحية فطرته، قال عز وجل: "﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت/1].

[1] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجنكي الشنقيطي، دار الفكر، سنة النشر: 1415هـ / 1995م
http://www.islamweb.net/newlibrary

إلا أن الفتنة درجات: فتنة تؤدي إلى الخطأ وفتنة يأتي بعدها الثبات، وهنا الفارق الذي يصنع فارقا، هذا الأمر منوط بقدر الإيمان في القلب، بعبارة أخرى بقدر الارتباط به عز وجل، فمهما استحضر المؤمن عبادة الله كأنه يراه، يبقى إنسانا تشوبه شوائب النقص والفقر، وليس المشكل في أن يُفتن مادام يثبُت بإذن الله، لأنه أمر طبيعي، وهذا الذي ترمز إليه القصة هنا في الآيات: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴿...﴾وَلَولا أن ثَبَّتناكَ﴾، وقس عليها كل القصص التي حدثت وتحدث للمؤمنين الذين يثبتهم الله: **قال تعالى** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم/29]،وإنما المشكل في الفتنة غير المقرونة بالثبات، وهو مناط ابتعاد الإنسان عن الله، وهذه الفتنة هي التي يُخاف على المؤمن والأمة منها، هذا الذي يشرح – حسب تقديرنا - ورود آية التكريم قبل آية التثبيت، آية التكريم تذكيرٌ للسالك؛ ولا سيما في هذا السياق، أن يوثق العقد في الدنيا مع الذي كرمه وفضله وأمده؛ وأن لا يوثقه مع أي كان؛ وخاصة إن كان أعمى البصيرة، ومهما علا شأنه في تصوره، فهو سيبقى في حقيقته أعمى البصيرة في الدنيا وأعمى وأضل في الآخرة، فكيف يتأثر به ويتبعه؟ كيف يَسمح الذي يمتلك بصائر القرآن بالضعف أمام أعمى البصيرة؟ ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف،28]، كيف نسمح لأنفسنا – باعتبارنا أفرادا منتمين لأمة مسلمة – بالضعف أمام من هم لا يملكون نفعا؟ كيف نتأثر بمن استغنوا بأنفسهم عن الخالق الممد؟ الفتنة هي أن ننفتح ونصغي ونتأثر بهم ونتولاهم؛ وهذا دافع قوي لسلوك الانحراف والزيغ عن الصواب، وهو الأمر الذي يقع لنا حاليا ولشبابنا في ظل ما أصاب كيان الأمة من فتن، ونشهده من خراب، ومن هنا ندرك أنه مهما تعلمنا فنحن قابلين أن نُختبر فيما تم تعلمه من الوحي، قد تحصل الفتنة، قد تطرأ مثيرات سلبية من العالم الخارجي وتكون بالتالي القابلية للتعرض للخطأ.

مقتضى منزلة الاختبار والتثبيت والصيانة؛ أن يقوم السالك فيها بعملية تقييم لمدى مناعة ما تشبع به من علم قرآني، من أفكار ومفاهيم، ورؤى ومعتقدات، هذا العلم الذي وفقه الله عز وجل في تحصيله هو سبب ثباته في حالة الفتن، واعتصامه بحبل الله، وقد كان هذا ديدن الأنبياء والرسل والمصلحين، عبارة " يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ " القول الثابت يبتدئ من كلمة "لا إله إلا الله" إلى كل كلمة تعكس معتقدا سليما وفكرا منسجما مع رسالة الله عز وجل للإنسان؛

المتضمنة في كتاب الله: "القرآن"، فما العلم إلا معاني ومفاهيم تصبح معتقدات وتصورات تحدد مواقف الإنسان في الحياة، مواقف لا محالة تتحقق في السلوك، وأي علم أحق وأمنع، أكثر من العلم الذي نستمده من القرآن، وهو العلم الذي أوتي الرسول صلى الله عليه وسلم، وعصمه الله عز وجل به وثبته، ومن هنا نفهم العلاقة بين التكريم بخلقه على الفطرة والتكريم بإمداده بالقرآن، وهي العلاقة التي يعكسها التسلسل بين آية التكريم وآية التثبيت في حال الفتنة.

الفتنة هي إذن اختبار لمناعة العلم الذي تعلمه السالك، ومؤشر لمدى الثبات عليه وعلى متعلقاته من أقوال وأفعال، فإن وصل الفرد بتوفيق من الله إلى مستوى الثبات رغم الفتن والمثيرات السلبية؛ فليس معناه ألا يصونه ويحافظ عليه، ولذلك شرع الله عز وجل كل أنواع العبادات من قراءة دائمة للقرآن، وصلاة، وحج وغيرها؛ للاستمرار في شحذ القلب للتلقي المستمر لأنوار الحق، والاتصال المتواصل بمنابع الأمن.

بهذه المرحلة يكون السالك قد وصل إلى مستوى يتجاوز فيه الذات؛ إلى أبعاد أخرى أعلى وأسمى ومنها خدمة الآخر، وهي من الأهداف الكبرى في حياة الإنسان المسلم، سينتقل بها من مرحلة التعلم والصلاح، إلى مراحل أخرى أكثر عمقا ومنها مرحلة التعليم والإصلاح؛ التي ستتم دراستها في مقال آخر بإذن الله.

ومن خلال ما سبق توصل البحث إلى أن الآيات التي ذُكر فيها القرآن بالاسم أو بالضمير، تتضمن - في تقديرنا - بانتظامها وتراتبها مراحل، هذه المراحل ترسم منهجا أو مسلكا لكل من يريد أن يرتقي بنفسه في مسالك الإيمان، هي عبارة عن طرق عملية أو إجرائية مستنبطة من القرآن الكريم، وكل مرحلة تشكل قاعدة للأخرى التي تليها، مرحلة الإقلاع التي تمثل موضوع المقال اشتملت كما رأينا على أربع مراحل: أولها: مرحلة تحديد الهدف وهو اتخاذ القرآن هدى، لتحقيق الغاية الأولى والكبرى من وجود الإنسان، وهي أن يتذكر ميثاق العهد- خلال المرحلة الثانية وهي مرحلة الاستعداد - الذي يعكس حقيقة التوحيد لله عز وجل ربا وخالقا للوجود، ومنها ينطلق في ضبط مسيرة التعلم والنهل من المنبع الصادق: القرآن الكريم، فتتلقى الروح وهي نفخة الله في الإنسان من الروح وهي كلام الله عز وجل الحقائق الإيمانية، ليقع الانسجام، ويرتقي السالك بذلك إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة التطبيق والممارسة، التي يحصل فيها التراكم المعرفي، مرحلة تعلُّمٍ تؤسس لبناء المناعة وهي الحجاب المستور، حتى إذا ثبت التعلم وقويت المناعة؛ ثبت المؤمن في الضعف حالة الفتن، والتهديد من اختراقات عقدية أخرى باطلة؛ لأن منطق الدنيا هو منطق

المواجهة بين الحق والباطل وبين الخير والشر، ووبذلك يتحقق الأمن في النفس والعقل والقلب، ويتجلى هذا الأمر في المرحلة الرابعة مرحلة الاختبار والتثبيت والصيانة.

تبقى المراحل الكبرى الثلاث قيد الدراسة والإنجاز: مرحلة التعمق والفيض، ومرحلة التعليم والتبليغ، ومرحلة صدق العبودية، والتي نستشرف بها دراسة الأمر الذي تنشؤه الآيات وهو شهود البصيرة[1]، ومؤداه صدق العبودية.

اجتياز المؤمن المراحل المذكورة يجعله يتعمق أكثر فأكثر في معرفته بحقيقة علاقته بربه، وعلاقته بالوجود، فيضبط الأفكار والأقوال والأفعال، وبالتالي ينسج حول نفسه وقلبه خيوط الأمن، وهذا لا محالة يشكل شخصيته ويصنعها صناعة ربانية، وكأن الله عز وجل يعطي منهجا أو وصفة- من خلال سورة الإسراء- لكل مؤمن يريد أن يصل لما وصل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من صفات عالية منها صدق العبودية، ومن هنا أهمية تتبع هذه المراحل - كخطوات إجرائية - في التعامل الصحيح مع القرآن لإعادة تكوين أنفسنا وصقل شخصياتنا، وتصحيح أنماط فكرنا وسلوكنا علنا نكتسب أمنا في كل أبعاده العقدية والنفسية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

[1] للمشاهدة بعدان هامان، الأول شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام التي صنعها الله عز وجل أُعطيت بحادثة الإسراء والمعراج المشاهدة الحسية...أما البعد الثاني، فتسلسل الآيات التي تتحدث عن القرآن في هذه السورة تعطينا مراحل الوصول إلى المشاهدة أو الشهود القلبي للمعاني والحقائق التي يتضمنها القرآن، وهذه المراحل إن تم تتبعها من طرف السالك، فهي بالتالي لا محالة تشكل شخصيته وتصنعها صناعة ربانية. وكأن الله عز وجل يعطي منهجا أو وصفة لكل مؤمن يريد أن يصل لما وصل إليه الرسول عليه الصلاة والسلام من صفات عالية منها صدق العبودية { البعد الأول: شخصية الرسول} من خلال تلك المراحل { البعد الثاني }

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، صيغة ورش.
- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثامن، دار الحديث، القاهرة، ط. الأولى:(1423هـ-2003م) .
- الأصفهاني الراغب، ت: 425هـ، مفردات ألفاظ القرآن، تح: صفوان عدنان داوودي- دار القلم، دمشق، ط. الخامسة: (1433هـ-2011م).
- تفسير القرطبي، http://www.al-eman.com
- صحيح البخاري، عالم الكتب، بيروت. ط. الخامسة: (1406هـ – 1986م)
- النووي محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، الجزء 16، كتاب فضائل الصحابة، مكتبة الصفا، ط. الأولى: (1424هـ- 2003م).
- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير.http://library.islamweb.net/newlibrar
- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير. المجلد 15. الجزء 30.
- فريد الأنصاري،. بلاغ الرسالة القرآنية، دار السلام، ط. الثانية: (1431هـ-2010م).
- فريد الأنصاري،. ميثاق العهد في التعرف إلى الله، مطبعة أنفوبرانت فاس. ط. الأولى: (1464-2003).
-محمد الأمين بن محمد بن المختار الجنكي الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر: (1415هـ - 1995).
- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الحديث، القاهرة، ط. العاشرة: (1396هـ-1976 م).

الأمن الفكري ضوابطه ووسائل تنميته في الإسلام

دة. للا عائشة عدنان
(معهد محمد السادس للقراءات
والدراسات القرآنية بالرباط)

مقدمة:

الحمد لله بارئ النسم، مجزل العطايا ومولي النعم، معلم الإنسان ما لم يعلم، حمدا يوافي ما تزايد من النعم، والصلاة والسلام على النبي الأكرم، الذي أوتي القرءان ومثله معه، فأخرجنا به الله من حالكات الظلَم، ورضي الله عن صحابته الهداة المهتدين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين.

وبعد: إن الله تعالى أنزل القرآن ليكون للعالمين بشيرا نذيرا، وجعله منهجا لحياتنا وهاديا للتي هي أقوم، وقد شمل هذا الهدي جميع مناحي الحياة، ليحقق أسمى الأهداف وأنبل الغايات، فالقرآن الكريم هو غيث الأرواح والعقول البشرية، ونورا تضيء به بصائرهم وتفكيرهم، فبالعقل تميَّزت البشرية عن غيرها، وبه يتم التفريق بين الحق والباطل وصالح الأعمال وباطلها، وهو طريق بناء صروح العلم والتقدم والرقي الحضاري، ومنبع تقدم المجتمعات، لذلك كانت حمايته مقصدا أساسيا من مقاصد الشريعة الإسلامية، لأن حمايته حماية المجتمع المسلم بأكمله.

فالله عز وجل كرم الإنسان على سائر المخلوقات، وفضله عليها بالنطق والعقل والعلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]، وفي تفسير هذه الآية يقول السعدي (ت 1376هـ): "وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة

[1] - سورة الإسراء، الآية:70.

والباطنة"[1]، فنعمة العقل من أعظم النعم وأجلها، فبه يفرق الإنسان بين الخير والشر، والحق والباطل، وقد أولى المولى عز وجل اهتماما بالغا للعنصر البشري، من خلال المدرسة المحمدية التي اعتنت بالإنسان روحا وعقلا وعقيدة وأخلاقا.

ولأجل ما سبق ذكره جاءت هذه الدراسة لتكشف عن بعض معالم المنهج النبوي في التنمية الفكرية، آملة أن أحقق الأهداف التالية: أولا: الوقوف على ضوابط التنمية الفكرية في الإسلام، ثانيا: بيان معنى التنمية الفكرية كمصطلح مفرد ومركب، ثالثا: إبراز أساليب التنمية الفكرية في السنة النبوية.

وتبزر أهمية هذا الموضوع من خلال المساهمة في بيان المنهج النبوية في التنمية الفكرية على اعتبار أن الأمن نعمة إلهية عظيمة، وركيزة أساسية لبناء الحضارات والرقي بها في سلم التقدم، وفي ظلاله تقام الشرائع الدينية، وتحقق للناس الطمأنينة والسعادة والهناء، وتمارس الحياة اليومية للمجتمعات المسلمة بعيدا عن الخوف والتهديد، ولهذا أصبح هدفا تصبو إليه كل المجتمعات البشرية، ويتطلع لتحقيقه الأفراد والجماعات.

وتكمن أهميته أيضا في كونه محاولة تأصيلية للتنمية الفكرية من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، على اعتبار أن الأساليب التربوية النبوية تشكل لبنة أساسية في تربية النشء، إذ يعتبر البحث في هذا الموضوع محاولة للإسهام في تأصيل أساليب التربية والتعليم من منظور إسلامي، وتزداد **أهمية** هذا الموضوع في عصرنا الحاضر الذي أصبح فيه تقليد الآخر من الأمور الطارئة على شباب الأمة الإسلامية، وهذا قد ينتج عنه ضياع الهوية الإسلامية وفقدان الشخصية ومميزاتها، الأمر الذي يحتم علينا التركيز على الثوابت آملين في عودة الشخصية الإسلامية إلى سالف عهدها.

وعلى هذا الأساس فإن هذه المقالة التي بين أيدينا تحاول أن تجيب عن عدة **تساؤلات** يبقى أهمها:ما هي ضوابط الأمن الفكري؟ وما هو الأساس الذي تقوم عليه الأسس التربوية النبوية؟ وما هي الأهمية الشرعية للأساليب التربوية النبوية؟.

[1]- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ /2000م، ص:463.

واقتضت طبيعة هذه الدراسة أن أقسمها إلى مقدمة وثلاثة محاور وخاتمة، خصصت المقدمة للتعريف بالموضوع وبيان أهميته، وتحديد إشكاليته، والأهداف المنتظرة منه، وخطته الناظمة، أما المحور الأول ففي معنى الأمن الفكري، وأما المحور الثاني: فمداره حول وسائل تنمية الأمن الفكري في السيرة النبوية، والمحور الثالث يدور الحديث فيه عن ضوابط تحقيق الأمن الفكري، وذيلت هذه الدراسة بأهم النتائج التي توصلت إليها.

المحور الأول: حقيقة الأمن الروحي

تقتضي الضرورة المنهجية والحاجة المعرفية في كل بحث علمي حول قضية أو مسألة معينة، أن يتم البدء بتحديد المصطلحات والمفاهيم المستعملة، أو ما يصطلح عليه تحديد الجهاز المفاهيمي؛ ولما كان البحث يدور حول الأمن الفكري فقد وجب الوقوف عند هذين المصطلحين، تمهيدا للبحث من جهة، وإزالة لكل التباس أو غموض في الاستعمال من جهة ثانية.

1- تعريف الأمن لغة واصطلاحا

إن الناظر في المعاجم اللغوية يلحظ أن هناك تقاربا في معاني الأمن في كل من المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، حيث تلتقي جميعها على أن الأمن هو تحقيق السكينة والطمأنينة والاستقرار على مستوى الفرد والجماعة، فالأمن في المعنى اللغوي ضد الخوف، والأمن من الأمان كما يقول ابن فارس: "الْهَمْزَةُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُمَا الْأَمَانَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، وَمَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ، وَالْآخَرُ التَّصْدِيقُ. وَالْمَعْنَيَانِ كَمَا قُلْنَا مُتَدَانِيَانِ. قَالَ الْخَلِيلُ: الْأَمَنَةُ مِنَ الْأَمْنِ. وَالْأَمَانُ إِعْطَاءُ الْأَمَنَةِ. وَالْأَمَانَةُ ضِدُّ الْخِيَانَةِ"[1].

ومدار مفهوم الأمن من الناحية اللغوية على سكينة يطمئن بها القلب بعد اضطراب، وأنقل هنا ما ذكره الراغب الأصفهاني: "أصل الأَمْن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأَمْنُ والأَمَانَةُ والأَمَانُ في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسما للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسما لما يؤمن عليه الإنسان، والإيمان يستعمل تارة اسما للشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام، وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل

[1]- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ / 1979م، ج1، ص:133.

التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح"[1].

فالراغب رحمة الله لا يتصور في هذا التعريف المؤمن وليس عنده أمن، وليس في قلبه أمن ما دام الإيمان موجودا، فينبغي أن يكون في قلب الذي في قلبه إيمان أمن السكينة والطمأنينة، لأنه مطمئن إلى ربه.

وعرفه محمد عمارة بقوله: "هو الطمأنينة المقابلة للخوف والفزع والروع في عالم الفرد والجماعة، وفي الحواضر ومواطن العمران، وفي السبل والطرق، وفي العلاقات والمعاملات، وفي الدنيا والآخرة جميعاً"[2].

بينما عرفه الخادمي بأنه:"اطمئنان الإنسان على دينه ونفسه وعقله وأهله وسائر حقوقه، وعدم خوفه في الوقت الحالي أو في الزمن الآتي، في داخل بلاده ومن خارجها، ومن العدو وغيره، ويكون ذلك على وفق توجيه الإسلام وهدي الوحي، ومراعاة الأخلاق والأعراف والمواثيق"[3]. فالمعنى العام للأمن هو حالة قلبية تجعل المتصل بها في الدنيا يرتاح ويطمئن، والموصوف بها في الآخرة يسعد، وتحصل له السعادة الأبدية.

2- تعريف الفكر لغة

جاء في معجم مقاييس اللغة: "الْفَاءُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ تَرَدُّدُ الْقَلْبِ فِي الشَّيْءِ. يُقَالُ تَفَكَّرَ إِذَا رَدَّدَ قَلْبَهُ مُعْتَبِرًا. وَرَجُلٌ فِكِّيرٌ: كَثِيرُ الْفِكْرِ"[4].

وعرفه الفارابي(ت 393هـ) بقوله: "التَفَكُّرُ: التأملُ. والاسم الفِكْرُ والفِكْرَةُ. والمصدر الفَكْرُ بالفتح. قال يعقوب: يقال ليس لي في هذا الأمر فِكْرٌ، أي ليس لي فيه حاجة. قال: والفتح فيه

---

[1]- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق بيروت، ط1، 1412 هـ، ص:91.

[2]-الإسلام والأمن الاجتماعي، للدكتور محمد عماره، ط1، 1998م، دار الشروق، ص:11 .

[3]- القواعد الفقهية المتعلقة بالأمن الشامل، الخادمي نور الدين، المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، المجلد 21، العدد 42، ص16.

[4]- معجم مقاييس اللغة،أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ / 1979م، ج4، ص:446.

أفصح من الكسر. وأفْكَر في الشيء وفكر فيه وتفكر، بمعنى. ورجل فكير، مثال فسيق: كثير التفكر"[1].

وجاء تعريفه في معجم لسان العرب بما يلي: "التَّفَكُّر التأَمل، وَالاسْمُ الفِكْرُ والفِكْرَة، وَالْمَصْدَرُ الفَكْر، بِالْفَتْحِ. قَالَ يَعْقُوبُ: يُقَالُ: لَيْسَ لِي فِي هَذَا الأَمرِ فكْرٌ أَي لَيْسَ لِي فِيهِ حَاجَةٌ"[2].

وعليه فإن كلمة الفكر في اللغة ترجع إلى لفظة "فكر"، وفروع هذه الكلمة تدور على معنى ما يدور في العقل ويتردد في القلب بالنظر والتدبر.

3- الفكر في اصطلاح العلماء

عرف العلماء مصطلح الفكر بتعاريف عدة منها:

الفكر عند التهانوي (ت بعد 1158هـ) "يطلق على ثلاثة معان: الأول حركة النفس في المعقولات بواسطة القوة المتصرّفة، أيّ حركة كانت، أي سواء كانت بطلب أو بغيره، وسواء كانت من المطالب أو إليها، فخرج بقيد الحركة الحدس لأنّه الانتقال من المبادئ إلى المطالب دفعة لا تدريجا، والثاني حركة النفس في المعقولات مبتدئة من المطلوب المشعور بوجه ما، مستغرقة فيها طالبة لمبادئه المؤدّية إليه إلى أن تجدها وترتّبها، فترجع منها إلى المطلوب، والثالث هو الحركة الأولى من هاتين الحركتين أي الحركة من المطلوب إلى المبادئ وحدها من غير أن توجد الحركة الثانية معها وإن كانت هي المقصودة منها"[3].

وعرف الجرجاني(المتوفى: 816هـ) الفكر بقوله:"ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول"[4]؛ فالجرجاني يرى في هذا التعريف أن الفكر هو الانطلاق من المعلوم بغية الوصول إلى المجهول، في

---

[1]- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط4، 1407 هـ / 1987م، ج2، ص:783.

[2]-لسان العرب،ابن منظور(ت 711هـ)، دار صادر بيروت، ط3، 1414 هـ، ج5، ص:65.

[3]- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،محمد بن علي بن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون بيروت، ط1، 1996م، ج، ص:1284_1285.

[4]- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1403هـ /1983م، ص:168.

حين عرفه ابن قيم الجوزية بأنه: "إحضار معرفتين فِي الْقلب ليستثمر مِنْهُمَا معرفَة ثَالِثَة"[1]، والفكر هو: "إعمال الإنسان لإمكاناته العقلية في المحصول الثقافي المتوفر لديها بغية إيجاد بدائل أو حل مشكلات أو كشف العلاقات والنسب بين الأشياء"[2]، ويرى الفيومي أن الفكر "تَرْتِيبُ أُمُورٍ فِي الذِّهْنِ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى مَطْلُوبٍ يَكُونُ عِلْمًا أَوْ ظَنًّا"[3].

وقد ورد لفظ الفكر في القرآن الكريم ومشتقاتها في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة[4]، في سياقات متعددة بصيغ كلها فعلية، في موضع واحد منها بصيغة الماضي، "فكر"، والباقي منها بصيغة المضارع "تتفكروا"، "يتفكرون"، "تتفكرون"، وفي التعبير بهذه الصيغة فوائد، أما صيغة الفعل فمعلوم أن الفعل في لغتنا العربية ما دل على حدث وذات، فحينما يقال: فكر فهي كلمة تدل على حدث هو الفكر، وتدل على ذات فاعلة لهذا الحدث تسمى المفكر. وفي استعمال القرآن الكريم لهذه الكلمة بهذه الصيغة دلالة على أنن هذا العمل الذهني مرتبط بذات، فلا يمكن أن يتجرد الفكر عن المفكر، وأن الفكر لا ينبغي أن يكون فيما لا طائل تحته، وفيما لا عمل أو حرة في هذا الكون تُبنى عليه[5].

والأمن الفكري هو أن يعيش الناس في بلدانهم وأوطانهم وبين مجتمعاتهم، آمنين مطمئنين على مكونات أصالتهم، وثقافتهم النوعية ومنظومتهم الفكرية، وبعضهم يعبر عنه بالأمن الثقافي فيقول: الأمن الثقافي للمجتمع يعني وجود قيم وتصورات تفرز ضوابط سلوكية من شأنها أن تسبغ الأمن في نفوس وتجافي الجنوح في العنف[6].

إن المدلول الاصطلاحي لمصطلح الفكر يتأسس على التحديد اللغوي الذي يتمحور حول إعمال العقل والقلب، بمعنى أن الفكر يتمحور حول النتاج العقلي، وإظهار ما استطاع بواسطة الممارسات اليومية في مخزونه الفكري، سواء أكانت هذه المعطيات مكتسبة أو فطرية.

---

[1]- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت، ج1، ص:181.

[2]- الفكر طبيعته وماهيته، عبد الكريم بكار، مقال نشر بمجلة البيان، ص:1.

[3]-المصباح المنير في غريب الشرح الكبير،أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس(ت: نحو 770هـ)، المكتبة العلمية بيروت، ج2، ص:479.

[4]- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، محمد فؤاد عبد الباقي، تقديم منصور فهمي، دار الحديث القاهرة، نشر سنة 1364هـ، ص:525.

[5]- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، طه جابر العلواني، دار الهادي، ط1، 1424هـ/2003م، ص:67.

[6]- الشريعة الإسلامية ودورها في تعزيز الأمن الفكري، عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس، ب. ط، ب. س، ص:16.

المحور الثاني: وسائل تنمية الأمن الفكري في السيرة النبوية

يكتسب الأمن الفكري أهمية كبرى في حياة الفرد والمجتمع، باعتباره أحد مكونات الأمن المجتمعي بصفة عامة، بل هو أساسها وأولها، وقد أولى الإسلام للعقل بالغ الأهمية إذ به تمييز الإنسان عن سائر المخلوقات، وهو الذي يوجه الفرد إلى جادة الصواب، وهو لب الأمن وركيزته الكبرى، كما أنه يبرز قوة عناية الشارع الحكيم بالإنسان، كما يحرص على حماية الفرد من أي توجه خاطئ يؤدي إلى إيذاء الفرد نفسه وإيذاء المجتمع، وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحا الدائرة التي لا تسكن ولا بد لها من شيء تطحنه فإن وُضِعَ فيها حب طحنته وإن وضع فيها تراب أو حصا طحنته فلأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحا ولا تبقى تلك الرحا معطلة قط بل لا بد لها من شيء يوضع فيها فمن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقا ينفع به نفسه وغيره وأكثرهم يطحن رملا وحصا وتبنا ونحو ذلك فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه"[1]، وفي موضع آخر يقول: "وإياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك فإنه يفسدها عليك فسادا يصعب تداركه ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك وأنت الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك فمثالك معه مثال صاحب رحا يطحن فيها جيد الحبوب فأتاه شخص معه حمل تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه في طاحونته فإن طرده ولم يمكنه من إلقاء ما معه في الطاحون استمر على طحن ما ينفعه وإن مكنه في إلقاء ذلك في الطاحون أفسد ما فيها من الحب وخرج الطحين كله فاسدا"[2].

فالفرد يتسم طاقات كثيرة هي بمثابة النهر الجاري، وإن المربي لا بد له من معرفة كيفية تفريغ هذه الطاقات فيما ينفع الأمة، فالرسول صلى الله عليه وسلم خير قدوة في ذلك، وقد أثمرت هذه التربية النبوية أناسا لهم الباع الطويل في الابتكار الفكري، حيث تعددت أدوارهم وأثروا بفكرهم منهج الدعوة وطريقها لأنهم وجدوا المناخ الذي يرعى تميزهم.

ومن صور اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية الصحابة قياديا، أن اهتم بتنمية قدراتهم ومهاراتهم في اتخاذ القرار، فكان صلى الله عليه وسلم لا يتوانى عن استشارة الصحابة في أدق

---

[1] - الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 1393 هـ /1973م، ص:174.

[2] - المصدر السابق، ص:175.

الأمور، منطلقا في ذلك من قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1]، وفي تفسير هذه الآية يقول الطبري: "أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه في مكايد الحرب وعند لقاء العدو، تطييبًا منه بذلك أنفسهم، وتألّفًا لهم على دينهم، وليروا أنه يسمع منهم ويستعين بهم، وإن كان الله عز وجل قد أغناه بتدبيره له أموره، وسياسته إياه وتقويمه أسبابه عنهم"[2]، فالله عز وجل أمر نبيه بالمشورة لما لها من أثر في تنمية قدرات الصحابة رضوان الله تعالى عنهم، حيث تنمو لديهم قوة الشخصية التي تؤهلهم للاضطلاع بحمل المسؤوليات والتبعات الملقاة عليهم[3]، ومن فوائدها أيضا ما ذكره ابن تيمية في قوله: "إن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه، وليقتدي به من بعده، وليستخرج بها منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي"[4].

لأن بناء مستقبل كل أمة بحاجة إلى إعداد مؤهليه في مجالات مختلفة، فالتربية القيادية والسياسية أمر مهم في بناء المستقبل، لأن بناء المستقبل يحتاج إلى قدرة على صناعة القرار السليم، ويحتاج إلى حكمة في مواجهة الأزمات، وإلى وعي وبصيرة وسعة أفق في مناقشة قضايا الأمة[5].

وإذا تأملنا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم نجدها مفعمة بالعظات والعبر، حيث يشاركهم في اتخاذ القرارات التي لم ينزل فيها وحي ليستشعرهم أن القضية التي استشيروا فيها قضيتهم، وأن القرار قرارهم مما يجعلهم يدافعون عليه، فيبذلون كل الغالي والنفيس في سبيل نصرته.

لذا يجب أن تتاح داخل المناهج التدريسية فرصا للتربية العملية والتطبيق الشامل على الخبرات والريادة الحركية في مواقف حقيقية تساعد على صياغة الفرد من خلال حركة جماعية نحو تحقيق واقع صحيح للحياة الإسلامية القادرة على التفاعل الواعي مع الانفتاح الثقافي[6].

---

[1]- سورة آل عمران، الآية:159.

[2]- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت 310هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ / 2000 م، ج7، ص:343.

[3]- منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة، محمد أمخزون، دار السلام القاهرة، ط3، 2006م، ص:151.

[4]- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية (ت 728هـ)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ، ص:126.

[5]- ملامح الانفتاح الثقافي في الفكر التربوي الإسلامي، إعداد الطالبة ناريمين فضل عدوان، ص:117.

[6]- المصدر السابق، ص:117.

ومن الأمور التي استشار فيها الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة وقت خروجه من المدينة قاصدا مكة للعمرة، وكانت قريش قد عملت على قتاله وصده عن البيت العتيق، فلها علم النبي بما تنطوي عليه ضغينة قريش جمع الصحابة كلهم ونظر إليهم قائلا: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ البَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ المُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا البَيْتِ، لاَ تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ، وَلاَ حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ. قَالَ: «امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ»[1].

ولقد شكل هذا في الحقيقة، النفسية الأولية لثقافة العمل لدى المسلم المبدع، ومن ثم فإن تنشيط الجانب الروحي لدى المسلم ربما كان شرطا لتمتعه بكفاية وفعالية عالية، فعن حنظلة الأسيدي، قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"[2].

ففي هذا الحديث يظهر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُعزز الهدف الواضح الجليّ، ويُحفّز الجانب الروحي، فتتولد الإبداعات عند أولئك النفر الذين تعهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتربيته وصنعهم على عينه؛ فالسنة النبوية تحفل بقاعدة هامة من التحفيز، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع أسس الإبداع، ومن ذلك تشجيعه القدرات الإبداعية انطلاقاً من الخبرة العميقة بالنفس البشرية، واستعداداتها المتفاوتة وما تمتاز به كل شخصية.

[1] - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث 4178.

[2] - صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة، رقم الحديث 2750.

ومن بين الوسائل التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لتنمية الإبداع وتأكيد الاتجاهات الإبداعية، وتحفيز التفكير الإبداعي لدى صحابته، وسيلة ناجعة خاطب الله تعالى بها المؤمنين فقال ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾[2]، وقال تعالى آمرا نبيه الكريم: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]؛ وفي القرآن مجموعة من القصص جاءت لإبراز أمور جوهرية أرادها الله سبحانه وتعالى، ومن أولويات هذه الأمور: تربية الأمة الإسلامية، وتنشئة الجيل المسلم تنشئة إسلامية بما أراده الله لها، وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم[4]؛ وذلك لما يمتاز به أسلوب القصة في التربية إذ له الوقع الكبير على الجانب النفسي والعاطفي، حيث تحمل في طياتها حقائق في صورة مواقف يتفاعل معها المتلقي تفاعلا ينقله ليعيش تلك الأحداث التي تسرد، أو ينقلها لتعيش في خياله، ولهذا فإن القصة تلعب دورا في تقديم الخبرات الأولى للقراءة والتذوق الفني والجمالي للطفل المسلم، كما تعد من أبقى وأخلد أنواع المعرفة لما لها من صفات تنفرد بها عن باقي الوسائل التعليمية[5].

فالمربي يستطيع عن طريق القصة القرآنية أن يغرس في المتربي القيم والمبادئ التربوية بطريقة خفية وذكية، كما يكسبه العادات والأخلاق بيسر وقناعة كما يمكنه أن يستثمر القصة في التربية لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي، تربية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم، فهي سجل حافل لجميع التوجيهات[6].

فرسول الله صلى الله عليه وسلم علم أصحابه ومن بعدهم بطريق القصص وذكر الوقائع التي يحدثهم بها عن الأقوام الماضين، فتؤثر فيهم ويكون منها العبرة والعظة والقدوة والإتساء، بل وفضلاً عن كونه أسلوباً لتنمية الإبداع لدى المخاطب، نلحظ في القصص ذاتها جوانب إبداع تثير مكامن

---

[1] - سورة يوسف، الآية:3.

[2] - سورة الكهف، الآية:13.

[3] - سورة الأعراف، الآية:176.

[4] - مدخل إلى أصول التربية الإسلامية، الدخيل محمد عبد الرحمان فهد، دار الخريجي للنشر والتوزيع الرياض، بدون ط، 1424هـ، ص: 136.

[5] - القصة أثرها في تربية الطفل، علي سعيد عبد المعز علي، عالم الكتب القاهرة، ط1، 2006م، ص:18-19.

[6] - نحو تربية إسلامية راشدة من الطفولة حتى البلوغ، الشريف محمد بن شاكر الشريف، مجلة البيان الرياض، سنة الطبع1427هـ، ص:3

الإبداع في المخاطب[1].

وعليه فإن الأغراض التربوية للقصة تكمن في تقويم سلوك الإنسان على الصعيد الأخلاقي الشخصي والمجتمعي، وجميع القصص القرآنية تعج بمثل هذه المفردات التربوية اعتبارا من علاقة الإنسان بنفسه، ومرورا بعلاقته مع المجتمع، وانتهاءً بارتباطه مع الخالق تعالى[2]؛ لأن الغرض الأساس من القصص القرآنية هو الاتعاظ كالزجر عن الفواحش، ونهي الإنسان من الوقوع في الآثام، والتشجيع على التوبة للمسيء، ويدعم هذا قول عباس فضل حسن: "وذلك بتقديم أمثلة لشخصيات تمثل جانب القدوة الإيجابية كأيوب عليه السلام في صبره، ويوسف في عفته وتسامحه، وأمثلة أخرى لشخصيات تمثل الجانب السلبي كقارون في اغتراره بالمال والجاه، وفرعون في تعاليه وغروره وإصراره على الكفر، وقم لوط في إصرارهم على الفواحش، والقرآن الكريم يحض من خلال عرض قصصهم على البعد عن مسلكهم الوخيم في الدنيا والآخرة"[3].

ومن الوسائل التي استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم لتنمية الإبداع لدى الصحابة رضوان الله عليهم، نجد العصف الذهني[4] ومن الشواهد البارزة في السنة النبوية الدالة على استخدام النبي صلى الله عليه وسلم أسلوب العصف الذهني، عندما تم عقد المجلس الاستشاري لأخذ الآراء واستمطار الأفكار في غزوة بدر الكبرى وأخذ يردد قائلا: "أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ أَجَلْ، قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنحْن مَعَك، فو الّذي بَعَثَكَ بِالْحَقّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ

---

[1]- هدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في التربية الإبداعية والابتكار، موسى البسيط، جامعة القدس فلسطين، ص:32

[2]- معايير الأسلوب القصص في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية في تدريس التربية الإسلامية في الصفوف العليا، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، بكلية التربية قسم المناهج وطرق التدريس، جامعة أم القرى، الوادعي مسفر بن أحمد آل عاطف، سنة 1427هـ، ص:26.

[3]- القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، عباس فضل حسن، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع الأردن، ط1، 1407هـ، ص:44.

[4]- يقصد بالعصف الذهني: "استخدام العقل في التصدي النشط للمشكلة ويستخدم كأسلوب للتفكير الجماعي أو الفردي في حل كثير من المشكلات العلمية والحياتية المختلفة، بقصد زيادة القدرات والعمليات الذهنية" ومن الأهداف التربوية لجلسات العصف الدهني نجد: 1- حل المشكلات حلا إبداعيا. 2- إيجاد مشاريع جديدة. 3- تحفيز وتدريب تفكير وإبداع المتدربين.https://www.bayt.com/en/specialties/q/266317 بتاريخ 2018/02/24.

مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ. لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِ سَعْدٍ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ"[1].

ومن أساليب تنمية العصف الذهني نجد: طرح الأسئلة غير المألوفة، لتقود الإنسان إلى شحذ جميع طاقاته العقلية، واستخراج مكنون فكره وخبايا نفسه، وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تفعيل هذا الأسلوب في تربيته للصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم، وفي هذا ما رواه عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُلُوسٌ إِذَا أُتِيَ بِجُمَّارِ نَخْلَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ لَمَا بَرَكَتُهُ كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ» فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَعْنِي النَّخْلَةَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ التَفَتُّ فَإِذَا أَنَا عَاشِرُ عَشَرَةٍ أَنَا أَحْدَثُهُمْ فَسَكَتُّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»[2]؛ قال العيني (ت855هـ) معلقا على هذا الحديث: "فيه استحباب إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليختبر أفهامهم، ويرغبهم في الفكر"[3].

ومن الشواهد البارزة أيضا في السنة لاستعمال الرسول صلى الله عليه وسلم للعصف الذهني ما رواه أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "(...)أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ " قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ البَلْدَةَ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى(...)"[4]؛ ففي هذا الحديث يظهر أن الرسول صلى الله عليه وسلم يستحضر فَهْم الصحابة كما ذكر ذلك القرطبي: "كان ذلك

---

[1]- السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت 213هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1375هـ /1955م، ص:615.

[2]- صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب أكل الجمار، رقم الحديث5444.

[3]- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج2، ص:15.

[4]- صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب من قال الأضحى يوم النحر، رقم الحديث5550.

منه استحضارا لفهومهم، وتنبيها لغفلتهم، وتنويها بما يذكره لهم، حتى يقبلوا عليه كليتهم، ويستشعروا عظمة حرمة ما عنه يخبرهم"[1].

ومن بين طرق العصف الذهني الذي استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم التشجيع على المبادرة وعلو الهمة، إذ ربى في نفوس أصحابه روح المبادرة الطيبة ومن أمثلة ذلك كثيرة، منها ما يفعله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الصبح يسأل الصحابة «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[2]، ففي هذا الحديث يظهر كيف كان صلى الله عليه وسلم يحفز صحابته رضوان الله عليهم على فعل الطاعات التي بواسطتها يقترب العبد من ربه.

ومن ذلك أيضا ما فعله الرسول عليه السلام مع عكاشة لما دعا له بأن يكون من أهل الجنة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «اللهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»[3].

ولتنمية روح الإبداع والابتكار لدى الفرد لا بد من أمور كثيرة تعتبر محفزات لجني ثمار هذا الإبداع وهي:

الأسرة: باعتبارها المحضن الأول والأساس للإبداعات الفردية، ففي الصحيح عن عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» قَالَ: -

---

[1]- الفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، الحافظ أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له، محيي الدين ديب متو ويوسف علي يديوي وأحمد محمد السيد ومحمود إبراهيم نبال، دار ابن كثير دمشق بيروت، ط1، 1417ه/1996م، ج5، ص:37.

[2]- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبو بكر الصديق رضي الله عنه، رقم الحديث1028.

[3]- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم الحديث367.

وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - «وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1].

القراءة وطلب العلم: وذلك بالحرص على مواكبة المستجدات وكل ما يكتب من قبل العلماء والباحثين، والانفتاح الثقافي على الفكر العالمي، وهذا مفاده تطوير ذات الإنسان، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ»[2]، إلا أن هذا الانفتاح لا بد له من ضوابط للمحافظة على الخصوصية التي تميز المسلمين عن غيرهم، ومن هذه الضوابط نجد:

الانفتاح الثقافي مع الاحتفاظ بهوية الأمة: إذ تعتبر الهوية الحضارية لأمة من الأمم هي القدر الثابت والجوهري، ولأن كل أمة لها هويتها التي تميزها عن سائر الأمم الأخرى، وكل أمة تعتز بهويتها وتعتبرها بمثابة شخصيتها المعنوية، فالرسول صلى الله عليه وسلم حث على المحافظة على الهوية الإسلامية، قال صلى الله عليه وسلم: "(...)وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ"[3]، ففي هذا الحديث تحذير من التشبه بأمم أخرى غير أمة الإسلام.

وهوية أمة معينة تبتدأ من عقائدها الدينية ومظاهر تلك العقائد من أعياد وطقوس دينية، وكذلك اللغة والعادات والطبائع، والنظم الاجتماعية، والنظم التعليمية والاقتصادية...، وتمتد هوية الأمة أيضا إلى الفن والأدب والرسم وغيرها من الفنون، فمنهاج التعليم والتربية جزء من هوية الأمة، سواء في فلسفته وأهدافه، أو نظامه أو علومه، فهو جزء من هوية الأمة قد اصطبغ بلونها، وأصبح أداة لغرس تلك الهوية في نفوس النشء فمعيار هوية الأمة يعني أنه لا يمكن اقتباس أي عنصر يكون ذريعة لهدمها، وكذلك تطهير العلوم التربوية، أو النظم التعليمية مما علق بها من هوية الأمم التي نشأت فيها، "لأن المعيار الإسلامي المميز يعني استقلال نظامنا التربوي والتعليمي استقلالا تاما عن الغرب، وصبغه بهويتنا، بحيث إذا اقتبسنا ما نراه لا يتعارض مع ديننا فلا بد من تطهيره

---

[1]- صحيح البخاري، كتاب الجمعة، بابا لجمعة في القرى والمدن، رقم الحديث893.

[2]- صحيح مسلم، أبواب العلم، باب فضل طلب العلم، رقم الحديث:2646.

[3]- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت 241هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421 هـ / 2001 م، ج9، ص:126، رقم الحديث:5115.

مما تعلق به من شعارات الأمم الأخرى ثم صهره في بوثقة هويتنا، فيندمج حينئذ في نظامنا التعليمي، ولا يصبح نشازا"[1].

الانتفاع الواعي بتراثنا وعدم إهماله: إن غربلة التراث واستخلاص الصحيح منه، وما يحتويه من الفكر الذي صدر عن روح الإسلام وغاياته لا عن الخرافات والانحرافات، أو الفلسفات الوافدة، أو الأغراض والأمراض التي ألمت بروح الأمة وفكرها على مر العصور، ليتحقق التمكن باستخلاص المختارات التراثية في كل مجالات العلوم والفنون، والقضايا الحياتية المعاصرة، وتيسير هذه المختارات وتحليلها، ليتمكن الباحثون من إدراك وفهم أفضل لرؤية السلف الإسلامية، وكيف حرك ذلك الفهم نفوسهم فحولوا تلك الرؤية إلى مناهج قويمة قادرة تنعكس في الأفعال وفي السلوك، مكنتهم من حل ما واجههم من قضايا وصعوبات حياتية، وفتحوا بها الحضارة والإعمار البشري آفاقا جديدة ومجالات واسعة[2].

وتفنيدا لما سبق يقول يوسف القرضاوي: "إننا لسنا مع الذين يضفون القدسية أو العصمة على كل ما مضى، ولا مع خصومهم الذين ينأون بجانبهم عن كل موروث، لا لشيء إلا أنه قديم، ولكن لنا من التخير والانتقاء، وخصوصا في مجال التربية والتثقيف، ولهذا أشرنا إلى أهمية الوعي والانتقاء لأن الوعي هو الذي يميز بين ما يصلح ومالا يصلح وبهذا نستطيع أن نستبصر التراث، ونحن نقف على أرض صلبة، نقرؤه ومعنا هاد من خارجنا ــ وهو الوحي ــ وهاد من داخلنا ــ وهو العقل ــ"[3].

وعلى ما تم ذكره يمكن القول أن أي أمة لها ضعف في الصلة مع تراثها وتاريخها يفقدها كينونتها لمسايرة الركب الحضاري؛ لأن ضوابط الانفتاح الثقافي كثيرة لكن اقتصرت على هذين النموذجين بحسب خدمتهما للموضوع الذي نحن بصدده.

يحرص الإسلام على خلق بيئة للإبداع وتوليد الأفكار الإبداعية من خلال تآلف وتعاطف وإخاء قائم على الإيمان، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ

---

[1]- التبعية الفكرية في مجال التربية وعلاجها من منظور إسلامي، التويم خالد، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أم القرى مكة المكرمة، 1417هـ، ص:240-241.

[2]- نحن والغرب، الفاروقي إسماعيل راجي، دار البحوث العلمية، د.ط، سنة الطبع 1983م، ص:172.

[3]- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، القرضاوي، مكتبة وهبة القاهرة، ط1، 1994م، ص:61-67.

بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[1]؛ وفي تفسير هذه الآية يقول الزمخشري: "التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات الباهرة،(...)، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتحدوا، وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم، وأحدث بينهم من التحاب والتواد، وأماط عنهم من التباغض والتماقت، وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب، فهو يقلبها كما شاء، ويصنع فيها ما أراد"[2].

ولا شك أن المؤاخاة توفر المناخ المناسب للابتكار والأداء المتميز في قلب المجتمع المسلم بالانسجام بين أفراده، لأن الأخوة تخلق بيئة متراصة، التي تنتج إبداعات متكاملة في شتى المجالات، وخير مثال نسوقه في هذا الباب عصر الصحابة رضوان الله تعالى عنهم رواد الحضارة المبدعة، وهذا راجع إلى توادهم وتراحمهم فيما بينهم.

المحور الثالث: ضوابط تحقيق الأمن الفكري

للأمن الفكري ضوابط ومعايير لكي يتحقق الهدف المنشود منه، فإذا ما اختل ضابط من تلك الضوابط أثر على المبتغى من الأمن الفكري، الذي يتمثل في إنشاء مجتمع مسلم يتسم بالوسطية والاعتدال في الحياة العامة والفردية؛ ومن بين هذه الضوابط التي تتحكم في سير الأمن الفكري ما يلي:

1. أن يكون منبثقا من ديننا الحنيف ومعتقداتنا الصحيحة الراسخة.
2. أن يتمشى مع مقاصد الشريعة وحكمها، وتحقيقها للمصالح ودرئها للمفاسد.
3. تحقيقه للوسطية والاعتدال بفهم الصحابة الأخيار والأئمة الكبار.
4. أن يتلقى من المصادر الصحيحة، ويتولى ذلك العلماء الربانيون.
5. أن يحقق للأمة وحدتها وتلاحمها[3].
6. أن يحافظ على ثقافة الأمة ومكونات أصالتها وقيمها.

---

[1] - سورة الأنفال، الآية:63.

[2] - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538هـ)، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، 1407 هـ، ج2، ص:233-234.

[3] - الشريعة الإسلامية ودورها في تعزيز الأمن الفكري، عبد الرحمان بن عبد العزيز السديس، ص:18.

7. أن ينجح في تحديد هوية الأمة وتحقيق ذاتيتها، وإبراز شخصيتها.
8. السمو بالفرد والمجتمع إلى أعلى درجات الطهر والعفة والنبل.
9. أن يكون القائمون عليه والحامون له هم ولاة الأمر من الحكام المخلصين والعلماء والعاملين.
10. أن يكون طريقا لتحقيق الأمن بمفهومه الشامل بعيدا عن الازدواجية والفوضى الفكرية والاجتماعية[1].

علاوة على مبدأ الوسطية الذي يعتبر أهم ضابط وأهم ركيزة لتحقيق الأمن الفكري وصيانته من الانحراف إلى التشدد أو التسيب، فالوسطية هي السمة الأساسية لهذا الدين الحنيف، وهي التي ترسم خريطة الطريق للمسلم كما تجذب أيضا الآخرين إلى الإسلام، فالوسطية هي صواب واستقامة الفكر، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً"[2]،﴾فالوسطية تمنع من الإفراط والتفريط، قال تعالى:"﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"[3]،﴾وفي تفسير هذه الآية يقول ابن كثير: " أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فيه"[4]، فالصراط المستقيم هو الطريق الوسط بين اليهود الذين أفرطوا في الدين، والنصارى الذين فرّطوا بالرهبانية، فعَنْ مُجَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ، فَقَالَ: "هَذَا سَبِيلُ اللهِ"، وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ قَالَ: "هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ"، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾[5].

إن مبدأ الوسطية يضبط الأمن الفكري انطلاقا من عدة مفاهيم أساسية؛ الأول: الخوف من الله عز وجل دون سواه، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وتحكيم كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في كل مناحي الحياة، والثاني يتجلى في مبدأ العدل، بمعنى أن كل إنسان يتصف بالوسطية لا بد أن يترتب عليها العدل بين الناس وذلك بأخذ الحق للمظلوم وردع الظالم، فالرسول

---

[1]- المصدر السابق، ص:19.
[2]- سورة البقرة، الآية: 143.
[3]- سورة الفاتحة، الآية:6.
[4]- تفسير القرآن الكريم، ابن كثير، ج1، ص:51.
[5]- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت 241هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ/2001م، ج23، ص:417، رقم الحديث:15277.

صلى الله عليه وسلم كان خير مثال في تطبيق العدل متى حكم في أمر اختلف فيه بين الناس، فالعدل يمكن أن يضبط الأمن الروحي إذ بواسطته يقع ازدهار الأمن المجتمعي والاستقرار الروحي والفكري لدى الأفراد.

أما المفهوم الثالث يكمن في رفع الحرج، لأن الشارع الحكيم يتسم بالاعتدال والسهولة في كل أمور الدين، فالاعتدال هو أساس وأصل الكمالات الأمنية للفرد والمجتمع، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[1]، وفي الصحيح عَنْ مَعْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الغِفَارِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»[2]، من خلال هاذين النصين يمكن استنباط أن التخفيف والسماحة ورفع الحرج هو المبدأ الأصلي للشارع الحكيم.

أما المفهوم الرابع يرتبط بالحكمة في تطبيق أحكام الشريعة، من خلالها توزع النصاب ويعطى لكل ذي حق حقه، في وقته بدون تعجيل ولا تأجيل، ولا يتعداه إلى غيره، وفي هذا نجد قول ابن قيم الجوزية: "لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق، تقتضيها شرعا وقدرا، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر،كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث، بأن تعطى كل مرتبة حقها الذي أحقه الله بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها، فتكون متعديا مخالفا للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فتفوتها، وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعا وقدرا. فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض، وتعدي الحق: كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله"[3].

---

[1]-سورة البقرة، الآية:185.

[2]- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم الحديث:39.

[3]- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، 1416 هـ / 1996م، ج2، ص:449.

إن الحكمة تقتضي قوة البصيرة، والنظر في أحوال الناس، لإصدار حكم مناسب حول قضية معينة، هذا ما كان يمتاز به سيد الخلق عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "... إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ "[1].

وعلى ما تم ذكره فإن الله عز وجل وضع القواعد الأساسية التي تسير عليها الحياة البشرية، حتى ينعموا بانشراح الصدر وطمأنينة النفس التي تؤدي إلى السعادة الدنيوية والفوز بالدار الآخرة.

وفي ختام هذه المقالة يمكنني حصر أهم النتائج التي توصلت إليها فيما يلي:

- اهتم الشرع الحنيف بالإنسان أشد الاهتمام سواء على مستوى النمو الإنساني في مختلف أطوار حياته، لتنمية قدراته الاجتماعية والقيادية والروحية والعقلية، أو على مستوى الاهتمام بتطوير الهياكل التي تتيح للفرد المشاركة الفعالة بمختلف قدراته في مجالات مختلفة.

- للتنمية الفكرية هدفين أساسيين: حفظ الفرد المسلم من الانحراف الفكري النابع من اتباع الأهواء، وحفظ المجتمع المسلم من الشطط، والانحراف الفكري الذي يستهدف الدين الإسلامي برمته النابع من أعداء الإسلام.

- إن الدعوة القرآنية والحديثية إلى النظر والتأمل يكمن فيها إثراء فكر الإنسان المسلم بيقين بعد الظن، مع حتمية الإعداد والتسلح الفكري.

- يعد المنهج المتكامل في فهم الإسلام أهم المقومات النبوية في التنمية الفكرية وتحصينها.

- إن المنهج النبوي في التربية الفكرية والإبداعية أنتج رجالا أفذاذا لهم الباع الطويل في نشر الإسلام.

- إن الرسول صلى الله عليه وسلم اعتنى بتفجير مواهب الصحابة رضوان الله تعالى عليم وصقلها وتطويرها، مما أدى إلى إنشاء جيل فريد رفع الهمم وفتح الظلم من خلال التنافس الطاهر على إرضاء الله سبحانه وتعالى وحب الخير للعباد.

[1]- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين...، رقم الحديث:25.

لائحة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية ورش عن نافع**
- **الأزمة الفكرية ومناهج التغيير،** طه جابر العلواني، دار الهادي، ط1، 1424هـ/2003م.
- **الإسلام والأمن الاجتماعي،** للدكتور محمد عماره، ط1، 1998م، دار الشروق.
- **التبعية الفكرية في مجال التربية وعلاجها من منظور إسلامي،** التويم خالد، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أم القرى مكة المكرمة، 1417هـ.
- **التعريفات،** علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1403هـ /1983م.
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،** عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ /2000م.
- **الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة،** القرضاوي، مكتبة وهبة القاهرة، ط1، 1994م.
- **جامع البيان في تأويل القرآن،** محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ / 2000 م.
- **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري،** محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط1، 1422هـ.
- **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية،** ابن تيمية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ.
- **السيرة النبوية لابن هشام،** عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1375هـ /1955م.
- **الشريعة الإسلامية ودورها في تعزيز الأمن الفكري،** عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس، ب. ط، ب. س.
- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،**أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط4، 1407 هـ / 1987م.
- **عمدة القاري شرح صحيح البخاري،** أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى، دار إحياء التراث العربي بيروت.

- **الفكر طبيعته وماهيته،** عبد الكريم بكار، مقال نشر بمجلة البيان.
- **الفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم،** الحافظ أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له، محيي الدين ديب متو ويوسف علي يديوي وأحمد محمد السيد ومحمود إبراهيم نبال، دار ابن كثير دمشق بيروت، ط1، 1417هـ/1996م.
- **الفوائد،** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 1393 هـ /1973م.
- **القصة أثرها في تربية الطفل**، علي سعيد عبد المعز علي، عالم الكتب القاهرة، ط1، 2006م.
- **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته،** عباس فضل حسن، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع الأردن، ط1، 1407هـ.
- **القواعد الفقهية المتعلقة بالأمن الشامل**، الخادمي نور الدين، المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، المجلد 21، العدد 42.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل،** أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، 1407 هـ.
- **لسان العرب،**ابن منظور(ت 711هـ)، دار صادر بيروت، ط3، 1414 هـ.
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين،** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، 1416 هـ / 1996م.
- **مدخل إلى أصول التربية الإسلامية**، الدخيل محمد عبد الرحمان فهد، دار الخريجي للنشر والتوزيع الرياض، بدون ط، 1424هـ.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421 هـ / 2001 م.
- **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،**مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير،**أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس(ت: نحو 770هـ)، المكتبة العلمية بيروت.
- **معايير الأسلوب القصص في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية في تدريس التربية الإسلامية في الصفوف العليا،** رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، بكلية التربية قسم المناهج وطرق التدريس، جامعة أم القرى، الوادعي مسفر بن أحمد آل عاطف، سنة 1427هـ.

- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف،** محمد فؤاد عبد الباقي، تقديم منصور فهمي، دار الحديث القاهرة، نشر سنة 1364هـ.
- **معجم مقاييس اللغة،** أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ / 1979م.
- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة،** ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت.
- **المفردات في غريب القرآن،** أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق بيروت، ط1، 1412هـ.
- **ملامح الانفتاح الثقافي في الفكر التربوي الإسلامي،** إعداد الطالبة ناريمين فضل عدوان.
- **منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة،** محمد أمخزون، دار السلام القاهرة، ط3، 2006م.
- **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،**محمد بن علي بن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون بيروت، ط1، 1996م.
- **نحن والغرب،** الفاروقي إسماعيل راجي، دار البحوث العلمية، د.ط، سنة الطبع 1983م.
- **نحو تربية إسلامية راشدة من الطفولة حتى البلوغ**، الشريف محمد بن شاكر الشريف، مجلة البيان الرياض، سنة الطبع1427هـ.
- **هدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في التربية الإبداعية والابتكار،** موسى البسيط، جامعة القدس فلسطين.

الإستراتيجية الدينية المغربية لتحقيق الأمن الروحي

عبد العلي بلامين
(باحث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس)

مقدمة:

اقتضت حكمة البارئ سبحانه وتعالى أن ينعم المغاربة بالوحدة المذهبية عقديّاً وفقهيّاً وسلوكيّاً منذ قرون عديدة؛ إذ اختاروا في المُعتَقَدَات مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري، وفي العمليّات مذهب الإمام مالك، وفي الأدبيّات طريقة الإمام الجنيد، وهؤلاء الأعلام–أصحاب المذاهب-وُفّقوا في تقريب أحكام الشريعة الإسلامية بما وَرِثوه عن المصطفى صلى الله عليه وسلّم من علم خالص من شوائب الغلوّ والتطرّف، يَنفُون به عن الشّريعة تحريفَ الغَالِينَ، وانتِحالَ المُبطلينَ، وتأَويلَ الجاهلين.

وأصل هذا الاختيار المذهبي الموفّق أن المغاربة دأبوا على مراجعة وتصفية الوافدات الدينية والفكرية من مختلف الأقطار، لذلك لم يكن اختيار المغاربة الديني تشهّياً أو تبعيّةً عمياء، بل لما اختص به كل واحد منها من مزايا؛ فأمّا مذهب الإمام الأشعري في العقيدة، فمتميّز بترسيخ الأحكام العقدية في قلوب الناس استناداً إلى النّصوص الشرعية من القرآن الكريم، وصحيح الأحاديث النبويّة، وإلى قواطع الأدلة العقلية، فهو بذلك قائم على احترام النّص واحترام العقل الإنساني مناطِ التكليف، الذي أمر الله عز وجلّ في غير آيةٍ بتوظيفه في التأمّل والتّدبر والنّظر المُفضي إلى معرفته سبحانه وتعالى، كما مدح جل وعلا المتعقّلين أولي الألباب في مواضع كثيرة من الذكر الحكيم.

وأما مذهب الإمام مالك في الفقه، فمُتميّز بمرونته ووسطيته، وبقابليّته لاستيعاب الجزئيات المستجدة لما يقوم عليه من أصول نقلية، ومن قواعد منتظمة في نسق يجعل منها آلة اجتهادية عقلية متينة، أهلت فقهاء المالكية للتميّز في فنّ التقعيد الفقهي، وفي فقه النوازل الذي يُعنى بالنظر في المُستجدات الطارئة اجتهاداً بقصد إيجاد الأحكام الشرعية المناسبة لها.

وأما طريقة الإمام الجنيد في التصوّف فمتميّزة بتنمية النفس وتزكيتها تحقيقاً لأشواقها وفق قواعد التخلّق بالخُلق الحسن مع الخالق سبحانه وتعالى ومخلوقاته التي حث عليها متمم مكارم الأخلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين.

هذه المنظومة الدينية المنضبطة جعلت المغاربة على مرّ التاريخ مُتَّسمين باللُّحمة والانفتاح بتقبل الرأي الآخر، والتّسامح مع المُخالفين سواءٌ المُنتَمين منهم إلى المذاهب الإسلامية الأخرى، أو المنتمين إلى مختلِف الملل والنحل والإيديولوجيات.

ثم إن هذا الاختيار الموفّق حقّق الانسجام بين عُرى الدّين الثلاث، وجنب المغاربة فتن التعدّدية المذهبية، وفتن اللاّمذهبية التي لا تزال بعض الدول الإسلامية تكتوي بجحيمها.

وما كان لهذا الاختيار أن يستمرّ ويستتبّ دون جهود أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس–حفظه الله- الممثّلِ الأسمى للأمة ورمز وحدتها، حامي حِمَى الملّة والدين، الذي انتهج نهج سلفه الميامين في الحفاظ على المرجعية الدينية للأمة المغربية، معتمداً إستراتيجية دينية محكمة أهّلت المغرب ليكون أُنموذجاً دوليّا يُقتدى به في حُسن تدبير الشأن الدّينيّ، وفي صناعة الأمن الروحي وتوفير لقاحاته المضادّة للغلو والتطرف بمُختلِف أنواعه، وتصديرها.

وتقوم هذه الإستراتيجية الدينية المعتمدة في تدبير الشأن الديني وتحقيق الأمن الروحي على الركائز المؤسساتية الآتية:

أولا: مؤسسات التأطير الديني الرسمية (ذوات الوظيفة التأطيرية التكوينية)

نستحضر في هذا السياق **"جامعة القرويين":** وهي مؤسسة عمومية للتعليم العالي والبحث العلمي في مجال العلوم الشرعية والدراسات والفكر والحضارة الإسلامية.

وتهدف إلى:

- تكوين علماء وباحثين متخصصين في العلوم الشرعية والدراسات الإسلامية المعمقة.
- تكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات.

ويتم جميع ذلك وفق الثوابت الدينية والروحية للمملكة.

ومن المؤسسات التابعة لجامعة القرويين:

1. مؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط.

.2 معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية بالرباط.

.3 معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات بالرباط.

حيث يتم تأطير القيمين الدينيين المغاربة والأفارقة والأوروبيين[1]:

ويهدف هذا المعهد الذي دشّنه جلالة الملك محمد السادس في السادس من جمادى الثانية سنة 1436هـ، موافق 27 مارس 2015م، إلى الحفاظ على الثوابت الدينية والروحية للمملكة المتسمة بالوسطية والاعتدال، والمرسّخة لقيم التسامح والتعايش، والمحصّنة من نزعات التطرف.

ومن أهم المهام المناطة بهذا المعهد:

- تكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات، وتمكينهم من المناهج والمعارف التي تؤهلهم للقيام بالمهام الموكولة إليهم.

- تكوين وتأهيل واستكمال تكوين القيمين الدينيين الأجانب المنتمين إلى البلدان التي تشترك مع المغرب في المرجعية الروحية، مع احترام المقومات الخاصة بكل بلد يتكون منه أئمته.

ويتم في هذا المعهد تفويج الطلبة الأجانب حسب بلدانهم ويتلقون تكوينهم حسب برنامج يتضمن:

- أساسيات العلوم الدينية الضرورية للإمام.
- اللغات.
- بعض العلوم الإنسانية الضرورية.
- تاريخ البلد الأصلي للإمام ومؤسساته المحلية.
- تطبيقات في الإمامة والإرشاد والخطابة.

[1] انظر جميع المعلومات المتعلقة بهذا المعهد في الظهير الشريف رقم: 1.14.103 الصادر في 20 رجب 1435هـ (20 ماي 2014م) والمنشور في الجريدة الرسمية، عدد: 6268، 28 شعبان 1435هـ (26 يونيو 2014)، صص. (5470-5473).

وقد بلغ عدد الطلبة الإجمالي بالمعهد 961 طالبا برسم سنة 2016؛ شكل الطلبة المغاربة منهم نسبة (26%)، بينما توزعت باقي النسب (74%) كما هو موضح في المبيان الآتي[1]:

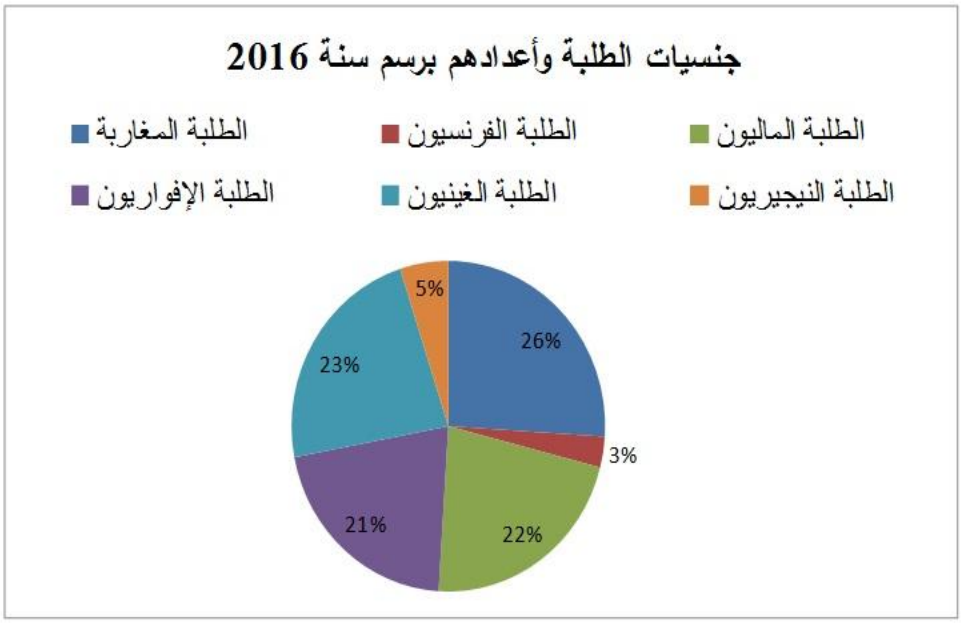

(صمم المبيان بناء على معطيات إحصائية واردة في صفحة معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات بموقع وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية)

.4 جامع القرويين للتعليم النهائي العتيق بفاس.

ثانيا: الرابطة المحمدية للعلماء[2]:

تسعى هذه المؤسسة من خلال مراكزها البحثية إلى التعريف بأحكام الشرع الإسلامي الحنيف ومقاصده السامية، ونشر قيم الإسلام السمحة، محافظة بذلك على الهوية الدينية والثقافية للمملكة المغربية ومؤمّنةً مختلف فئات المجتمع من اختراقات المتطرفين الفكرية التي أضحت تخرق الحدود الواقعية رقميا من دون جواز سفر.

[1] انظر: موقع وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية: www.habous.gov.ma
صفحة معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات، ضمن ركن: المؤسسات.

[2] موقع الرابطة المحمدية للعلماء: www.arrabita.ma

ويبلغ عدد المراكز البحثية التابعة للرابطة المحمدية للعلماء خمسة عشر مركزاً:

1. مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث.
2. مركز الدراسات القرآنية.
3. مركز الإمام أبي عمرو الداني للدراسات والبحوث القرآنية المتخصصة.
4. مركز ابن القطان للدراسات والأبحاث في الحديث الشريف والسيرة العطرة.
5. مركز عقبة بن نافع للدراسات والأبحاث حول الصحابة والتابعين.
6. مركز درّاس بن إسماعيل لتقريب المذهب والعقيدة والسلوك.
7. مركز الإمام أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية.
8. مركز البحوث والدراسات في الفقه المالكي.
9. مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة.
10. مركز الأبحاث والدراسات في القيم.
11. مركز أجيال للتكوين والوقاية الاجتماعية.
12. مركز الدراسات والبحوث في القضايا النسائية في الإسلام.
13. مركز علم وعمران للدراسات والأبحاث وإحياء التراث الصحراوي.
14. مركز ابن البنا المراكشي للبحوث والدراسات في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية.
15. مركز ابن أبي الربيع السبتي للدراسات اللغوية والأدبية.

وتتجلى قوة هذه المؤسسة في قدرتها على بناء الإنسان والحرص على تحصينه في مختلف مراحله العمرية والتلقينية من خلال إصدار كتابات رصينة في مختلف التخصصات الدينية والفكرية، وتوفير تكوينات لفائدة طلبة الجامعات المغربية، وإحداث مواقع ومنصات رقمية مُلبّية لهذه المقاصد. ونستحضر في هذا السياق "منصة الرائد الرقمية"[1] وهي عبارة عن منصة علمية تفاعلية تعتمد أربع لغات: العربية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية، للتعريف بأحكام الشريعة الإسلامية وبقيمها السّمحة، وبمقاصدها السامية، ولتقديم بدائل معرفية وعلمية في المجال الرقمي مُحصّنةً الشباب من الانحراف والتطرف.

[1] موقع منصة الرائد الرقمية: www.arrabitacademy.ma

وتعتمد المنصة نظاماً علميّا دقيقاً؛ إذ تعرض مواد مختلف المعارف بجرعات محدّدة كمّاً وكيفاً في محطات معرفية، تشتمل كل محطة منها على خمس وحدات، وتندرج في كل وحدة منها أربعة دروس؛ مدة كل درس من خمس دقائق إلى اثنتي عشرة دقيقة. ويسهم بهذه الدروس نخبة من العلماء والأساتذة الباحثين في مختلف العلوم الدينية والإنسانية.

هذا ولم تغفل الرابطة المحمدية للعلماء عن العناية بالنشء مستقبل الأمة، بترسيخ قيم النجاح فيهم وإعدادهم ليكونوا مواطنين نافعين فاعلين إيجاباً في النهضة الوطنية، معتزين بثقافتهم، وكذا بإشراكهم في تثقيف نظرائهم استناداً إلى نواد تربوية ترفيهية تشرف عليها "وحدة الفطرة"[1]، وأيضا بتفعيل مشروع **"إشراق"** الذي يهدف لتعزيز قيم التسامح والوسطية والاعتدال في صفوف المراهقين والشباب الأكثر عرضة للهشاشة، والذين تتراوح أعمارهم بين 10 سنوات إلى 19 سنة. ويشتغل بالموازاة مع ذلك مركز "أجيال للتكوين والوقاية الاجتماعية" الذي يروم تنمية مهارات الشباب وتأمينه نفسيّا، وتحصينه من مختلف السلوكيات الخطرة المهددة لاستقرار المجتمع مستهدفاً في الآن نفسه أبناء الجالية المغربية المقيمة بالخارج.

ثالثاً: المجلس العلمي الأعلى[2]

من أهم مهامه الاجتهاد والنظر في النوازل والمستجدات الطارئة على الناس لإصدار فتاوى رسمية بخصوصها بعد اجتماع هيأته العلمية المكلفة بالإفتاء، وهو بذلك يوصد أبواب الفتن التي قد تنتجها بعض الفتاوى الطائشة الصادرة عن غير المؤهلين للإفتاء، وعن ذوي الاتجاهات المتشددة المشوهة لتعاليم الإسلام السمحة.

كما يشرف المجلس على المجالس العلمية المحلية التابعة له التي تنظم أمور الوعظ والإرشاد والخطابة في كافة مساجد المملكة.

---

[1] موقع وحدة الفطرة: www.alfetra.ma

[2] - ظهير شريف رقم: 1.03.300 صادر في 2 ربيع الأول 1425هـ (22 أبريل 2004م) بإعادة تنظيم المجالس العلمية، نشر الجريدة الرسمية، عدد: 5210، 16 ربيع الأول 1425هـ (06 ماي 2004)، صص. (2177-2181).

رابعا: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية[1]:

مؤسسة ذات وظيفة إدارية؛ إذ تعنى أساساً ببناء العمران وتجديده، والإشراف على المؤسسات التكوينية وتدبير الموارد المالية والبشرية وغير ذلك من خلال المديريات الآتية:

- مديرية الأوقاف.
- مديرية الشؤون الإسلامية.
- مديرية المساجد.
- مديرية تدبير شؤون القيمين الدينيين.
- مديرية التعليم العتيق ومحو الأمية بالمساجد.
- مديرية الشؤون الإدارية والتعاون.
- مديرية الشؤون القانونية.

هذه أهم ركائز الإستراتيجية الدينية التي اعتمدها المغرب بقيادة رائدها جلالة الملك محمد السادس حفظه الله وأيّده، وتروم -وفق ما تقدّم- تشييد العمران المادي الحاضن، وبناء الإنسان عقديّاً وعمليّاً وسلوكيّاً وفق الثوابت الدينية والوطنية للمملكة المغربية الضاربة في عمق التاريخ ردحاً من الزمن.

وقد تمكنت هذه الإستراتيجية المحكمة –بفضل الله تعالى- من تحقيق الأمن الروحي للمغاربة ومحاصرة الفكر المتطرف حتى أضحى مفكّكاً ومنعزلاً، وهو ما أهّل المملكة المغربية لتكون أُنموذجاً دوليّا يُقتدى به في حُسن تسيير وتدبير الشأن الدّينيّ.

[1] موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: www.habous.gov.ma

المصادر والمراجع المعتمدة:

- ظهير شريف رقم: 1.03.300 صادر في 2 ربيع الأول 1425هـ (22 أبريل 2004م) بإعادة تنظيم المجالس العلمية، نشر الجريدة الرسمية، عدد: 5210، 16 ربيع الأول 1425هـ (06 ماي 2004)، صص. (2177-2181).
- ظهير شريف رقم: 1.14.103 صادر في 20 من رجب 1435هـ (20 ماي 2014م) في شأن إحداث معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات، نشر الجريدة الرسمية، عدد: 6268، 28 شعبان 1435هـ (26 يونيو 2014)، صص. (5470-5473).
- موقع الرابطة المحمدية للعلماء: www.arrabita.ma
- موقع منصة الرائد الرقمية: www.arrabitacademy.ma
- موقع وحدة الفطرة: www.alfetra.ma
- موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: www.habous.gov.ma

التصوف السنيّ وصيانة الأمن الروحي

محمد اسموني

(باحث في التاريخ جامعة القاضي عياض مراكش)

مقدمة:

يستمد الحديث عن التصوف السني ودوره في تحقيق الأمن الروحي مشروعيته على الأقل من اعتبارين أساسيين:

- **الأول**: أن التصوف في المنشأ سلوك وممارسة تستهدف الروح في المقام الأول؛ من حيث أنها تجربة روحية وتأمل وجودي وتحقق ذوقي شعوري غير مفصول عن عموم الدين، يرسّخ شعور الفرد بقدرته على الاتصال بالذات الإلهية وتحقيق العبودية لله وحده، وذلك أرقى مستويات الأمن الروحي، التي تنزل منزلة الحاجة بالنسبة للإنسان.

- **والثاني**: أن التصوف السّنيّ مقوم أساسٌ من مقومات الهوية الإسلامية، وأحد الثوابت التي طبعت تاريخنا؛ لدرجة يَعسُرُ معها قراءة فصوله دون استحضار الدور المركزي لأهل الولاية والصلاح في رسم معالمه الكبرى.

أولا: خصائص التصوف السني ودورها في التأمين الروحي:

لعل أسباب نجاح التصوف وصموده رغم ما اعترض أهله من عوائق ومضايقات تكمن أساسا في كونه ليس أسلوبا يرتضيه السالك في الحياة، بقدر ما أنه رؤية راقية لعلاقة المخلوق بخالقه أولا، ولنفسه ثانيا، وللعالم ولكل الموجودات. وبذلك انطبعت طريق القوم بخصوصية ميزتها عن الفئات الاجتماعية الأخرى، سواء العامة أو العالمة. وبذلك أهدى الصلاح للإنسانية جمعاء ثورة روحية لا مثيل لها أعلن فيه الإسلام عن روحانيته الصادقة[1].

[1] - عفيفي أبو العلا، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب للطباعة والنشر، بيروت، ص.97.

وهكذا اتسمت التجربة الصوفية بجملة خصائص، استهدفت في المقام الأول تأمين الجانب الروحي للمؤمن، بالقدر الذي يحمي عقيدته من كل أشكال الزيغ والتطرف والظلال، وهي خصائص نوجزها فيما يلي:

1. ارتباط التصوف بالعقيدة والفقه:

يعد التصوّف بالمبدأ من صميم الدين، فهو ليس نحلة أو عقيدة مستقلّة يرتضيها المرء على سبيل الكفر والمخالفة، بل إنه من علوم الشريعة الحادثة في الملّة، ونهج سلف الأمة وكبار الصحابة والتابعين، غير مفصول عن طريق الحق والهداية[1]. ولم يشد التصوّف السني عن هذه القاعدة، إذ نجده يرتبط وجوديا بالعقيدة الأشعرية والفقه المالكي؛ على أساس تكامل وتوافق[2]، عبَّر عنه الإمام ابن عاشر (990- 1040ه) في المرشد المعين بقوله:

في عقد الأشعري وفقه مالك **** وفي طريقة الجنيد السالك [3]

ويعد الجمع بين الشريعة والحقيقة مدارَ العرفان في التصوف السني وجوهره، وذلك ما يعبّر عنه القول المنسوب للإمام مالك (ت 179هـ/ 795م): «من تصوّف ولم يتفقّه فقد تزندق، ومن تفقّه، ولم يتصوف فقد تفسّق، ومن جمع بينهما فقد تحقّق[4]». وعلق الشيخ زرّوق (ت 899هـ/1494م)، على هذا الأمر بقوله: «**تزندق الأول** لأنه قال بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام. و**تفسّق الثاني:** لخلو عمله من التوجّه الحاجب منهما عن معصية الله، ومن الإخلاص المشترَطِ في العمل. و**تحقّق الثالث:** لقيامه بالحقيقة في عين التماسك بالحق[5]»؛ من ثمة كان سلوك

---

[1]- ابن خلدون عبد الرحمان(ت 808ه/1405)، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، منشورات بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،2005 ، ج3، ص، 49.

[2] راضي إسماعيل، «خصائص التصوف المغربي»، مجلة قوت القلوب، العدد الأول، رجب 1433ه/ يونيو 2012م، ص، 8-11.

[3] ابن عاشر عبد الواحد (990- 1040ه)، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين،تصحيح ومراجعة محمد خليل، دار المعرفة، الدار البيضاء، د.ت،ص، 3.

[4] زروق أحمد، (ت 899هـ/1494م)، قواعد التصوف، ضبطه وعلّق عليه محمد بيروتي، دار البيروتي، دمشق، الطبعة الأولى، 1424ه/ 2004م، ص، 15.

[5] زروق أحمد، (ت 899هـ/1494م)، قواعد التصوف،م.س، ص، 16. [5]

القوم مشروطا بالتفقه في الدين؛ إذ لا تصوف إلاّ بالفقه، الذي به تعرف أحكام الظاهر، ولا فقه إلاّ بالتصوف، الذي به يتحقق صدق العمل والتوجّه[1].

ومنح التصوف السني-بناء على ما تقدم - تعاليمه من القرآن الكريم وسنة الرسول الأمين صلّى الله عليه وسلم؛ فكانت طريق القوم مقيدةً بهما، مسدودةً على الخلق إلاّ على من اقتفى أثر رسول الله عليه الصلاة والسلام، فَمَنْ لم يحفظ القرآنَ، ولم يكتب الحديثَ لا يُقتدى به في هذا الأمر[2].

ونقرأ في رحلة ابن قنفد القسنطيني:

الفقـرُ إن فكّرتَ فيـه رأيته *** قـد دار بيـن قـواعـد متتاليه

فاطلبه في القرآن أو في سنّة *** واعضده بالإجماع واترك تاليه[3]

ولعلّ من جملة ما ترتب عن الاختيار المشار إليه سلفا أمران في غاية الأهمية:

- **الأول** بلورة تصوف سنيّ رافضٍ لكل أشكال الخروج عن الجماعة، ومتصدٍ لكل أشكال الزيغ والانحراف، متفوقٍ على بعض النزعات الفقهية الضيقة، التي آثرت التعلم على التربية، وعلى بعض المتكلمين المغالين في التطرف والسلوك[4]؛ فأمسى بذلك مراعاة الشعور السني العام واقعا متأصّلا ومميزا لتصوف أهل السنة[5].

- ويتجلّى الأمر **الثاني**: في أن الكثير من المتصوفة جمعوا بين الفقه والتصوف وعلوم أخرى متعددة؛ حتّى بات من العسير أحيانا عند مطالعة كتب المناقب والتراجم العامة الفصل بين

---

[1] المصدر السابق، إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، تحقيق وتقديم علي فهمي خشيم، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، طبعة 1399هـ/ 1979م، ص، 16.

[2] تراجع أقوال الجنيد في هذا الباب عند القشيري أبي القاسم (ت 465هـ/1073مـ)، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، منشورات مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1409هـ/ 1989م، ص، 79.

[3] ابن قنفد القسنطيني (ت 810هـ/1407-1408م)، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط،1965، ص،92 .

[4] الصغير عبد المجيد، « من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي»، ضمن الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، منشورات جامعة محمد الخامس، ك.أ.ع.إ، الرباط، سلسلة ندوات مناظرات رقم 69، ص ص، 269-277.

[5] التوفيق أحمد، مادة « التصوف بالمغرب »، ضمن معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، منشورات دار الأمان، الرباط، الطبعة الثانية، 1435هـ/ 2014 م، مجلد7، ص ص، 2391-2396.

المترجمين على سبيل الاختصاص، لدرجة يمكن معها القول أن التصوف أمسى مسلك الجمهور الكبير من المترجمين[1].

2. تصوف الأخلاق والرقائق:

استقرّ معظم سالكي التصوف السني على ما يعرف ب «تصوف الأخلاق والرقائق[2]»، وجعلوا الإمام الجنيد (ت 279هـ/892م) الذي عرفت مدرسته بالسلوك والأخلاق نموذجهم في ذلك؛ فكان التصوف عند أهل السنة: اجتناب كل خُلقٍ دني، واستعمال كلّ خُلق سنيّ، وأن تعمل لله، ثم لا ترى أنّك عملتَ، وفي ذلك يقول الجنيد: «التصوف خُلقٌ، ومن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في التصوف»[3]؛ وهذا الاختيار من صميم ما جاء به الرسول الكريم الذي بعثه ربّه ليتمم مكارم الأخلاق.

3. الوسطية والاعتدال:

تبقى الأطراف في الغالب الأعم عرضة للخطر والفساد، بخلاف الوسط الذي يظل محميا ومُصانا[4]، فكان ملاذ من طلب التوازن النفسي والأمن الروحي، سيما وأن الله عزّل وجلّ جعل هذه الأمة أمّة وسطا، وذلك ما أخبر به التنزيل: «﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[5]». وقد عرف مفهومُ الوسطية تحولات عدة حسب الشروط الزمنية والتحديات التي واجهت الأمة المحمّدية، ليستقر مؤخرا في مواجهة الأصولية والتيارات التكفيرية، وذلك من خلال نبذ العنف، والإيمان بالتغيير السلمي، وبالحكمة

---

[1] نقصر نظرنا في هذا الباب على التمثيل بما جاء في مقدمة التشوف، حيث يقول ابن الزّيات: «وسميتُ هذا الكتاب بالتشوف إلى رجال التصوف وعن كان مشتملا على أضراب من أفاضل العلماء والفقهاء والعبّاد والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب أهل الفضل، فإن اسم الصوفي يصدُق على جميعهم بوضع هذا الاسم عند المحقّقين ». ابن الزيات يوسف التادلي (ت 617هـ/1220م)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات جامعة محمد الخامس، ك.أ.ع.إ، الرباط، نصوص ووثائق1، الطبعة الأولى، 1404 هـ/1984م، ص، 34.

[2] الفاسي علال، التصوف الإسلامي في المغرب العربي، إعداد عبد الرحمان بن العربي القريشي، منشورات مؤسسة علال الفاسي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1435هـ/ 2014م، ص ص، 14-15 .

[3] الطوسي أبو نصر السرّاج (ت 378هـ/988م)، اللمع، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، طبعة 1423هـ/ 2002، ص296.

4 القرضاوي يوسف، كلمات في الوسطية الإسلامية ومعالمها، منشورات دار الشروق، القاهرة، طبعة 2008، ص، 18.

5 سورة البقرة، الآية 143.

والاستقامة والخيرية...[1]. فعلى عكس بعض التيارات الأخرى ارتضى أهل السنة تصوفا عمليا؛ قائما على الزهد والعبادة، بعيدا عن كل النزعات الفلسفية والكلامية. ويعتبر أهل المغرب نموذجا متميزا في هذا الباب، ولعلَّ مرجع ذلك أساسا إلى موقع بلادهم الجغرافي والمذهب المالكي الذي ارتضوه[2]، واستطاع التصوف في ظل هذا المناخ السني أن يضمن لنفسه كل شروط الوسطية والاعتدال.

4. العملية والواقعية:

والقصدُ بهما نزوع التصوف السني إلى الجمع بين العبادة والعمل؛ فأهْلهُ لم ينشغلوا بالمقولات الفلسفية الباطنية، بل إن الجم الغفير منهم تمتعوا بالعضوية الاجتماعية كاملة غير منقوصة، وحجتنا في هذا القول ما اتفق لصلحاء المغرب- على سبيل التمثيل- عبر التاريخ منذ بداية هذا السلوك في القرن 6هـ/12م من أدوار مجتمعية، وما امتهنوه من حرف. وباتت هذه النزعة العملية أكثر وضوحا مع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي (ت70-869 هـ/1466م)، الذي كان يدعوا أصحابه إلى نبذ البطالة وطلب الرزق؛ فباتوا يؤثرون« العافيةَ والأسبابَ والخدمة[3]»، ولذلك«لا تجد أحدا منهم يتعرّض للسلطان ولا لغيره لينال من دنياه، ولكن مشغولا بسبب، أو مُكتف بما عندهُ من أسباب الدنيا [4] ». يتعلّق الأمر إذن بنزعة عملية نفعية وواقعية، تكيفت مبدئيا مع حاجات المرحلة الجديدة، واستجابت لأساليب التديُّن القاعدي للمعتقدين، وارتقت عمّا وسمه البعض «مبدأَ الترقي الصّوفي ونقاوته الأصلية[5]»، وظل ينافح عنه وينتقد الجزولية بناء عليه. واتسمت التعاليم الصوفية

[1] القادري بوتشيش إبراهيم، « ثقافة الوسطية في التصوف السني بالمغرب»، ضمن: التصوف السني في تاريخ المغرب، نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، سلسلة شرفات، عدد27، منشورات الزمن، الدار البيضاء، ص ص،15-56.

[2] الصغير عبد المجيد، «من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي»، م.س، ص ص، 269-277.

[3] زروق أحمد، عدّة المريد الصادق، تحقيق الصادق بن عبد الرحمان الغرياني، دار ابن حزم، بيروت الطبعة الأولى، 1427هـ/ 2006م، ص،78.

[4] المرجع السابق، ص.100.

[5] عيسى لطفي، مغرب المتصوفة (الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي) من القرن 10م إلى القرن 17 م، مركز النشر الجامعي، تونس، طبعة 2005، ص، 254.

الجزولية بالبساطة وبنزعة توفيقية بين الحياة العملية اليومية، والحياة الفوقية، تجلّى ذلك فيما قصروا عليه سلوكهم من أذكار بسيطة وأدعية معينة وموقوتة[1].

ثانيا: التربية الصوفية مدخل أساس لتحقيق الأمن الروحي:

ما من شك أن التصوف اليوم بات حاجة أساسا لتحقيق التوازن والانسجام مع فطرة الإنسان، وتجاوز كل أشكال الضغط النفسي، سيما مع تعاظم الشهوات، وانهيار منظومة القيم والأخلاق، فسلوك القوم بمقدوره اليوم أن يمدَّ الإنسان بطاقة وجدانية تحرّره من أغلال النفس، وقادر بمنهجه الوسطي أن يقدم درسا في التعايش السلمي والتسامح والحوار والمحبّة. وأهلية التصوف لتحقيق هذه الغايات تتجلّى في التربية الصوفية؛ والتي تقترح منهاجا متكاملا يقترح أشكالا متعددة من التزكية، تجمع بين ما هو عقدي مستمد من القرآن الكريم ومن السنة المحمدية، وتقترح في الوقت ذاته جملة من السلوكات العملية القمينة بالرقي بالذوق والإحساس. والناظر في هذا المنهاج يلاحظ أنه يراهن ابتداءً على تأطير الفرد بغاية تيسير اندماجه الإيجابي في جماعة المؤمنين، ثم يستهدف الجماعة المؤمنة عبر الدعوة إلى سلوكيات تضمن استمراريتها وتقوي مناعتها الأخلاقية.

1. التربية الصوفية والأمن الروحي للفرد:

من الثابت أن جميع التكاليف الشرعية التي يتعبّد بها الإنسان في خاصة نفسه، مرجعها إلى شيئين اثنين: أولا أحكام تتعلق بالأعمال الظاهرة، وهي أحكام العبادات والعادات والمتناولات. وأحكام تتصل بالأعمال الباطنة، وهي الإيمان وما يتصرّف في القلب، وما يتلّون فيه من الصفات، إمّا محمودة: كالعفّة والعدل والشجاعة والكرم والحياء والصبر... أو مذمومة: كالعُجبِ والكبر والرّياء والحسد والحقد..وهذا النوع أهم من الأول عند الشارع، لأن الباطن سلطان الظاهر، والأعمال الباطنة مبدأ في الأعمال الظاهرة، فإذا كان الأصل صالحا كانت الآثار صالحة[2]. وراهنت التربية الصوفية أساسا- من أجل ذلك- على تزكية النفس وتطهير القلب، عبر منهاج متكامل يسمو بالفرد ويحفظ توازنه الروحي.

---

[1] الشاذلي عبد اللطيف، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 4، 1989، ص، 156.

[2] ابن خلدون عبد الرحمان، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1417هـ/ 1996م، ص، 37.

أ – تزكية القلب بالأخلاق:

تعد التزكية شطر الإيمان، وكمال القلب لا يتحقق إلا بتزكيته عمّا لا يحبه الله تعالى، لذلك جعل المتصوفة مبدأها الوعي بمذموم الأخلاق؛ وقد أرجع الغزالي شعبها إلى عشرة أصول: **شره الطعام**؛ و**شره الكلام**، و**الغضب**، و**الحسد**، و**البخل** و**حب المال**، و**الرعونة** و**حب الجاه**، **وحب الدنيا**، و**الكبر**، و**العُجب**، و**الرياء**[1]. وبلسمُها عشرةٌ محمودة من صميم كتاب الله وسنة رسوله الأكرم، وهي:

- **التوبة**: وتعتبر مبدأ طريق السالكين ومفتاح سعادة المربين، الذين اختصهم الله بمحبته فقال: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[2]، فدعا جميع المؤمنين إليها، سيما الرّاغبين في الفلاح، فقال: ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[3]، وحقيقتها الرجوع إلى الله، وذلك بالتلبس بما كان محمودا في شرعه، والابتعاد عمّا كان مذموما. وللتوبة شروط ثلاثة: الندم على ما فات، وترك الزلل في الحال، والعزم على عدم العودة[4].

- **الخوف**: جمع الله للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان فقال سبحانه: "﴿**هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون**﴾[5]، والخوف رأس الحكمة لقوله (ص): «**رأس الحكمة مخافة الله**[6]» ، ولا يتحقق إلا بمعرفة الله تعالى، وجعله أبو علي الدّقّاق على مراتب ثلاثة[7]: أولها أن الخوف ومن شروط الإيمان وقضيته، وذلك لقوله عزّ وجل: ﴿**وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾[8]، وثانيها الخشية

---

[1] الغزالي أبو حامد محمد(ت 505هـ/1112م)، كتاب الأربعين في أصول الدين في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق، عني به وصححه عبد الله عبد المجيد عرواني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2003م، ص ص، 112- 185.

[2] سورة البقرة، الآية 222.

[3] سورة النور، الآية 31.

[4] القشيري أبو القاسم (ت 465هـ/ 1073م)، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، منشورات مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1409هـ/ 1989م، ص ص، 178-179.

[5] سورة الأعراف، الآية 154.

[6] البيهقي، الجامع لشعب الإيمان/ 714 وضعّفه، بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلبادي/283.

[7] القشيري، الرسالة القشيرية، م.س، ص، 235.

[8] سورة آل عمران،الآية185.

وهي من شروط العلم، لقوله عزّ من قائل: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[1]، وثالثها الهيبة وهي من شروط المعرفة، يقول عز وجل ﴿ويحذركم الله نفسه﴾[2].

- **الزهد:** وحقيقته عزوف النفس عن الدنيا وانزواؤه عنها طوعا مع القدرة عليها، وأصله العلم الذي يشرق في القلب حتّى ينشرح به الصدر. وأوجزه ابن الجلاء بقوله: «الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، لتصغر في عينك فيسهل عليك الإعراض عنها[3]»

- **الصبر:** حقيقته ثبات باعث الدين في مقابل باعث الهوى، وهو نوعان: صبر على ما هو كسبٌ للعبد، وصبر على ما ليس بكسب له؛ فالأول على قسمين: صبر على ما أمر الله تعالى به، وصبر على ما نهى عنه. أما الصبر على ما ليس بمكتسب، فيكون بالصبر على مقاساة ما يتصل بحكم الله تعالى[4].

- **الشكر:** وهو من أعلى المقامات السابقة لأنّه مقصود في نفسه غير منقطع في الدنيا والآخرة، يقول الحق سبحانه: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾[5]، وحقيقته عند أهل التحقيق: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع. وهو على أقسام:

شكر باللسان: وهو اعتراف بالنعم بنعت الاستكانة.

شكر بالبدن والأركان: وهو اتصاف بالوفاء والخدمة.

شكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود[6].

- **الإخلاص والصدق:** يقوم الإخلاص على ثلاثة أركان؛ أولها النية وهي أصله، والمقصود بها ابتغاء وجه الله تعالى، الذي يقول: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون

---

[1] سورة فاطر، الآية 68.

[2] سورة آل عمران، الآية 28.

[3] القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، م.س، ص، 324.

[4] القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، م.س، ص،324.

[5] سورة يونس، الآية 10.

[6] القشيري، الرسالة القشيرية، م.س، ص، 311.

وجهه﴾[1]، وبها يتحقّق تمام الأعمال. وثانيها: نفيُ الشوبِ وهو حقيقته، والثالث الصدق وبه يكتمل الإخلاص.

- **التوكّل:** وهو حالة تصدر عن التوحيد، وتظهر آثارها على الأعمال، ويقوم على ثلاثة أركان: المعرفة وهي الأصل وتعني التوحيد، لأن من يتوكل على الله لا يرى فاعلا سواه، ثم حال التوكّل أي أن تطمئن نفسك بالتوكل على الله، والثالث العمل، ومعناه أن التوكل مشروط بالعمل والكسب.

- **المحبة:** فالعارف لا يحبّ أحدا إلا الله، وإن أحب غيره؛ فإنه يحبّه لله عزّ وجل. والمحبة حالة شريفة، شهد الحق بها سبحانه للعبد، وأخبر عن محبّته للعبد. وسئل الجنيد عن المحبّة فقال: **«دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحبّ»**[2]

- **الرضا بالقضاء:** جعله أهل العرفان باب الله الأعظم، فمن أُكرم بالرضا فقد لقي بالترحيب الأوفى، وأُكرمَ بالتقريب الأعلى، وهو مشروط بالأخذ بالأسباب. ولا يكاد العبد يرضى عن الحق سبحانه، إلاّ بعد أن يرض عنه الرحمان، جاء في التنزيل: ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾[3].

- **ذكر الموت:** تتحقق في ذكرها فائدتان: الشوق على الآخرة والنفرة من الدنيا.[4]

ب- تزكية القلب بالذكر:

من باب المعلوم أن القلب أساسُ الخير والشرّ، وحياته وموته مفتاحُ النفع والضرر، والقلوب على ثلاثة أنواع:

- **الأول** قلب في حياته صحيح، وفي خطابه فصيح. فصاحبه ينطق بالحكمة وينهض في كل ملمّة.

- **والثاني:** لا حياة فيه، لا يقبل التذكير والتنبيه واتباع الحق كلّه.

---

[1] سورة الأنعام، الآية 52.

[2] القشيري، الرسالة القشيرية، م.س، ص، 521.

[3] سورة البينة، الآية 8.

[4] الغزالي، كتاب الأربعين في أصول الدين في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق، م.س، ص ص، 191-289.

- **والثالث:** اعترتهُ في حياته أمراض، وهو الذي يُقصَد بالمداواة، رجاء استقامته.

وجُعلَ دواء القلب وصفا في أمور ثلاثة: أولها: حمية البدن بالتقلل من الطعام، على وجه لا يخل بالفكرةِ ولا بالمنامِ، وثانيها: استنشاق روائح الصدق بمخالطة أهله، وثالثها: استعمال الدواء الدافع، بتذكار المهالك والمقاطع[1].

ولمّا كانت تزكيةُ القلب تتفق بالذكر؛ فإن الفكر الصوفي أولى كبير عناية لهذا السلوك، فأنزله منزلة الركن الأعظم في طريق الحق عزّ وجل، لا يصل أحد إلى الله إلاّ بالمداومة عليه. والذكر على وجهين: ذكر اللسان وذكر القلب؛ فذكر اللسان يصل به العبد إلى استدامة ذكر القلب. والتأثير لذكر القلب؛ فإذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه. يقول أبو علي الدقّاق: «الذكر منشور الولاية، فمن وُفقَ للذكر؛ فقد أُعطي المنشور، ومن سلب الذكر فقد عُزل[2]».

﴿﴾ومن نظم الشلبي نقرأ:

ذكرتــكَ، لا أنّي نســيتكَ لمحــةً ... وأيسرُ ما في الذكرِ ذكرُ لساني
وكدتُ بلا وجدٍ أموتُ من الهوى ... وهــامَ عــلى القلــبِ بالخفقــانِ
فلمّــا أراني للوجــدِ أنــكَ حــاضري ... شــهدتكَ موجــودا بــكلّ مــكان
فخاطبــتُ موجــوداً بغــيرِ تكلّــمٍ ... ولاحظــتُ معلومــا بغيرِ عيــانٍ[3]

من خصائص الذكر أيضا أنه غير مؤقّت وذلك لقوله سبحانه: ﴿**الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم**﴾[4]، وإذا تمكن من القلب ودنا منه الشيطان صرع. وجعله أرباب البصائر أفضل الأعمال؛ وله قشور أربعة: أولها ذكر اللسان، وثانيها: ذكر القلب لأنه يحتاج إلى مراقبة، وثالثها: أن يَستمكن الذكر من القلب، حتى يصعب عليه الابتعاد عنه، والرابع بأن يستمكن المذكور من القلب ويستغرق جملته، وهو ما يسِمهُ العارفون بالفناء[5].

---

[1] زروق أحمد، إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، م.س، ص ص،39-40.
[2] القشيري، الرسالة القشيرية، م.س، ص، 383.
[3] ن.م، ص، 384.
[4] سورة آل عمران، الآية 191.
[5] الغزالي،كتاب الأربعين في أصول الدين في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق، م.س، ص ص، 191- 295.

ج- تزكية النفس بالمجاهدة:

وضع الغزالي منهاجا للعابدين، قوامُه سبعُ عقبات، واختطّ مسالك عملية لتجاوز كلّ منها، وبَيَّنَ ما يحتاجه السالك من العدّة والحيلة لتحقيق ذلك، واعتبر العقبة الثالثة أشقَّها على الإطلاق، بالنظر لما تحويه من عوائق أخطرُها النفس، لأنها على ضد الخير والهوى، لذلك تبدو الحاجةُ ملحة للجْمها بلجام التقوى[1]، فهي « أضرُّ الأعداء، وبلاؤها أصعب بلاء، وعلاجها أعسر الأشياء، ودواؤها أعضل الداء، ودواؤها أشكل الدواء»، وعلّة ذلك أنها عدوّ مَحبوب من داخل الجسد، قد يعْمى الإنسان عن عيوبه؛ لذلك ينصح القومُ بتزكيتها عن طريق المجاهدة، وأصلها فطمُ النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات[2].

فَجاهدِ النفسَ في هواها *** لعلها منكَ تستريحُ

وكيف تُثْني عنانَ نفسٍ *** لها إلى غَيِّها جُنوحُ[3]

2- التربية الصوفية والأمن الروحي للجماعة.

لا شك أن التربية الصوفية بناء على ما تقدم تستطيع أن تقدم للمجتمع أفرادا يتمتّعون بكفاءات خلقية وبمناعة روحية سامية، ولكن هذا الأمر ليس منتهى التصوف وغايته، لأنّ المشروع الصوفي في المنشأ دو نزعة جماعية، جعل وحدة الأمة وأمنها الروحي قضية القضايا، وذلك ما عبّرت عنه مجموع المقاصد المجتمعية التي نهض بها أهل الصلاح، وأعطت للولاية الصوفية مدلولها الحقيقي. وتتجلّى هذه النزعة الجماعية أيضا في مجموعة من الاختيارات التربوية في الجوهر، والتي تستهدف الجماعة المسلمة، وهي على ما يبدو ذات بعد كوني، نختار منها ما يلي:

أ-الابتعاد عن الغلو والتطرف: جعل ابن خلدون أصل طريق القوم العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة، وكان ذلك عاما من الصحابة والسلف[4]. وسار

---

[1] المرجع السابق، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، تحقيق محمود مصطفى حلاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1409هـ/ 1989م، ص، 53.

[2] تراجع أقوال المتصوفة في الباب الذي أفرده القشيري للمجاهدة: رسالة القشيري، ص ص، 187-193.

[3] ابن الزيات، التشوف، ص، 376.

[4] ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، م.س، ج3، ص، 49

أهل التصوف السني على هذا الهدي؛ فلم يسقطوا في شراك التفلسف والكلام، وابتعدوا عن الغلو المخالف للسنة. ولم يتجاوز تصوّفهم حد العبادة والزهد، وتجاوزوا المبالغة في قهر شهوات النفس، باستثناء ما يفيد في الرياضة الروحية. ونظير ذلك ما حفلت به مناقب الرعيل الأول من الصلحاء المغاربة من قيم التضامن، مثل أبي يعزى يلنور(ت .572 هـ/1177م) وأبو الحسن علي بن حرزهم (ت. 559ه / 1164م)... ويعود ذلك أساسا إلى اغترافهم من معين التصوف السنّي المعتدل، الذي أرساه متصوفة ساروا على سبيل سلف الأمة، أمثال أبي القاسم الجنيد المذكور سلفا، وأبي طالب مكي(ت. 386ه/ 996م)، وأبي القاسم القشيري (ت.465ه/1073م). ولعبت الوحدة المذهبية للمغاربة دورا أساسا في هذا الاعتدال، انخرط فيه الفرد ضمن دينامية جماعية اتسمت بالطّابع الاجتماعي والأخلاقي المنفتح[1].

ب-محاربة البدع: أصل البدعة إحداث أمر في الدين يشبه أن يكون منه، وليس منه، سواء كان بالصورة أو بالضّرورة، لقوله (ص): «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد[2]»، وحماية للمعتقد الجماعي تصدى بعض المتصوفة للابتداع، فوقفوا على خواصه، وحققوا موازينه، وجعلوا أصوله على ثلاثة: أولها نقص الإيمان بعدم العلم بحرمة الشرع، والثاني: الجهل بأصول الطريقة والاعتقاد أن الشريعة خلاف الحقيقة، والثالث: حب الرياسة مع الظهور، مع الضعف عن أسباب القصور، فيضطرهم ذلك إلى الابتداع لاستمالة القلوب. وللخروج من هذه المعضلة، اقترح الشيخ زروق: تصحيح الإيمان، والبحث عن أحكام الله فيما هو به حركة وسكون، والعلم بأصول الطريقة التي يتبعها السالك[3]، ووضع الصوفي ابن الحاج العبدري **(ت 737هـ/** 1337م) مصنفا في البدع محذرا من خطورتها على عقيدة الأمة[4].

---

[1] البركة محمد، « التصوف السني بالمغرب مقدمات في الفهم والتأصيل»، م.س، 57- 102.

[2] صحيح مسلم 3344/سنن أبي داود 4053/ سنن أبي ماجة 14.

[3] زروق أحمد، عدة المريد الصادق، تحقيق الصادق بن عبد الرحمان الغرياني، منشورات دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1427ه/ 2007م 44-48

[4] ابن الحاج محمد العبدري (ت 737هـ)، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض العوائد، مكتبة دار التراث القاهرة، الطبعة الأولى، د.ت.

ت-الثبات على الحق: جعل ابن الزيات صلاح المغاربة وجعلها من وجوه ثباتهم على الحق، كما جاء في الحديث الشريف: «**لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة**[1]»، ويكون الثبات على الحق باتباع الطريق المستقيم، ويستعان فيه بالعلوم والقواعد والكتب المفيدة[2].

ث-إشاعة ثقافة النصيحة: تعد النصيحة من صميم الدين، لقوله(ص): « **الدين النصيحة قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ورسوله ولكتابه ولعامة المسلمين وخاصتهم**[3]»، والتحقق بها من علامات اليقين، والنصيحة لله تكون باتّباع أمره، ونصرة دينه، والتسليم له في حكمه. والنصيحة لرسوله (ص) تتفق باتّباع سنته وإكرام **قرابته والشفقة على أمته. والنصيحة لكتابه، تكون بتدبّر آياته، واتباع مأموراته ... والنصيحة** للخاصة تكون بإطاعة أولي الأمر، إلا في محرم اتفق عليه الإجماع، والتصديق للعلماء إلا فيما لا يهدي العلم إليه، وللفقراء بالتسليم فيما لا إنكار عليه. وقيل للجنيد رحمه الله تعالى يسألك الرّجلان عن المسألة الواحدة فتجيب هذا بخلاف ما تجيب هذا؟ قال: الجواب على قدر السائل، قال (ص): أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم[4].

ج- الفتوة: وأصلها أن يكون العبد ساعيا في أمر غيره، ومصداق ذلك قوله (ص): «**لا يزال الله تعالى في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم**[5]». وهي دعوة إلى التآزر وبذل النفس في سبيل سعادة الآخر ومصلحته. وتكون الفتوة أيضا بالصفح عن عثرات الإخوان، وأن لا ترى لنفسك فضلا عن غيرك، والفتى من لا خصم له، وأن تكون خصما لربك على نفسك، وأن تنصِف ولا تُنصف، وأن لا تنافر فقيرا، ولا تعارض غنيا، وهي كف الأذى وذل الندى...[6].

---

[1] ابن الزيات، التشوف، ص، 31.

[2] زروق أحمد، عدة المريد، ص، 181.

[3] أخرجه مسلم، حديث 55، وأبو داود كتاب الأدب/ باب في النصيحة حديث 4944، وأخرجه النسائي في كتاب البيعة / باب النصيحة للإمام، حديث 4208. قال النووي وهذا الحديث من أفراد مسلم، وليس لتميم الداري في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء، ولا له في مسلم عنه غير هذا الحديث.

[4] زروق، قواعد التصوف، م.س، ص، 30.

[5] أبو نعيم، حلية الأولياء، 3/49، غريب من حديث ابن عون عن أبي هريرة مرفوعا.

[6] القشيري، الرسالة القشيرية، م.س، ص ص، 390-394

وتتجلّى فتوة الصلحاء المغاربة فيما اتفق لهم من أدوار مجتمعية في هيأة مقاصد حفلت بها كتب المناقب، منها مقصد الإطعام والإعمار والجهاد وتأمين السبل، وتمكين المسلمين من أداء مناسك الحج كما هو الأمر بالنسبة للشيخ أبي محمد صالح الماجري[1]...

-إشاعة ثقافة التسامح وقبول الاختلاف: من أخص الخصائص التي طبعت التصوف السني تبنيه لقيم التسامح والمحبة وقبول الاختلاف، وهي كلها مستمدّة من كتاب الله وسنّة رسول الله (ص)، ويختزل هذه الأمر وصف الإمام الجنيد للصوفية بأنها « **كالأرض يطأها البرّ والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي كل شيء**[2] ». وتعزى سماحة التصوف مبدئيا إلى طبيعة التربية الصوفية التي تستهدف تطهير النفس من أدرانها، والقلب من أوهامه، وذلك نجح التصوف أن يستقطب مريديه من مختلف الشرائح الاجتماعية، حتى تحول في بعض الحقب إلى مسلك للارتقاء الاجتماعي.

خاتمة: حاولت هذه الورقة ملامسة بعض الجوانب التي أسهمت بها قيم التصوف السني في صيانة الأمن الروحي للمسلم، وهو أمر يدعو أساسا إلى ضرورة إحياء هذا الموروث الحضاري، واستلهام أنويته الطيبة لصيانة النموذج الحضاري الذي أرساه السلف الصالح بكل تميز في الخارطة الروحية للعالم الإسلامي، وهو طموح عبرت عنه الرسالة الملكية السامية إلى المشاركين في الدورة الوطنية الأولى للقاء سيدي شاكر، حيث نقرأ منها:

«إننا على يقين أن الرصيد الحي، الذي ورثه كل المنتسبين إلى التصوف، يتضمّن القدرة على الاستمرارية في صيانة الثوابت في العقيدة والمذهب، والولاء لإمارة المؤمنين. والتجديد في المبادرات والسلوك التي جعلت من أبناء الزوايا أبناء وقتهم، ونماذج في القدوة وفي المسارعة إلى النفع، على النمط الذي أكسب هذه المؤسسة هيبة وقدسية وتبجيلا، ومصدرا للخير العميم. فهو مورد كَرَعْنا منه بالأمس، فما أحوجنا إلى النهل من معينه في الحاضر والمستقبل، على ما عهد في أصحابه من التجرّد الذي لا تشوبه شائبة من الأطماع، ولا تكدّره نوازع الأهواء»

[1] الذهبي نفيسة، أبو محمد صالح الماجري الشيخ والتجربة، مطبعة الرباط نت، الطبعة الأولى، 2016.
[2] القشيري، الرسالة القشيرية، م.س، ص، 281.

المصادر والمراجع المعتمدة:

- ابن الحاج محمد العبدري (ت 737هـ/ 1337)، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض العوائد، مكتبة دار التراث القاهرة، الطبعة الأولى، د.ت.
- ابن الزيات يوسف التادلي (ت 617ه/1220مـ)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات جامعة محمد الخامس، ك.أ.ع.إ، الرباط، نصوص ووثائق1، الطبعة الأولى، 1404هـ/1984م.
- ابن خلدون عبد الرحمن (ت 808هـ)، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، منشورات بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء،،2005.
- ابن خلدون عبد الرحمن شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1417هـ/ 1996م
- ابن عاشر عبد الواحد (990- 1040ه)، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، تصحيح ومراجعة محمد خليل، دار المعرفة، الدار البيضاء، د.ت.
- ابن قنفد القسنطيني (ت 810هـ/1407-1408م)، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.
- البركة محمد، « التصوف السني بالمغرب مقدمات في الفهم والتأصيل»، ضمن التصوف السني في تاريخ المغرب، نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، سلسلة شرفات، عدد27، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 57- 102.
- التوفيق أحمد، مادة « التصوف بالمغرب »، ضمن معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، منشورات دار الأمان، الرباط، الطبعة الثانية، 1435هـ/ 2014 م، مجلد 7، ص ص، 2391-2396.
- راضي إسماعيل، « خصائص التصوف المغربي»، مجلة قوت القلوب، العدد الأول، رجب 1433ه/ يونيو 2012م، ص ص، 8-11.
- الرسالة الملكية السامية إلى المشاركين في الدورة الوطنية الأولى للقاء سيدي شاكر 19 شتنبر 2008.
- زروق أحمد، (ت 899هـ/ 1494م)، إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، تحقيق وتقديم علي فهمي خشيم، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، طبعة 1399ه/ 1979م.
- زروق أحمد، عدة المريد الصادق، تحقيق الصادق بن عبد الرحمان الغرياني، منشورات دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1427 ه/ 2007م .

- زروق أحمد، قواعد التصوف، ضبطه وعلّق عليه محمد بيروتي، دار البيروتي، دمشق، الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2004م.
- الشاذلي عبد اللطيف، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 4، 1989
- الصغير عبد المجيد، «من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي»، ضمن الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، منشورات جامعة محمد الخامس، ك.أ.ع.إ، الرباط، سلسلة ندوات مناظرات رقم 69، ص ص، 269-277.
- الطوسي أبو نصر السرّاج(ت 378هـ/988م)، اللمع، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، طبعة 1423هـ/ 2002.
- عفيفي أبو العلا، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
- عيسى لطفي، مغرب المتصوفة (الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي) من القرن 10م إلى القرن 17 م، مركز النشر الجامعي، تونس، طبعة 2005.
- الغزالي أبو حامد محمد (ت 505هـ/1112)، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، تحقيق محمود مصطفى حلاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1409هـ/ 1989م.
- الغزالي أبو حامد، كتاب الأربعين في أصول الدين في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق، عني به وصححه عبد الله عبد المجيد عرواني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2003م، ص ص، 112-185
- الفاسي علال، التصوف الإسلامي في المغرب العربي، إعداد عبد الرحمان بن العربي القريشي، منشورات مؤسسة علال الفاسي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1435هـ/ 2014.
- القادري بوتشيش إبراهيم، « ثقافة الوسطية في التصوف السني بالمغرب»، ضمن: التصوف السني في تاريخ المغرب، نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، سلسلة شرفات، عدد27، منشورات الزمن، الدار البيضاء، صص، 15-56.
- القرضاوي يوسف، كلمات في الوسطية الإسلامية ومعالمها، منشورات دار الشروق، القاهرة، طبعة 2008.
- القشيري أبو القاسم (ت 465هـ/ 1073مـ)، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، منشورات مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1409هـ/ 1989م.

إمارة المؤمنين والأمن الروحي...أية علاقة

د. عبد الصادق بطني
(جامعة محمد الخامس الرباط)

مقدمة:

لقد ظل المغرب ولا يزال يتميز بخصوصية في اختياراته الدينية والسياسية، والمتمثلة أساسا في العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي والتصوف الجنيدي وإمارة المؤمنين، هذا الاختيار أصبح قاعدة ثابتة تفرعت عنه جميع مظاهر التدين في المغرب، أهمها تحقيق الأمن الروحي للمغاربة.

والمراد بالأمن الروحي هو"جعل النفس البشرية تأمن باعتقادها وإيمانها"، وبتعبير آخر: "تحقيق ما تأمن به النفس البشرية بدينها"[1]، والأمن الروحي كالأمن القومي من حيث كونهما يتألفان من موصوف وصفة: "الأمن" و"روح"، والأمن القومي من موصوف "أمن" وصفة "قوم" وإن كان الأمن القومي يحمل دلالة سياسية والآخر يدخل ضمن حقل الدين.

فإذا كان الأمن القومي يدخل في الدراسات المرتبطة بعلم الجغرافيا السياسية والتاريخ والفلسفة، ويستند إلى حقل العلوم السياسية والنظم السياسية والدراسات الإقليمية والعلوم الأمنية بكل أنواعها التي تعد أهم الأدوات المستخدمة في دراسة الأمن القومي، بل تدخل في صميمها[2] . فإن الأمن الروحي تحدد مصوغاته من خلال الأبعاد والتجليات المختلفة لإمارة المؤمنين من خلال اضطلاعها بالشأن الديني المغربي وصيانة الهوية المغربية في عمقها الحضاري والديني والثقافي.

وهذا ما يبرره عزم أمير المؤمنين بشأن تحقيق الأمن الروحي بقوله: **"**وإننا لعازمون على المضي قدما، للارتقاء بالشأن الديني للمملكة، إلى ما تتطلعون إليه، وكافة رعايانا الأوفياء، من تأهيل وتجديد، وباعتباره في صلب الإصلاحات الوطنية الحيوية التي نقودها، وفي مقدمتها، توفير الأمن

---

[1] - "التأطير الديني بين الأمن الروحي والأمن القومي التجربة المغربية نموذجا "، عبد الهادي الخمليشي، دار الحديث الحسنية بالرباط، ص: 35 .

[2] - المرجع السابق: ص 38.

الروحي والحفاظ على الهوية الدينية الإسلامية المغربية، المتميزة بلزوم السنة والجماعة والوسطية والاعتدال والانفتاح والدعوة إلى سبيل الله، بالحكمة والموعظة الحسنة وما يرتبط بها من مبادئ الإسلام السمحة[1].

ومن جهة أخرى تبرز لنا أهمية حسم المملكة المغربية لاختياراتها الدينية من خلال الواقع الذي تعيشه دول كثيرة في العالم العربي من جراء النزاعات الطائفية والصراعات المذهبية والعرقية التي لازالت تطفو على سطح الواقع العربي إلى هذا اليوم .

وعلى ما يبدو أن مجال الأمن الروحي في المغرب يكتسي طبيعة إشكالية تتمثل أساسا في عنصرين مهمين: أولهما عنصر "التبرير" في اتخاذ القرار الديني، بحيث هي عملية تحتاج إلى امتلاك وسائل وأدوات وآليات تنتج قرارات حقيقية، وذات مردودية على مستوى المشروعية والإقناع ومواجهة ردود الأفعال التي قد تخلق بسبب النقد والرفض. أما العنصر الثاني: يتمثل في طبيعة الفاعل المحوري في المجال الديني والأطراف المساهمة في صياغته. وهي أطراف رسمية وغير رسمية،

كما تتميز بيئة المجال الديني المغربي بوجود عوامل مؤثرة في صناعته، وذلك بالنظر إلى التطورات الاجتماعية والسياسية والقانونية التي يعرفها المجتمع المغربي في سياق معين، ففي مطلع الألفية الثالثة برزت لنا مجموعة من الإكراهات الدينية الداخلية والخارجية، أهمها تنامي خطابات التطرف والعنف في المنطقة العربية، والأحداث التي عرفها المغرب في 16 ماي 2003م، فكانت هذه العوامل بداية للتأشير على جملة من الإصلاحات الدينية بالمغرب، استهدفت إعادة هيكلة الشأن الديني وتحقيق الأمن الروحي للمملكة.

لذا، فمحاولة فهم المتدخلين في المجال الديني والكيفية التي تتم بها صناعة القرار الديني وتحقيق الأمن الروحي بالمغرب تقتضي أن نميز بين ثلاث مستويات، مستوى التمهيد لفهم معطى الدين وإمارة المؤمنين في المجال العام المغربي، ومستوى فهم إمارة المؤمنين في المعطى الدستوري ودورها في تحديد الأطراف المحتكرة للمجال الديني واختصاصاتها الحصرية المتضمنة في آخر تعديل دستوري مع دستور 2011، ومستوى امتلاك الوسائل والأدوات التي تفيد في تحقيق الأمن الروحي للمغاربة. وهذا ما سنحاول الحديث عنه من خلال المطالب الآتية:

[1]- الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس يوم السبت 27 شتنبر 2008م بمسجد محمد السادس بتطوان خلال ترؤس جلالته للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى .

المحور الأول: الدين وإمارة المؤمنين في المجال العام المغربي

يعد مفهوم المجال العام[1] من بين المفاهيم التي عنيت بها الدراسات السوسيولوجية والأنتروبولوجية في العالم الإسلامي، على عكس الدراسات التاريخية التي تفتقر إلى مثل هذه المقاربات، بحيث لا يمكن تصور الفضاء العام إلا في ارتباطه بعوامل الوجود الاجتماعي، كعوامل الدين والسياسة والجغرافيا والثقافة والتاريخ. وهي عوامل مجتمعة تتفاعل داخل فضاء عام، وتتحدد بها الصورة أو الصيغة لأهم مقومات ذلك المجال العام. وعلى وجه الخصوص فلسفة المجال الديني وطبيعة ارتباطه بالمقومات الأخرى. من أهمها عنصر السياسة وطبيعة السلطة السياسية، والعلاقة المفترضة بينهما.

فالمجال الديني لا يمكن بحثه دون ربطه بأهم عوامل الوجود الاجتماعي. أي ربطه بالمجال العمومي المغربي، وعلى وجه الخصوص في ارتباطه بطبيعة النظام السياسي، ومن جهة ثانية بطبيعة الاطراف المتدخلة في عملية صناعة القرار الديني. بحيث يفرض المجال الديني بنفسه الاستناد على عنصر "التبرير"، وهي عملية علمية ومنهجية تحتاج إلى أطراف مخول لها النظر في أمور الدين. لذا فهو يمس حتى الفاعلين والمتدخلين في عملية صناعة القرار الديني. وقد ارتأينا أن نقدم لدراسة المجال الديني وإمارة المؤمنين انطلاقا من المجال العام المغربي، أي باستحضار الدلالات المعرفية العامة للدين الإسلامي، وتوضيح طبيعة الارتباطات بين الدين والسياسة في الفضاء العام المغربي.

إن المجال الديني المغربي مثلا مرتبط أشد الارتباط بالصورة أو الحالة الدينية التي اختارها المجتمع فهما وسلوكا عمليا لمقتضيات الدين الإسلامي، لأن مفهوم المجتمع المغربي يتحدد من خلال توحد أغلبية أفراده حول جملة من الاعتقادات والمبادئ الكلية التي تحكم تفاعلاته الدينية والدنيوية، كالاعتقاد بعصمة القرآن الكريم ووجوب العمل بكل ما فيه، وبحجية السنة المطهرة وغيرها من الثوابت الدينية الأخرى.

ومما يتميز به المجال الديني عن المجال السياسي في المغرب أنه مجال مضبوط ويخضع لمنهجية اجتهادية دقيقة لا يمكن أن تخرج عن الضوابط الشرعية وقواعد الدين الكلية ومقاصده العامة، وأن الفاعلين في عملية صناعة القرار الديني أطراف مخول لهم النظر في أمور الدين ويمتلكون من

[1] - انتشر مفهوم "المجال العام" في الأدبيات الغربية في تسعينيات القرن العشرين، بعد ترجمة كتاب الفيلسوف الألماني يورجين هابرماس "التحولات الهيكلية في المجال العام" إلى الإنجليزية.

الوسائل والأدوات ما يمكنهم من اتخاذ القرار الديني، على عكس القرار السياسي الذي لا يتميز بالضبط أو الثبات، كما أن طبيعته تفرض بنفسها حواجز بنيوية مرتبطة بصيرورة اتخاذ القرار بها.

نجد من بين ما أكدته أغلب الدراسات الدينية والسياسية للحالة السياسية المغربية أن المجال الديني يتم عبر تداخل وتمازج تام بين الدين والدولة في المجتمع المغربي، على اعتبار أن الملك أو أمير المؤمنين كما هو في عرف الفقهاء يجمع بين الوظيفتين السياسية والدينية، وأن العلاقة بينهما ظلت خلال فترات طويلة من تاريخ المغرب علاقة تأثّر وتأثير بين المجالين.

فالمجال الديني في جزء كبير منه يخضع إلى هندسة وتدبير لمختلف تصوراته الاعتقادية والنظرية وقواعده العملية، وفي حالة المجتمع المغربي يكون الحديث عن هندسة الحقل الديني وترتيب تمظهراته، ووضع صيغة اعتقادية وفقهية تنطبق على الفرد والجماعة والطبيعة والبيئة والثقافة للحالة المغربية.

وبلا شك، أن هذا التدبير يحتاج إلى جهة مخول لها النظر في أمور الدين وتشريعاته، ومقتضيات النظر والاجتهاد عند الحاجة والضرورة، تلبية لحاجات الناس النفسية والروحية والاعتقادية والعملية. ومن أبرز الجهات الفاعلة في التاريخ الديني للمغرب إلى جانب العلماء والفقهاء نجد مؤسسة إمارة المؤمنين التي تحظى في المنظور الفقهي بجانب كبير في الاضطلاع بأمور الدين والدنيا.

والكتب التي تتحدث عن "الخليفة" أو "أمير المؤمنين" تستمد مادتها المعرفية من الأدبيات الإسلامية، وعلى وجه التحديد "فقه السياسة الشرعية"، وهو علم سعى إلى الضبط الشرعي للمسائل السياسية، وقد ساهم في تطوير هذا العلم مجموعة من الفقهاء والأصوليين، في مقدمتهم أبو بكر الباقلاني وأبو يعلى الفراء وأبو المعالي الجويني، بيد أن الصيغة المتطورة والمتكاملة لهذه النظرية لم تتبلور إلا في كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية لمحمد بن علي الماوردي[1].

ومن أبرز التعريفات التي وردت على هذا النوع من السياسة، أنها اسم للأحكام التي تنظم بها مرافق الدولة، وتدبر بها شؤون الأمة، مع مراعاة أن تكون متفقة مع روح الشريعة، نازلة على

[1]- "العقيدة والسياسة"، لؤي صافي، ص: 130-131.

أصولها الكلية، محققة أغراضها الاجتماعية ولو لم يدل عليها شيء من النصوص التفصيلية الجزئية الواردة في الكتاب والسنة[1].

وحول ذات المضمون دارت ابرز تعريفات الخلافة، فهي بحسب تعريف الماوردي: "خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"[2]. وعند إمام الحرمين: "الإمامة رياسة تامة وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا"[3]، وبحسب ابن خلدون هي: "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها"[4].

ومن يمعن النظر في كتب الأحكام السلطانية يدرك أنها تكاد أن تخضع لهندسة واحدة من حيث البناء والرؤية، ولعل السبب في ذلك نفسها التشريعي الذي حملها على النهوض بمهمة إخضاع مؤسسات دولة الخلافة لمبادئ الشرع، فوحده ذلك يمكنها من تحصيل قدر من المشروعية يصيرها مؤسسات مقبولة داخل منظومة تشريعية.[5]

وقد أثارت مسألة "الخلافة" أو"الإمامة" عند فقهاء الأحكام السلطانية أو بعبارة أخرى عند "فقهاء السياسة الشرعية" مباحث متصلة بقضايا حفظ الدين وتطبيق أحكام الشريعة وضبط الجماعة المسلمة في المنظور الشرعي، فضلا عن قضايا أخرى متصلة أساسا بمسألة وجود الخلافة، وشروطها، وما إذا كان وجوب الخلافة أصلا من الشرع أو من غير ذلك.

فالإمامة أو الخلافة في نظر الماوردي مثلا تقوم على ست قواعد، نذكر من أهمها: **دين متبع:** وهو الذي يصرف النفوس عن شهواتها ويراقبها في سرائرها وهو أقوى قاعدة في إصلاح الدولة واستقامتها. **وسلطان قاهر:** تتألف برهبته الأهواء المختلفة ويسوس الدولة نحو تحقيق أهدافها العليا ويحفظ الدين ويحرس الناس ويحقق لهم الأمن والرزق والسلطان هو الإمام أو الخليفة.[6]

---

[1]- "السياسة الشرعية والفقه الإسلامي"، الشيخ عبد الرحمان تاج، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة، القاهرة، ط 1،(1435هـ-2014م)، ص:45.

[2]-"الأحكام السلطانية والولايات الدينية"، الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت.د.ت، ص:5.

[3]- "غياث الأمم في التيات الظلم"، الإمام الجويني، ص:15.

[4]- "المقدمة"، ابن خلدون، القاهرة، دار الشعب، (د.ت)، ص:170-171.

[5]- "دولة الفقهاء بحث في الفكر السياسي الإسلامي"، نبيل فازيو، ص: 69-70.

[6]- الأحكام السلطانية، الماوردي، ص: 7.

ويورد الماوردي أيضا بخصوص وظيفة الإمام: "أن أول ما يلزمه إذا انعقدت بيعته حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه، أوضح له الحجة، وبين له الصواب. وأخذ بما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروسا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل[1].

وفي سياق حديثنا عن المجال الديني وما يمكن أن تحظى به مؤسسة الخلافة أو إمارة المؤمنين في الاضطلاع بأمور الدين وخصوصا أمننا الروحي وسلامة تديننا، لا بد من بسط العلاقة التي صاغها الفقهاء والعلماء بين وظيفة الخلافة والمتمثلة في تدبير شؤون الرعية ومهمة حراسة الدين وتطبيق تعاليمه، وذلك بالقدر الذي يسعفنا في فهم الجوانب الدينية التي تسهم فيها إمارة المؤمنين، إلى جانب مهمات العلماء والمفتون والجماعة المسلمة.

يقول العلامة علال الفاسي حول العلاقة بين الدين والدولة: "ما شرعت الدولة إلا لمصلحة الدين وما جعلت الخلافة إلا لتنفيذ أحكام الشريعة"[2]. فلا تكون الدولة الإسلامية دولة للشريعة، ولا تكون شريعة هذه الدولة هي شريعة إسلامية إلا لدى وعي يقيم الأواصر والجسور بين الدين والدنيا، بين العقيدة والشريعة، ولا تفهم العلاقة بينهما إلا من حيث هي علاقة وصل واتصال، لا علاقة فصل وانفصال على نحو ما تذهب إلى ذلك مقالات قسم كبير من المثقفين العلمانيين[3].

يقول الإمام الغزالي: "إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا ونظام الدنيا لا يحصل إلا بإمام مطاع...لهذا قيل الدين والسلطان توأمان ولهذا قيل الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهدوم وما لا حارس له فضائع وعلى الجملة لا يتمارى العاقل في أن الخلق على اختلاف طبقاتهم وما هم عليه من تشتت الأهواء وتباين الآراء لو خلوا وراءهم ولم يكن لهم رأي مطاع يجمع شتاتهم لهلكوا من عند آخرهم وهذا داء لا علاج له إلا بسلطان قاهر يجمع شتات الآراء فبان أن السلطان ضروري في نظام الدنيا ونظام الدنيا ضروري في نظام الدين ونظام الدين ضروري في الفوز بسعادة الآخرة[4].

---

[1]- المرجع السابق، ص:15

[2]- دفاع عن الشريعة، علال الفاسي، طبعة الرسالة، الرباط، ط 1966، ص: 53.

[3]- مسألة الدولة في الفكر الإسلامي المعاصر، عبد الإله بلقزيز، ص:179

[4]- الاقتصاد في الاعتقاد، الإمام الغزالي، ص: 118-119.

يقول الدكتور أحمد عبادي:" لقد ثبت في كسبنا الفقهي والعقدي الإسلامي عبر مختلف أدوارهما، أن نصب الإمام ضروري بالمعنى الشرعي لمصطلح الضرورة لكون جل واجبات الاعتقاد والتشريع منوطة بقيام الإمامة العظمى، وضياعها منوطا بعدمه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب الإنفاذ"[1]

المحور الثاني: إمارة المؤمنين والمجال الديني في القانون الدستوري المغربي

تضطلع إمارة المؤمنين في الدستور الجديد بدور كبير في تدبير المجال الديني، وهو ما تبلور دستوريا في تخصيص إمارة المؤمنين بفصلين (41-42) بدلا من فصل واحد (الفصل 19 في الدساتير السابقة) وبذلك يكون الدستور الجديد ميز بين اختصاصات الملك كأمير المؤمنين من جهة، واختصاصات الملك كرئيس للدولة من جهة ثانية. وبالنظر إلى الطبيعة الإشكالية التي ارتبطت بالدين والدولة على امتداد التطور السياسي في المغرب، فقد أجمعت مختلف النخب الفكرية والسياسية المغربية على أن إمارة المؤمنين تشكل أحد المداخل الأساسية لتبديد الغموض الذي لازم علاقة الدين بالدولة بالمغرب، وهو ما تم بالتمييز بين الملك الدستوري والملك أمير المؤمنين.

أولا: التمييز بين الملك الدستوري والملك أمير المؤمنين

ينص الفصل (41) من دستور 2011م على أن "الملك أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية". ويرأس الملك أمير المؤمنين المجلس العلمي الأعلى الذي يتولى دراسة القضايا التي يعرضها عليه.

- ويعتبر المجلس الجهة الوحيدة المؤهلة لإصدار الفتاوى التي تعتمد رسميا، في شأن المسائل التي تحال عليه، استناداً إلى مبادئ وأحكام الدين الإسلامي الحنيف ومقاصده السمحة.
- تحدد اختصاصات المجلس وتأليفه وكيفيات سيره بظهير.

[1] -منبر الرابطة، أسبوعية شاملة تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء، العدد 21، الأربعاء 2جمادى الاولى1432هـ/06 ابريل2011، ص:3

- يمارس الملك الصلاحيات الدينية المتعلقة بإمارة المؤمنين والمخولة له حصريا بمقتضى هذا الفصل، بواسطة ظهائر[1]".

جدير بالذكر أن الشأن الديني كان يضطلع به أمير المؤمنين إلى جانب السلطة السياسية وهما وظيفتان اجتمعتا للملك في تداخل وتمازج تام عبرت عنه الدساتير السابقة من خلال الفصل 19 الذي اكتسى فلسفات دستورية متباينة، تراوحت بين وضعية الملك كشخص فعلي أو اعتباري.

وفي قراءة أولية للفصل (41) فإنه تميز عن الدساتير السابقة بالتمييز الإجرائي بين صفتي الملك: " أمير المؤمنين" ورئيس الدولة". هذا والتمييز بين وظيفتي أمير المؤمنين ورئيس الدولة، بين الصلاحيات الدينية من جهة، وبين المهام السيادية والضمانية والتحكيمية ذات الطبيعة السياسية من جهة أخرى، يؤشر على الاعتراف بوجود فضاءين، الأول سياسي والثاني ديني، كل واحد منهما له فاعلوه وقواعده[2].

صحيح أن الفصل (41) لم يحدد بدقة المجالات الخاصة بصلاحيات إمارة المؤمنين. ولكن إسناد السلطة التشريعية إلى البرلمان في الفصل (70) وتفصيل ما يختص به التشريع في الفصل (71) يؤكد أن إمارة المؤمنين مؤسسة رمزية مجالها الأمن الروحي والقيم في الحياة الدينية للمجتمع، وليس علاقات التعايش اليومية، وتدبير مصالح المجتمع السياسي في تدافعه وتنافس أفراده ومكوناته البشرية والطبقية وسعيه إلى الأفضل.[3]

لذلك فإن ربط إمارة المؤمنين بالصلاحيات الدينية، يعني أن الملك لن يكون بمقدوره اللجوء إلى صفته كأمير المؤمنين لأداء عدة وظائف سياسية عملية، مثل تعضيد الملك الدستوري أو سد الفراغ التشريعي[4]، ويعني أيضا أن الملك بصفته أميراً للمؤمنين يكتسي شرعيته الدينية والتقليدية التي رسخها الفصل (19) من خلال الفصل (41) الذي ينظر إليه بمنظورين:

---

[1] - دستور المملكة المغربية 2011، الفصل 41، ص41

[2] - الدستور والديمقراطية: قراءة في التوترات المهيكلة لوثيقة 2011، حسن طارق، منشورات سلسلة الحوار العمومي4، ص:14-15

[3] - الدين والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، مداخلة بعنوان:الدين والدولة ومؤسسة إمارة المؤمنين، أحمد الخمليشي، ص 388.

[4] - النظام السياسي الدستوري المغربي، محمد معتصم،إيزيس للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1992، ص: 85

- **المنظور الأول**: صفة الملك المبايع كأمير للمؤمنين وفقا لما نظره الفقه السياسي الإسلامي ورسخته الممارسة التاريخية.

- **المنظور الثاني**: وصف أمير المؤمنين ارتبط به الاختصاص بتدبير جميع شؤون الأمة (الدينية والسياسية).

أما التغيير الذي أتى به الدستور الجديد 2011 فهو لا يخرج عن التعديل الحرفي للفصل(19) وتخصيصه بفصلين في الدستور الجديد (ف41،ف42) وهي محاولة من مؤسسة إمارة المؤمنين للانفتاح على الدولة الحديثة وتبديد بعض من التلازم الإشكالي الذي تعلق بالتنظير وكان يضفي على إمارة المؤمنين حمولات يجعلها في تناقض تام مع مفهوم الدولة الحديثة ومؤسساتها وهذا ما اتضح من خلال الفصل (42) المشخص للملك كرئيس الدولة كأحد شروط الانتقال الديمقراطي[1]. من هنا كانت العلاقة بين الدين والدولة تشخص في الملك باعتباره أمير المؤمنين القائم على حماية وتدبير الشأن الديني للأمة دون أن يعني ذلك كونه في انفصال تام عن التدبير السياسي.

ثانيا: الدين في ممارسة إمارة المؤمنين

منذ 1962م كان للوثيقة الدستورية دور مهم في تقوية مركز أمير المؤمنين إلى جانب النسب الشريف الذي ظل كقوة تاريخية وشرعية، وبالرغم من دسترة إمارة المؤمنين فقد حافظت على مزاولتها للسلطتين الدينية والسياسية مع منحها حق التشريع في جميع المجالات السياسية والدينية.

بل يذهب الملك الراحل الحسن الثاني إلى أن ملك المغرب الذي هو في آن واحد أمير المؤمنين له الصلاحيات لأن يطبق ويفسر آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم حين قال سبحانه وتعالى ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾فأنا يقول الملك الراحل أعلم رواسي الدين كما أعلم أين يجب الاجتهاد في الدين، إنني كما تعلمون (يقول الحسن الثاني) أمير المؤمنين وقد حصلت على هذا اللقب منذ ولادتي بدون أن أطلب الحصول عليه أو أرغب فيه وهذا يعني أنني أحد أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيء غير شائع فأنا بالرغم من تجدري في المغرب منذ أجيال فإن نسبي الأصلي ينحدر من مكة المكرمة.[2]

---

[1]- انظر "الدين والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، مداخلة الدكتور أحمد الخمليشي، ص: 375

[2]- "مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني"، عبد الحق المريني، طبعة وزارة الشؤون الثقافية، 1996م

إن تصور الحسن الثاني لإمارة المؤمنين جعل منها منبعا للسلطة الدينية والسياسية، فهي ليست متعالية على نصوص الدستور فقط بل على جميع الفاعلين الدينين والسياسيين، وهم يتحركون وفق سقفها الذي يرسمه الملك المبايع أميرا للمؤمنين وليس الملك الذي يمنحه الدستور صفة رئيس الدولة.[1]

وبالرجوع إلى دساتير 1962_1970_1972_1992_1996 وبمقتضى الفصل (19) الذي اتفقت عليه جميع الدساتير السابقة الذكر نجده لم يميز بين الاختصاص الديني عن الاختصاص السياسي للملك وعليه ظل الملك يستقطب بصفاته السلطتين معا (السياسية والدينية) وهذا ما عبر عنه منطوق الفصل (19).

"الملك أمير المؤمنين ورمز وحدة الأمة وضامن دوام الدولة واستمرارها وهو حامي حمى الدين والساهر على احترام الدستور: وله صيانة حقوق وحريات المواطنين والجماعات والهيئات وهو الضامن لاستقلال البلاد وحوزة المملكة في دائرة حقوقها الحقة"[2]

وفي الدساتير اللاحقة احتفظت المادة بالرقم والصياغة نفسها مع إضافة عبارة "الممثل الأسمى للأمة" هكذا: "الملك أمير المؤمنين والممثل الأسمى للأمة رمز وحدتها وضامن دوام الدولة..." مع تقسيم المادة إلى فقرتين.

أما حضور أمير المؤمنين في المجال الديني في الشكل الدستوري الجديد فهو لا يمثل إلا امتدادا طبيعيا وتقليد متماهي بشكل كبير مع صورة الخلافة في التجربة التاريخية والإسلامية، وهو تقليد لا تنفك إمارة المؤمنين عن التمسك بمدلولها الفقهي والوظيفي. فبالرغم من التطورات التي طرأت على بنية المجتمع المغربي والأحداث الراهنة التي هزت العديد من المجتمعات العربية والإسلامية عموما، والتي عرفها المغرب خاصة في سياق ما يسمى "الربيع العربي"، لم يؤثر هذا على الهندسة التقليدية لنظام إمارة المؤمنين، وممارستها للشأن الديني المغربي، ويبقى التعديل الحرفي للفصل (19) وتخصيصه بفصلين في الدستور الجديد الفصل (41) و(42). هو تمييز إجرائي على مستوى الممارسة السياسية والدينية لإمارة المؤمنين.

وهكذا ينص الفصل (41) من الدستور الحالي على ما يلي: (الملك أمير المؤمنين وحامي حمى

[1] - الدين والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية،ص:380
[2] - دستور 1996م للمملكة المغربية

الملة والدين والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية. يرأس الملك أمير المؤمنين المجلس العلمي الأعلى الذي يتولى دراسة القضايا التي يعرضها عليه، ويعتبر الجهة الوحيدة المؤهلة لإصدار الفتاوى التي تعتمد رسميا في شأن المسائل المحالة إليه، استنادا إلى مبادئ وأحكام الدين الإسلامي الحنيف ومقاصده السمحة. تحدد اختصاصات المجلس وتأليفه وكيفيات سيره بظهير. يمارس الملك الصلاحيات الدينية المتعلقة بإمارة المؤمنين والمخولة له حصريا بمقتضى هذا الفصل بواسطة ظهير)[1]

وعليه، فإن حضور إمارة المؤمنين في المجال الديني قد تجلى بشكل كبير ومكثف، ويظهر ذلك من خلال ازدياد الترابط بين مختلف الفاعلين الرسميين في الحقل الديني، وقد عزز من حضور إمارة المؤمنين في هذا المجال قيامها بمجموعة من الإجراءات والإصلاحات التي مست من جهة إعادة هيكلة الشأن الديني وفق مقاربة دينية شاملة، ومن جهة ثانية مست حتى الأطراف المتدخلة في الشأن الديني وتحديد الصلاحيات والارتباطات فيما بينها، وهذا مؤشر على أن صناعة القرار الديني بالمغرب أصبح يتم في إطار مؤسسات رسمية تحتكر مسألة القرار الديني وتنفرد في عملية صياغته. وأن تحقيق الأمن الروحي للمغاربة مرتبط أشد الارتباط بتدخل إمارة المؤمنين في المجال الديني واضطلاعها بقضايا الدين.

ثالثا: اختصاصات أمير المؤمنين

بالعودة إلى الدساتير السابقة نجد أهم المقتضيات التي أصدرها بصفته أميرا للمؤمنين:

- إحداث جائزة محمد السادس للفكر والدراسات الإسلامية (ظهير 2001/6/22).
- إحداث جائزة محمد السادس للكتاتيب القرآنية (ظهير 2002/7/23).
- تنظيم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وتحديد اختصاصاتها (ظهير 2003/12/14).
- إحداث المجلس العلمي الأعلى المكون من رؤساء المجالس العلمية الإقليمية (ظهير 1981/4/8) المغير بظهير 2004/4/22.
- إعادة تنظيم مؤسسة دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا (ظهير 2005/8/24).
- إحداث المجالس العلمية الإقليمية (ظهير 1981/7/12).
- إعادة تنظيم الرابطة المحمدية للعلماء" (ظهير 30/ 2007/11) المغير بظهير 2012/7/17.

[1]- الفصل 41 من دستور 2011،

- إحداث جائزة محمد السادس لأهل الحديث (ظهير 2008/5/23) المغير بظهير 2012/7/17...[1]

ومنذ تنفيذ الدستور الجديد في 9 تموز/يوليو 2011 صدرت بعض الظهائر التي استندت إلى الفصل (41) السالف الذكر، وتتعلق بتغيير ظهائر سابقة تنظم:

-جائزة محمد السادس لأهل القرآن.

-جائزة محمد السادس لأهل الحديث.

-جائزة محمد السادس للكتاتيب القرائية.

-مؤسسة مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء.

الظهائر الثلاثة الأولى مؤرخة في 17تموز/ يوليو 2012، والظهير المتعلق بمؤسسة مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء مؤرخ في 17أيلول/ سبتمبر. 2012.

المحور الثالث: الأمن الروحي في الخطب الملكية السامية

إن بنية القرار الديني المغربي ليس نسقا مغلقا يمكن فيه تغييب المؤثرات الخارجية خصوصا خلال هذه المرحلة التي تمر منها الأوضاع الدولية، فمنذ الأحداث الإرهابية ل11 شتنبر2001 التي عرفتها الولايات المتحدة الأمريكية، والتطورات التي تعرفها منطقة الشرق الأوسط منذ غزو العراق مرورا بالتحولات التي عرفتها المنطقة في سياق ما يسمى ب"الربيع العربي"، وما خلفته هذه التطورات من تنامي التيارات الدينية والمنظمات الأصولية، لم تسلم معه البيئة المغربية من التأثر بتداعيات الخطابات الدينية المتطرفة، وأيضا من حالة الاستقطاب التي استهدفت عددا كبيرا من الشباب المغاربة الذين التحقوا بمختلف التنظيمات المسلحة خصوصا في العراق وسوريا.

إن الإشارة إلى هذه التداعيات والإكراهات الخارجية في سياق حديثنا عن الأمن الروحي للمغاربة، أصبحت ضرورة ملحة تفرض تقديم مقاربة داخل بيئة القرار الديني، خصوصا وأن تلك الإكراهات ترتبط بعقائد المجتمع وأمنهم الروحي والنفسي والوجداني، وأصبحت مصدر قلق كبير

[1] - أنظر: "الدين والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية مداخلة بموضوع:"علاقة الدين بالدولة ومؤسسة إمارة المؤمنين في المغرب"، ص: 385

للمجتمع، وتبعث على قدر كبير من الحذر على أعلى مستويات القرار الديني المغربي. كما تدعو إلى اتخاذ مجموعة من الإجراءات الوقائية في سبيل تحصين الحقل الديني، وخلق نوع من المناعة الداخلية في مواجهة الخطابات الدينية المتطرفة، ومكافحة كل أشكال السلوك الخطيرة على البنية المجتمعية المغربية. وكمحاولة لرصد بعض الإجراءات للقرار الديني في مواجهة العوامل الداخلية والخارجية يمكن الحديث عن بعض ملامح السياسة الدينية في هذا الاتجاه والمتمثلة أساسا في تحقيق "الأمن الروحي" للمغاربة.

فقد حضي موضوع "الأمن الروحي" بالمملكة في الخطب الملكية لأمير المؤمنين بحيز وافر، وما فتئ الملك يكرر فيها التأكيد على المحافظة على الأمن الروحي كهدف معلن في السياسة الشرعية وفي المجال الديني المغربي، ففي خطاب تطوان صرح الملك قائلا: " هدفنا الأسمى، تعزيز المساهمة الفاعلية لعلمائنا الأفاضل، في المسار الإصلاحي والتحديثي الذي نقوده في سائر المجالات، ولا سيما قيامهم بتعزيز الأمن الروحي للأمة بتحصين عقيدتها السنية السمحة"[1].

وحول طبيعة الشأن الديني ومرجعياته يضيف الملك في خطابه: "وإذا كان من طبيعة تدبير الشؤون الدنيوية العامة الاختلاف، الذي يعد من مظاهر الديمقراطية، والتعددية في الآراء لتحقيق الصالح العام، فإن الشأن الديني، على خلاف ذلك، يستوجب التشبث بالمرجعية التاريخية الواحدة للمذهب المالكي السني، الذي أجمعت عليه الأمة، والذي نحن مؤتمنون على صيانته، معتبرين التزامنا دينيا بوحدته المذهبية، كالتزامنا دستوريا بالوحدة الترابية الوطنية للأمة، حريصين على الاجتهاد الصائب، لمواكبة مستجدات العصر"[2].

وتابع الخطاب الملكي تحليل الواقع ليسوغ مجموعة من الإجراءات الكفيلة بتحقيق الأمن الروحي حين قال: "وفي ذلك تكريس للاحترام المتبادل بين مختلف الأديان السماوية، والثقافات والحضارات، مستشعرين أن عالم اليوم، يجتاز ظرفية مطبوعة بنزوعات الأنانية والعنف واهتزاز المرجعيات. وهو ما يجعل جوهر رسالتكم الروحية، العمل الدائم على إشاعة الطمأنينة والسلام

[1]- الخطاب الملكي الذي ألقاه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله يوم السبت بمسجد محمد السادس بتطوان خلال ترؤس جلالته للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى بتاريخ 27 شتنبر 2008م.

[2]- الخطاب الملكي في تنظيم المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية بتاريخ 10 ربيع الأول 1425، الموافق ل 30 أبريل 2004 بالدار البيضاء.

والحث على التنافس في العمل البناء ومحاربة التطرف والانغلاق والإرهاب. بإشاعة القيم الإسلامية المثلى، تحصينا لبلادنا من الآفات المقيتة للغلو والتعصب"[1].

كما أعرب الملك عن عزمه بشأنه تحقيق الأمن الروحي، ويؤكد ذلك بقوله: " وإننا لعازمون على المضي قدما، للارتقاء بالشأن الديني للمملكة، إلى ما تتطلعون إليه، وكافة رعايانا الأوفياء، من تأهيل وتجديد، باعتباره في صلب الإصلاحات الوطنية الحيوية التي نقودها، وفي مقدمتها، توفير الأمن الروحي والحفاظ على الهوية الدينية الإسلامية المغربية، المتميزة بلزوم السنة والجماعة والوسطية والاعتدال والانفتاح والدعوة إلى سبيل الله، بالحكمة والموعظة الحسنة وما يرتبط بها من مبادئ الإسلام السمحة[2].

فالنموذج الديني المغربي يجب أن يقوم على سياسة ذات بعد استراتيجي في مجال تحقيق الأمن الروحي والقومي الذي يحقق الاستقرار السياسي ويحول دون وصول شرارات اللهيب المنتشر في بلاد أهملت التعامل بالحكمة والواقعية والانضباط في تنفيذ المشروع الديني، تلك الدول التي تنتهك الآن سيادتها بدواعي متعددة تتزعمها قيادات وفصائل ذات أبعاد دينية.

وعليه فإن النجاح الذي بلغته إمارة المؤمنين في المغرب على مستوى هيكلة الشأن الديني وتحقيق الأمن الروحي في ظل مرتكزات ثابتة ومستقرة يجعلها نموذجا فعالا وأساسيا في دعم الاستقرار السياسي والأمن الروحي للمغاربة .

[1]- الخطاب الملكي الذي ألقاه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس أيده الله اليوم السبت بمسجد محمد السادس بتطوان خلال ترؤس جلالته للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى في 27 شتنبر 2008م.

[2]- الخطاب الملكي الذي ألقاه الملك محمد السادس يوم السبت بمسجد محمد السادس بتطوان خلال ترؤس جلالته للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى في27 شتنبر 2008م.

لائحة المصادر المراجع:

-"الأحكام السلطانية والولايات الدينية"، الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت.د.ت.
- "غياث الأمم في التيات الظلم"، الإمام الجويني، دار الدعوة للنشر والتوزيع، ط الإسكندرية1979م.
- "المقدمة"، ابن خلدون، القاهرة، دار الشعب، (د.ت).
- "دولة الفقهاء بحث في الفكر السياسي الإسلامي"، نبيل فازيو، منتدى المعارف، بيروت، 2015م.
- "دفاع عن الشريعة"، علال الفاسي، طبعة الرسالة، الرباط، ط 1966.
- "مسألة الدولة في الفكر الإسلامي المعاصر"، عبد الإله بلقزيز، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى. كانون الأول/ديسمبر2002.
- "الاقتصاد في الاعتقاد"، الإمام الغزالي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، طبعة 1971م.
- "التأطير الديني بين الأمن الروحي والأمن القومي التجربة المغربية نموذجا "، عبد الهادي الخمليشي، دار الحديث الحسنية بالرباط.
- "العقيدة والسياسة"، لؤي صافي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، ط3، 1419هـ/1998م.
-"السياسة الشرعية والفقه الإسلامي"، الشيخ عبد الرحمان تاج، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة،القاهرة، (1435هـ-2014م).
- "منبر الرابطة"، أسبوعية شاملة تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء، العدد 21، الأربعاء 2جمادى الاولى1432هـ/06 ابريل2011.
- "الدستور والديمقراطية:قراءة في التوترات المهيكلة لوثيقة 2011"، حسن طارق، منشورات سلسلة الحوار العمومي/4.
- "الدين والدولة في الوطن العربي"، مركز دراسات الوحدة العربية.
- "النظام السياسي الدستوري المغربي"، محمد معتصم، إيزيس للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1992.
- "مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني"، عبد الحق المريني، طبعة وزارة الشؤون الثقافية، 1996.
- دستور 1996 للمملكة المغربية.
- الخطاب الملكي في تنظيم المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية بتاريخ 10 ربيع الأول 1425، الموافق ل 30 أبريل 2004 بالدار البيضاء.
- الخطاب الملكي الذي ألقاه الملك محمد السادس يوم السبت بمسجد محمد السادس بتطوان خلال ترؤس جلالته للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى في27 شتنبر 2008م.

حب الأوطان وتحقيق الأمن الروحي في السنة النبوية

إبراهيم أحتشاو
(باحث بجامعة محمد الخامس بالرباط)

مقدمة:

الحمد لله الذي جعل للناس من الأرض بلاداً، وهدَى عباده إلى اتخاذ المساكن وإحكام الأَبنية والمواطن، فشيَّدوا البُنيان، ورفعوا العمران، وعمَّروا البُلْدان، فله الشكر الحسن والثناء الجميل على نعمة الأوطان والاستقرار فيها، وعلى فطرة حبها والتعلق بها، والصلاة والسلام على خير خلق الله الذي أَوطَنَ بخير أرض الله؛ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه الميامين.

وبعد؛ فإن أول ما يتبادر إلى الأذهان عند ذكر الوطن ذلك المجال المُعرَّف الذي تحدُّهُ حدود جغرافية ويسيره رئيس الدولة، لكنه أكبر وأعظم من ذلك، إذ يتعداه إلى أن يصير تعلق ساكنه به كتعلق الروح بالجسد؛ فالوطن جسد تسكنه روح مواطنيه؛ هي ثنائية تُنشِئها الفِطرة، وتُعزّزُها المُواطَنَة، أي؛ ذلك القالب الذي تنصهر فيه الذات بمختلف مشاعرها وأحاسيسها الإيجابية؛ أمنا واستقرارا، راحة وطمأنينة. لذا فبدهي أن تفديه الأنا حبا وولاء لما تكون بداخله، وتتأثر ثم تشتاق حنينا إليه لمَّا تفارقه أو تُخرَج منه.

وقد تأكد عبر تاريخ عيش الإنسان في الأرض ما لثنائية (الإنسان-الوطن) من إحكام واتصال حتى عُدَّ انفصال أحدهما عن الآخر من أكبر النّقم، بل من أَشَدِّ ألوان العذاب في الدنيا. ولِشدة بُعد النفس عن موطنها الذي ألفته صار الإخراج من الأوطان والنفي خارجها من أكبر العقوبات وأشد أنواع التعذيب النفسي الذي وثقته صفحات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية.

من هذا المنطلق؛ آثرنا أن نُخَصّص هذه الدراسة لبيان العلاقة الرابطة بين كل من التشبع بحب الأوطان وبين تحقيق الأمن الروحي والاستقرار النفسي، وذلك عبر التأصيل لهذه العلاقة من خلال السنة النبوية؛ من جملة الأحاديث الزاخرة بملامح تُرسِّخ تلك العلاقة بين الإنسان وبين موطنه، وكذا بيان مكانة هذا الأخير وأهميته في حياة الإنسان.

تكمن أهمية هذا البحث في محاولة الكشف عن منهج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الميامين في حب الأوطان والولاء لها، حيث ترشدنا السنة النبوية إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستحضر هذا الحب ويعيشه وأصحابه داخل مكة في بداية الدعوة، وكذا بالمدينة المنورة بعد هجرتهم إليها، فضلا عن بيان ما لهذه النعمة من استقرار نفسي وروحي وسط جيل الصحابة.

والنصوص النبوية التي بين أيدينا ستقدّمُ لنا أمثلة صادقة على ذلك، وستدلنا على الأسلوب النبوي في التعبير عن الحب والحنين للأوطان، وسنتناول ذلك بتحديد إشكالية البحث المتمثلة في الأسئلة الآتية:

- ما مكانة الوطن في السنة النبوية، وما مظاهر حب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأوطانهم؟
- كيف يُسهِم الانتماء للوطن في ضمان الاستقرار والأمن الروحي للمواطن، وما مقومات تحقيق ذلك؟
- أي تأثير للجلاء من الأوطان على نفسية وصحة الإنسان داخل صفحات السنة النبوية؟

لا ريب أن موضوع الوطن من الموضوعات الملحة، التي تركزت عليها الأنظار في عصرنا الحاضر، لما لها من تأثير كبير في استقرار المجتمعات واستمرارها، وذهبت دساتير الدول وقوانينها الوضعية تصول وتجول بحثا عن ملاذها في تحقيق مواطنة صالحة من لدن مواطني بلدانها، إلا أن معظمها أخفق في بلوغ هذا المبتغى وذلك لمّا أخلّت القيادات التي تسير الدول بواجباتها وفشلت في ضمان حقوق رعاياها، مما أدى إلى بزوغ نزعات طائفية، وجماعات متطرفة خلّفت فسادا عريضا داخل تلك الأوطان. ومع قناعاتنا العميقة أن السنة النبوية قدَّمَت لنا ملامح كافية في مختلف مناحي الحياة، توجهنا إلى الرؤية النبوية في حب الأوطان والتجربة المحمدية في قيادة وتسيير دولته، فلم تسعفنا أغلب الأبحاث السابقة -والدراسات المُنجَزة بهذا الخصوص- لِلَمّ شتات موضوعنا.

ومن بين ما وقفنا عليه؛ مقالة للدكتور بدر بن علي بن عبد الله العبد القادر بعنوان: "الانتماء إلى الوطن وأثره في حماية الشباب من الانحراف" قدّم فيها صاحبها جهدا مشكورا في تأصيل موضوع الانتماء من القرآن الكريم ومن السنة النبوية وكذا من الآثار الصحيحة المروية، وبيّن أثر

هذا الانتماء في تحصين الشباب وحمايتهم من الانحراف والغلو والتطرف... إلا أنه لم يتطرق إلى عرض مظاهر حب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأوطانهم، ولم يبين دور ذلك في ضمان الاستقرار النفسي والروحي وتحقيق الأمن المجتمعي والعام.

كما كتبت الدكتورة ليلى محمد اسليم مقالة عنونتها بـ"حب الوطن في ضوء السنة النبوية" تطرقت فيها –جزاها الله خيرا- إلى بيان مدى اعتناء السنة النبوية بغرس قيم ومبادئ حب الوطن في نفوس المسلمين، غير أن المقالة لم تلامس أسئلة الإشكالية المتعلقة ببيان دور هذا الحب في الحفاظ على اللحمة المجتمعية، وتحقيق الأمن الروحي أواسط المواطنين. ولأهمية هذا الجانب المُغيَّب في الدراسات الآنفة الذكر اخترنا هذا العنوان: "حُبّ الأوْطان وتَحقيق الأمن الروحي في السنة النبوية" ليكون موضوع الدراسة في هذا البحث.

إن الحديث عن موضوع حب الوطن وعلاقته بتحقيق الأمن الروحي لا يمكن أن يُستوعب في صفحات قليلة معدودة، إلا أننا حاولنا جاهدين تسليط بؤرة الضوء على بعض الجوانب المهمة في ذلك، محاولة منا إثراء النقاش المعمق حول الموضوع، فاقتصرنا على ما يُثير شهية الباحث في الموضوع، ليكون انطلاقة أولى ويشكل أرضية ممهدة لبحث موسع وشامل يحويه مؤلف يستفيض في البيان والشرح والتحليل، وإن هذا إلا جهد المقلّ، فما كان فيه من صواب فمن الله ومن فضله، وما كان من خطأ أو زلة أو سوء استدلال فمنا ومن الشيطان، والله الموفق والهادي لأحسن السبل.

الفصل الأول: مفهوم الوطن ومكانته في السنة النبوية

إن المتصفح للتراث الحَدِيثيّ ليجد أن في السنة النبوية - من الإشارة لمفهوم الوطن ومكانته وحبه والحنين إليه من لدن خير خلق الله محمد بن عبد الله وأصحابه الميامين – ما يسعف الباحث لتأصيل هذا الموضوع من هذا الشق من الوحي. وقبل الحديث عن مفهوم الوطن ومكانته في السنة النبوية وجب الوقوف أولا على دلالات اشتقاق أصل الكلمة (و ط ن) في لغة العرب، وبيان تطور هذا المفهوم من خلال معاجم وقواميس اللغة العربية، لنعرج بعدها إلى تناول القرآن الكريم وكذا السنة المطهرة لهذا المفهوم، وبيان توظيفهما لمفاهيم وعبارات أخرى دالة عليه.

المبحث الأول: دلالات مفهوم الوطن في اللغة والوحي

إن الباحث عن مفهوم "الوطن" - سواء في معاجم اللغة أو في القرآن الكريم أو في مصنفات السنة النبوية...- يجد جملة من المفاهيم متناثرة في هذا الطريق؛ مرتبطة أشد ارتباط بالمفهوم الذي نروم نزع الحجاب عنه، منها تلك المشتقة من أصل الكلمة، وأخرى مستقلة وُظّفت لتحل محلها في المعنى.

المطلب الأول: "الوطن" في اللغة ودلالات الاشتقاق

إن الحديث اليوم عن مفهوم الوطن هو حديث بالضرورة عن مفاهيم أخرى مشتقة من أصل الكلمة، مرتبطة فيما بينها أشد ارتباط، ولعل من بينها: المواطن، الوطني، المواطنة... وسنشير إلى دلالة كل مفهوم منها على حدة.

- **الوطن:**

يعتبر مفهوم "الوطن" من المفاهيم القديمة التي تداولتها معاجم اللغة العربية منذ بدايتها، فنجد أن الخليل بن أحمد قد عرَّفه منذ القرن الهجري الثاني بـ "موطن الإنسان ومحله"[1]. ويقال: أوطن فلان أرض كذا، أي: اتخذها محلا ومسكنا يقيم بها.[2]

ويعرفه ابن دريد بقوله:"الوطن؛ حيثُ أوطنتَ من بلد أَو دَار أَو مَكَان، يُقَال: أوطنتُ بِالمَكَانِ ووَطَنْتُ بِهِ (...) وَأَنا واطن ومُوطِن (...) والوَطَن والمَوْطِن وَاحِد، وَجمع الموطِن مواطِن، وَجمع الوَطَن أوطان. والمثل السائر: لَوْلا الوَطَنُ لَخَرِبَ البلدُ السَّوْدُ. والمَوْطِن: مَوضِع الوَطَن".[3]

ويورده علماء اللغة بمعنى المَنْزِلُ الذي تُقِيمُ به، غير أن الشائع في إطلاق لفظة "الأوطان" كان يقصد بها أوطان الدواب، أي: مرابضها التي تأوي إليها، ويزكي هذا قول الأخطل:

كُرُّوا إلى حَرَّتَيْكُم تَعْمُرُونَهَا ××× كما تَكُرُّ إلى أَوطانِها البَقَرُ.[4]

---

[1] الخليل، العين، 454/7

[2] المصدر السابق.

[3] ابن دريد، جمهرة اللغة، 928/2

[4] ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 239/9

وقد جاء في الحديث: "نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ ثَلَاثٍ: عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَعَنْ فِرْشَةِ السَّبُعِ، وَأَنْ يُوَطِّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ كَمَا يُوَطِّنُ الْبَعِيرُ "[1]، قال فؤاد عبد الباقي معلقا: "أي أن يتخذ لنفسه من المسجد مكانا معينا لا يصلي إلا فيه. كالبعير لا يبرك من عطنه إلا في مبرك قديم"[2].

كما يفيد هذا الإطلاق أيضا الدلالة على "مولد الرجل والبلد الذي هو فيه"[3]، يقول رُؤْبَةُ:

أَوْطَنْتُ وَطْناً لَمْ يَكُنْ مِنْ وَطَني ×××× لَوْ لَمْ تَكُنْ عاملَها لَمْ أَسْكُنِ"[4].

و"الوطن" عند أهل الشرع ثلاثة أنواع:

الأول: الوطن الأصلي ويسمّى بالأهلي ووطن الفطرة والقرار؛

والثاني: وطن الإقامة ويسمّى أيضا بوطن السّفر والوطن المستعار والحادث؛

أما الثالث: وطن السّكنى وهو ما ينوي فيه الإقامة أقل من نصف شهر. [5]

ولعل هذا التعدد في مفهوم الوطن ما جعلنا ندرج لفظة "الأوطان" في العنوان بدلا عن "الوطن"، وكذا مراعاةً لتعدد الانتماءات الذي قد تفرضها الهجرة. وفي السنة النبوية ما يعضد هذا الطرح؛ فقد جاء في دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لما أُخرج من مكة وأصحابه بأن يحبب إليهم المدينة كما حبب إليهم مكة "اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا مِنْ حُبِّ الْمَدِينَةِ مِثْلَ مَا جَعَلْتَ فِي قُلُوبِنَا مِنْ حُبِّ مَكَّةَ "[6]، حيث انتقل الانتماء بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، مع بقاء الولاء للوطن الأم والحنين إليه، إذ أنه صلى الله عليه وسلم أقام في بلد غريب واتّخذه وطنًا.

- المُواطِن والوطني:

---

[1] ابن ماجة، السنن، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في توطين المكان في المسجد يصلى فيه، ح: 1429. قال الألباني: حسن

[2] المصدر السابق، 459/1.

[3] الجرجاني، التعريفات، ص: 253

[4] ابن منظور، لسان العرب، 451/13

[5] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 1800/2

[6] جزء من الحديث الذي رواه الترمذي، سيأتي تخريجه في المبحث الثاني من هذا الفصل

تدل عبارة "مُواطِن" في دساتير الدول الحديثة على الفرد الذي يعيش تحت لواء دولة معينة، يكتسب جنسيتها وينتمي إليها، وجمعُها"مواطنون".

وتعني لفظة "مواطنين" - حسب معجم اللغة العربية المعاصرة- أبناء الشعب أو أبناء الوطن[1].

أما "الوطني" فهو اسم منسوب إلى الوطن، ويطلق على "مَنْ يُحبُّ وطنَه ويخلص له ويضحّي من أجله، ويعمل على نصرته، ويدعو إلى استقلال بلاده"[2]، وهذه الصفات هي المترجمة لحقيقة المواطنة التي تنشدها الدول وترجوها من المواطنين.

- المواطنة:

المواطنة مصدر "واطَنَ"، وتعتبر المعيار الأساسي لتعزيز الانتماء والإخلاص والولاء للوطن، وهي "نزعة ترمي إلى اعتبار الإنسانيّة أسرة واحدة وطنها العالم وأعضاؤها أفراد البشر جميعًا، وتقوم على عدم التمييز بين أبناء الوطن الواحد وسكانه الذين ينتمون إليه على أساس الدّين أو اللُّغة أو العنصر أو الجنس"[3]. وتفرض المواطنة على المواطنين احترام قوانين البلد، وكذا احترام حقوق الإنسان وكل الأطياف التي تعيش داخل الوطن الواحد. وسيأتي بيان ذلك في المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا البحث.

المطلب الثاني: معاني إطلاق مفهوم "الوطن" في الوحي

ذكر الله عز وجل الأوطان في القرآن الكريم بعبارات وألفاظ متعددة (كالبلد، البلدة، البلاد ثم الديار) فخبّر عن موقعها من قلوب عباده.

جاءت كلمة "البلد" في غير ما آية بمعنى الوطن؛ قال عز من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [4]، وقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [5]، ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[1].

---

[1] أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، 250/1

[2] المصدر السابق، 2463/3

[3] أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، 2462/3

[4] إبراهيم: 35

[5] الأعراف: 58

ويعرف "بيتر آن دُوزِي" البلد بـ"المكان المتخذ وطناً. يقال عن الرجل: هو بلدي أي ابن البلد ضد غريب وبراني"[2]، أو هو"كل موضع مستحيز من الأرض، عامر أو غير عامر، خال أو مسكون، والطائفة منه بلدة، والجميع البلاد (...) وربما عني بالبلد التراب (...) وقوله عز وجل: لا أقسم بهذا البلد، يعني مكة نفسه"[3]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾[4]، وقوله ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[5]. ورغم دلالة كل هذه المصطلحات (البلد، البلدة، البلاد) على الوطن، إلا أن لفظة "الديار" هي التعبير القرآني الدقيق الدال على الوطن، سيما وأنها قُرِنت بـ"الإخراج". وسنقف عندها فيما بعد إن شاء الله.

المبحث الثاني: حب الوطن ومكانته في السنة النبوية

من طبيعة الإنسان التي خلقه الله بها وفطرته التي فُطر عليها أنه يميل إلى التراب الذي شهد مسقط رأسه، والبقعة الجغرافية التي قضى فيها أيام الصبا، والبلدة التي أكل من ثمارها وشرب من مائها حتى اشتد عوده، كما أن من سنة الأنبياء والمرسلين حبهم لأوطانهم والدعاء لها ثم الحنين إليها. وسنورد من السنة النبوية الشريفة بعض ملامح هذا الحب والحنين، كما سنبين نعمة الوطن ومكانته من خلال الأحاديث والآثار والأخبار.

المطلب الأول: حب الوطن والحنين إليه

- حب الوطن: اعتزاز بالانتماء، واقتداء بسنة الأنبياء

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وأنموذجا مثاليا في حبه لوطنه ووفائه له والحنين إليه. أخرج الإمام مسلم في صحيحه "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاؤُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّمَ فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّمَ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ، وَخَلِيلُكَ، وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ، وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي

---

[1] فاطر:جزء من الآية 9
[2] بيتر آن دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، 421/1
[3] الخليل، العين، 42/8
[4] النمل:جزء من الآية 91
[5] الفجر: 8

أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ، قَالَ: ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ لَهُ، فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ"[1].

فقد كان صلى الله عليه وسلم يُخلص حبه لوطنه ويدعو له بالبركة، ويتأسى بخليل الله إبراهيم عليه السلام لما دعا لمكة، فدعا صلى الله عليه وسلم للمدينة؛ لوطنه الثاني، بعدما أخرج من وطنه الأم مُكرَهاً.

ومن علامات حب الوطن؛ حب مرافقه وعمرانه وجغرافيته ومجاله الطبيعي وكل مكوناته."عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مر بجبل أحد، فَقَالَ: هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي حَرَّمْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا"[2].

"هذا جبل يحبنا ونحبه" عبارات تكشف عن حبٍّ عميق، وتعلُّق كبير بالوطن، بحلّه وحَرَمه، بجباله ووديانه، برماله وصخوره.

ولا غرابة أن تجد حب الوطن مغروسا في نفس المواطن؛ ليس بالضرورة لأن وطنه يستجيب لمقومات رغد العيش ورفاهية الحياة، بل لأن النفس مجبولة على حب تلك الرقعة من الأرض فحسب، قال بعض الفلاسفة: "فطرة الرجل معجونةٌ بحبّ الوطن"[3]، بل إن "من علامة الرُّشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة"[4].

يقول الجاحظ: "ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم، ولولا ما منّ الله به على كلّ جيل منهم من الترغيب في كل ما تحت أيديهم، وتزيين كلّ ما اشتملت عليه قدرتهم، وكان ذلك مفوّضا إلى العقول، وإلى اختيارات النّفوس- ما سكن أهل الغياض والأدغال في الغمق واللّثق، ولما سكنوا مع البعوض والهمج، ولما سكن سكّان القلاع في قلل الجبال، ولما أقام أصحاب البراري مع الذّئاب والأفاعي وحيث من عزّ بزّ، ولا أقام أهل الأطراف في المخاوف والتّغرير، ولما

[1] مسلم، المسند الصحيح، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها بالبركة، ح:1373 .
[2] أنظر: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب أُحُد يُحِبّنَا وَنُحِبُّه، ح: 4084.
وأنظر أيضا الأحاديث: 2889، 2893، 3367، 4083، 5425، 7333.
[3] الجاحظ، الرسائل، 387/2
[4] المصدر السابق، 385/2

رضي أهل الغيران وبطون الأودية بتلك المساكن، ولا لتمس الجميع السّكنى في الواسطة، وفي بيضة العرب، وفي دار الأمن والمنعة"[1].

بل جعل بعضهم الحنين إلى الوطن من علامات كمال العقل وتحقيق الرشد وسلامة الفطرة، فقد جاء في كتب الأدب أن "من أمارات العاقل برُّه لإخوانه، وحنينه لأوطانه، ومداراته لأهل زمانه"[2].

- الحنين إلى الوطن: تحقيق للفطرة الكونية واتباع للسنة المحمدية

عرف علماء اللغة الحنين بتلك الكآبة التي تأخذ النَّفَسَ بسبب البعد عن الوطن"[3]، ويعتبر الشوق والحنين من أهم أغراض الشعر العربي قديمه وحديثه، وذلك عائد لما مر به العرب وأوطانهم من ويلات وظلم وقهر واضطهاد بسبب الكثير من الهجرات لأشخاص ومجموعات بشرية كبيرة، وبسبب تلك الرابطة المقدسة التي تدعى (حب الوطن) والتي تنشأ بين الإنسان وبين تلك البقعة من الأرض التي ترعرع فيها هو وأبناء جلدته، والتي أُجبِر لظرف ما على الرحيل منها مخلّفا الأهل والمال والوطن[4]. والسنة النبوية زاخرة بلوحات وصور من هذا الحنين إلى الوطن. روى الإمام في صحيحه:"حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي حُمَيْدٌ: أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَّكَهَا قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: زَادَ الْحَارِثُ بْنُ عُمَيْرٍ، عَنْ حُمَيْدٍ: حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا.

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: جُدُرَاتِ.تَابَعَهُ الْحَارِثُ بْنُ عُمَيْرٍ"[5].

يقول ابن الرومي يبين العلة في حب الأوطان:

وحبّب أوطان الرّجال إليهم *** مآرب قضّاها الشّباب هنالكا"[6]

---

[1] الجاحظ، الرسائل السياسية، الرسالة السابعة عشرة: رسالة الحنين إلى الأوطان، ص: 100

[2] الجاحظ، الرسائل، 389/2

[3] أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، 574/1

[4] يوسف قطريب، ابن خلدون أديبا، ص: 39.

[5] البخاري، الجامع الصحيح، أبواب العمرة، باب من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة، ح: 1802

[6] الأصفهاني، الأزمنة والأمكنة، ص: 8

لا تقتصر خاصية الحنين إلى الوطن على الإنسان فحسب، بل تشاركه فيها باقي المخلوقات من الدواب والأنعام، ألا ترى أن "البعير يحن إلى وطنه وعطنه، وهو بعمان، من ظهر البصرة، فهو يخبط كل شيء ويستبطن كل وادٍ، حتى يأتي مكانه؛ على أنه طريقٌ لم يسلكه إلا مرةً واحدة، فلا يزال بالشم والاسترواح وحسن الاستدلال، وبالطبيعة المخصوص بها حتى يأتي مبركه، على بعد ما بين عمان والبصرة"[1]، ويعضد هذا قول الجاحظ في رسائله [رسالة الحنين إلى الأوطان] "... وذلك أنّ صاحب المنزل إذا هجر منزله واختار غيره، لم يتبعه فرس ولا بغل ولا حمار، ولا ديك ولا دجاجة، ولا حمامة ولا حمام، ولا هرّ ولا هرّة، ولا شاة، ولا عصفور؛ فإنّ العصافير تألف دور النّاس، ولا تكاد تقيم فيها إذا خرجوا منها"[2]. فالحنين للوطن ليس متعلقا بالدرجة الأولى بالإنسان؛ إذ باقي الحيوانات أيضا تقاسمه هذه الخاصية، وهي أيضا تألف المكان كما يألفه الإنسان، ويعزُّ عليها فراقه كما يعز ذلك على الإنسان.

المطلب الثاني: نعمة الوطن ومكانته في السنة النبوية

- نعمة الوطن

يعتبر الوطن من بين النعم التي يُحمَد عليها، ذلك أنه يُعدّ من أهم مقومات العيش في الحياة؛ أن يكون للإنسان بيت يأويه فوق بقعة جغرافية آمنة مستجيبة للعيش الكريم. وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يحمد الله على نعمه الظاهرة والباطنة؛ من مأكل ومشرب ومسكن، روى الإمام مسلم عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه " أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، **فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ»**[3]، معناه: لا وطن له ولا سكن يأوي إليه[4].

والمتأمل في سورة قريش يجد أنها أجملت ولخّصت كل ما ندندن حوله في هذا البحث.

---

[1] الجاحظ، الرسائل، 64/1

[2] الجاحظ، الرسائل السياسية، الرسالة السابعة عشرة: رسالة الحنين إلى الأوطان، ص: 102

[3] مسلم، المسند الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ح: 2715.

[4] المصدر السابق، 2085/4

يقول عز وجل: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[1]. فرغد الرزق، والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى[2]. فقد ضمن لهم الله تعالى مقومات العيش، وأسبل عليهم الأمن، فأمرهم بإفراد العبادة له وعدم الشرك به، شكرا له على هذه النعم التي تستحق الشكر.

لقد عاقب الله بني إسرائيل بأن جعلهم يتيهون في الأرض بلا وطن، أربعين سنة عقوبة لهم، قال عز وجل: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[3]. فهذه القراءة تتيح لنا الفهم بأن مدة العقوبة لهؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة في التيه، ودخلوا بعدها مدينة أريحا"[4]، فسمى الله عز وجل فترة إبعادهم عن وطنهم بالتيه في الأرض، حيث حرمانهم من نعمة الأمن والأمان والاستقرار.

وقال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[5]، ومعلوم عند جميع العقلاء أن مفارقة الوطن والنعمة المألوفة من أصعب الأمور فجمع فرعون اللعين بين الشبهتين اللتين لا يوجد أقوى منهما في هذا الباب"[6].

ففرعون كان يدرك نعمة ملازمة الأوطان، كما يعرف مذلة التنقل عبر البلدان؛ إخراجا ونفيا، "قيل لبعض الأعراب: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان. قيل: فما الذّلّة؟ قال: التنقُّل في البلدان، والتنحّي عن الأوطان"[7].

فنعمة لزوم الأوطان اطمئنان مادي ومعنوي، لا يستشعره إلا من أُبعِد وأُخرِج من وطنه، ولعل هذا الاطمئنان ما يدلُّ عليه قوله عز وجل ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ

---

[1] قريش: 1-4

[2] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص:935.

[3] المائدة: 26.

[4] الشعراوي، تفسير الشعراوي، 3066/5

[5] الأعراف: 123

[6] الرازي، مفاتيح الغيب، 339/14

[7] الجاحظ، الرسائل، 407/2

قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ﴾[1]، "فإذا اطمأننتم": أي إذا "رجعتم إلى الوطن"[2].

- مكانة الوطن في السنة النبوية

لا يقتصر مفهوم الوطن في السنة النبوية على تلكم البقعة من الأرض، وذلك الحيز الجغرافي الذي تحده حدود معينة. بل يتعدى هذا المفهوم المادي الضيق إلى اعتباره جزءا من الشخصية؛ مُشكِّلاً مصدر الأمن والأمان، الراحة والطمأنينة، بل أكثر من ذلك؛ يستشفى بترابه ويتقوى بطعامه. ويمكننا القول -بمعنى أدق- أن "الوطن عديل الروح، لأنه للبدن كالبدن للروح، فكان الخروج منه في غاية العسر"[3]، فهنا تشبيه مفارقة الإنسان لوطنه بمفارقة الروح لجسم الإنسان (الموت).

فيصير الوطن بمثابة مأوى وقالب يحتضن البدن، كما يحتضن هذا الأخير الروح ويضمها بين جنباته.

ومن شواهد الاستشفاء بتراب الوطن ما جاء في الصحيح عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:" أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ :بِاسْمِ اللهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا[4].

وقد شهدت المباحث الطبية على أن الريق له مدخل في النضج وتعديل المزاج، ولتراب الوطن تأثير في حفظ المزاج الأصلي ودفع نكاية المضرات والمرض، وللرقى والعزائم آثار عجيبة تتقاعد العقول عن الوصول إلى كنهها"[5]. ليس التراب فحسب، بل المياه والهواء أيضا لهما تأثير قوي في تقوية مناعة صاحب الأرض والحفاظ على صحته، "وَلِهَذَا ذكروا فِي تَدْبِير الْمُسَافِر أَنه يستصحب تُرَاب أرضه إِن عجز عَن اسْتِصْحَاب مَائِهَا حَتَّى إِذا ورد غير المَاء الَّذِي تعود شربه

[1] النساء: جزء من الآية 103

[2] أبو القاسم النيسابوري، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، 386/1

[3] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،409/19

[4] البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الطب، باب رقية النبي صلى الله عليه وسلم، ح: 5745.
ومسلم، المسند الصحيح، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة، ح: 2194.

[5] القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 393/8

وَوَافَقَ مزاجه جعل شَيْئا مِنْهُ فِي سقايته وَيشْرب المَاء من رَأسه ليحفظ عَن مضرَّة المَاء الْغَرِيب ويأمن تغير مزاجه بِسَبَب استنشاق الْهَوَاء المغاير للهواء الْمُعْتَاد"[1].

وبالنظر في تاريخ العرب وأخبارها نجدها كانت إذا غزتْ وسافرتْ حملتْ معها من تُربة بلدها ما تستنشقه عند نزْلةٍ أو زكام أو صُداع، قال أحد الشعراء:

ونحمل في الأسفار ماء قبيصةٍ *** من المنشأ النائي لحبّ المراودِ"[2].

الفصل الثاني: الانتماء إلى الوطن وضمان الأمن الروحي في السنة النبوية

من خلال ما سلف؛ رأينا في تعريف مفهوم الوطن الشامل أنه يشكل ذلك القالب الذي ينصهر فيه الإنسان، فيتحقق له الأمن والأمان كما يحتضن البدن ذلك القبس الرباني الملكوتي بداخله (الروح).

والحديث عن الأمن هنا حديث عن استقرار مادي ومعنوي، خارجي وداخلي؛ الأول يتعلق بشعور يتملك الإنسان داخل وطنه تجاه الآخر والجماعة، والثاني إحساس تتشبع به روحه وتأييد معنوي يغمره بالراحة والطمأنينة وهو على أرض نشأ وترعرع عليها.

ولن يتحقق هذا الشعور الوجداني لدى الإنسان ما لم يتشبع بانتمائه لوطنه؛ حبا وحنينا، ثم ولاء تاما له.

فما حقيقة هذا الانتماء وما حدوده؟ وإلى أي حد يمكنه تحقيق الأمن العام والروحي على الخصوص؟

المبحث الأول: في فقه الانتماء ودوره في حفظ الأمن العام للمجتمع

المطلب الأول: تعدد الانتماءات وتوحيد الوطن

الانتماء في لغة العرب "افتعال" من الفعل "انتمى"، و"انتمى إليه: أي انتسب"[1]، ويعرف أيضا بـ"الاعتزاء"[2]، أَي: الانتماء إلى دين واحد وشعار واحد، وَالدَّعْوَى الانتماء كَمَا جَاءَ فِي دَعْوَى الْجَاهِلِيَّة، أَي انتماؤها فِي الاستغاثة بالانتماء إِلَى الآباء[3].

[1] السيوطي، الشمائل الشريفة، ص: 85.
[2] الجاحظ، الرسائل، 392/2

فالانتماء هنا يعني الاعتزاء وتوحيد الانتساب؛ سواء للدين أو للقبيلة أو لشعار ما. وورود "الشعار" في التعريف يوحي بالوطن؛ إذ كل وطن من الأوطان يختص بشعار يميزه، مكتوبا كان أم رمزا.

ومنه؛ فالشكل الفضفاض الذي يفرضه مفهوم "الانتماء" يجعلنا نقسمه إلى انتماءات كثيرة، يجب أخذها بتكاملها فيما بينها، حيث لا يؤثر أحدها على الآخر ولا يطغى عليه.

لذلك وجب التفريق بين مجموعة من أنواع الانتماءات؛ الكبرى منها ثم الصغرى، مع التأكيد أن كلا منها يكمل الآخر ويشد بعضها بعضا.

الانتماءات الكبرى: للوطن، للإسلام، وللبشرية

وقد جعلنا الانتماء للوطن في مقدمة باقي الانتماءات، إذ لا تشبع بباقي الانتماءات ما لم تتشبع نفس الإنسان بالاستقرار والطمأنينة داخل بيت آمن يُخوّل له انتسابه لباقي الانتماءات.

فالأول يتعلق بالانتماء لتلكم البقعة الجغرافية الذي ولد فيها الإنسان ويحيى عليها، حيث ينسب إليها ويتعلق تعريف هويته بها، فيقال: هذا مكي إذا كان من مكة، وذلك بصري إذا كان من أهل البصرة.

أما الانتماء الثاني فهو عام؛ مثل الانتماء للعروبة وللإسلام، فالعالم العربي -مثلا- وطن كل عربي، كما أن العالم الإسلامي وطن كل إنسان مسلم. جاء في صحيح مسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[4]. ففي الحديث تعظيم لحقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد، من غير بغضاء ولا شحناء بسبب القبلية أو التعصب للوطن الخاص.

---

[1] نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، 6762/10.

[2] ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 224/2.

[3] ابن فتوح، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، ص: 342.

[4] مسلم، المسند الصحيح، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح: 2586.

هذا؛ فضلا عن الانتماء للوطن الأعم؛ الذي هو الإنسانية جمعاء؛ عربا كانوا أو غير عرب، مسلمين كانوا أو غير مسلمين. قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1]، فلا ينبغي تغييب البعد الإنساني والانتماء إلى الكون وعالمية الرسالة في العيش فوق أديم هذه الأرض.

الانتماءات الصغرى: للأسرة وللمجتمع

لا يخفى ما للانتماء للأسرة من تحقيق الترابط الأسري الذي يلم أفراد الأسرة ويحفظ جماعتهم الصغيرة من التيارات التي من شأنها أن تذهب بوحدتهم وتماسكم. ولعل أول انتماء ينبغي للفرد أن ينتسب إليه قبل الوطن والدين والإنسانية: الانتماء إلى الأسرة، فهي الخلية الأولى للتربية على باقي الانتماءات.

والمتصفح لصفحات الوحي يجد هذا الترابط الأسري حاضرا بقوة، ويقف كذلك عند دوره الفعال في الانتماء للوطن وللدين. قال عز وجل: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ، وَأَنتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ، وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[2]

فالمراد بـ"والدٍ" إبراهيم عليه السلام، فإنه الذي اتخذ ذلك البلد لإقامة ولده إسماعيل وزوجه هاجر.

وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[3]، فدعا عليه السلام بأمن الوطن، ثم لأسرته أن يجنبها الله الشرك به، وأن يمدها بمدد عقدي يعلقها بالخالق وينسبها إليه. فنرى جليا كيف تشبث خليل الله بكل الانتماءات وَوَحَّدها؛ الانتماء للأسرة وللوطن ثم للدين.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[4]. قوله: "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ " دعوة للترابط المجتمعي الذي سترسيه فيما بعد فريضة الحج، فانتقل من الانتماء إلى الأسرة مرورا بالاعتزاز بالوطن (رغم انعدام مقومات العيش فيه حينئذ)

---

[1] الأنبياء: 107
[2] البلد: 1-3
[3] إبراهيم: 35
[4] إبراهيم: 37

وصولا إلى الانتماء لدين الله الخالد (الإسلام). وإبراهيم "والد سكان ذلك البلد الأصليين قال عز وجل: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ﴾[1] ولأنه والد محمد صلى الله عليه وسلم"[2].

أما الانتماء إلى المجتمع فيتحقق بحب أفراد الوطن الواحد لبعضهم، وكذا الحفاظ على وحدتهم، وذلك بصلة الأرحام والإصلاح بين الناس وعدم إيذاء الجار، فضلا عن الإحسان إلى كل مسلم، ناهيك عن احترام أهل الأديان المخالفة، وتحقيق العيش المشترك بين مختلف الأطياف داخل وطن واحد يستوعب كل الانتماءات المتعلقة بالعرق والجنس واللون والدين...

المطلب الثاني: العيش المشترك ودوره في حفظ الأمن العام للمجتمع في السنة النبوية

لقد وجه الإسلام الناس إلى وحدة أصلهم، وأن تعدديتهم ضرورة لتعارفهم وتكاملهم، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3]، وقد جاء في حديث حجة الوداع: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ[4] وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم. ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا:يَوْمٌ حَرَامٌ . ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ . قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ . قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قَالَ: وَلَا أَدْرِي قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا - كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبَلَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ [صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ][5] قَالَ: لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ" [6].

إن الدعوة لحب الوطن واستقلاله والدفاع عنه ثم الولاء له لا يعني بالضرورة التقوقع في أنانية مقيتة داخل أسواره، وسد الثغور والأبواب أمام كل براني غريب؛ الذي قد يختلف مع أبناء الوطن الواحد في اللون أو في اللغة أو في الدين...

---

[1] الحج: 78

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير، 349/30

[3] الحجرات: 13

[4] كذا في طبعة جمعية المكنز الإسلامي، وفي طبعة مؤسسة الرسالة "الأعجمي".

[5] كذا في طبعة جمعية المكنز الإسلامي، وما بين المعقوفين غير موجود في طبعة مؤسسة الرسالة .

[6] ابن حنبل، المسند، أحاديث رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ح: 23972.

والمطلع على صفحات السنة المطهرة يجد أن مفهوم الوطن حينئذ يستوعب كل الأطياف ويرسي مبدأ التعايش ويحترم المشترك الإنساني. ولعل من بين تجليات هذا التعايش ما جاء في وثيقة المدينة التي سطرها محمد بن عبد الله بين المسلمين واليهود، والتي أسست للعيش المشترك بين مواطني دولة المدينة التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتولى إدارة شؤونها وقيادتها، فآخى بين المهاجرين والأنصار على اختلاف قبائلهم وتعدد عشائرهم فأقام دولة مستقلة.

ويتكون سكان المدينة من المسلمين واليهود فضلا عن بعض المشركين، فكانت أعراقهم متنوعة وثقافاتهم متفاوتة، ومن هنا فقد جاءت وثيقة المدينة الدستورية لتعلن مبادئ وأسس حكم الدولة وواجبات مواطنيها والعلاقة بينهم وبين رئاسة الدولة، متمثلة في الرسول صلى الله عليه وسلم وكل ما لهم وما عليهم من حقوق وواجبات دستورية.

إن صحيفة المدينة تحث على القيم الكبرى، بل هي نفسها مظهر من مظاهرها، فكليات الشريعة ونصوصها تشهد أن صحيفة المدينة شرط فيها النبي صلى الله عليه وسلم لكل مكونات مجتمع المدينة واشترط عليهم، وهي مؤهلة لأن تكون مرجعا لعلاقة المسلمين بالمخالف ديانة، لأن مضامينها لا تخالف نصا ولا تنقض مقصدا، فكل بند منها إما أنه أتى يرحم الخلق، أو يقرر حكمة، أو يأمر بعدل، أو يحقق مصلحة لا تتعلق فقط بالمسلمين، بل هي مصلحة الإنسان الذي يعيش بينهم مهما كان عرقه وديانته، ويدرأ مفاسد العدوان وسفك الدماء، ويصون الأنفس والأموال والحريات ويضمن حرية المعتقد والممارسة لكل طائفة.[1]

والمطلع على هذه الوثيقة يجد نفسه أمام نصوص دستورية لم يسبق لها وجود في تاريخ الفكر الإنساني المؤسس للعيش المشترك داخل الوطن الواحد، كما يستنبط المنهج النبوي الناجح في سياسة الدولة والحفاظ على بيضة الوطن، ومن مظاهر هذا النجاح:

- **إرساء التعددية الدينية داخل الوطن الواحد:**

لقد وحّد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مفهوم الوطن لدى كل الأطياف القاطنة بالمدينة، فجعل اليهود والمؤمنين جنبا إلى جنب أمّة واحدة، تشتركان في الوطن نفسه، وتختلفان في

[1] إعلان مراكش لحقوق الأقليات الدينية في العالم الإسلامي: الإطار الشرعي والدعوة إلى المبادرة، صص: 67-68

الديانة، ولعل هذا ما ينص عليه قوله صلى الله عليه وسلم: "**وَإِنّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِيْنِ دِينُهُمْ**"[1].

بند يرسي مبدأ التعايش والمشترك الإنساني، منبثق من الدستور الكوني (القرآن الكريم)؛ شعاره ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2]، وأُسُّهُ ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[3].

والمتأمل في سياسة نبي الله صلى الله عليه وسلم في تسيير الدولة وإدارتها يقف على هذه الحنكة وتلك الحكمة في توحيد العيش بين مختلف الديانات في وطن واحد يمتص كل الخلافات التي قد تُنتجها العرقية والقبلية الموجودة حينئذ.

وقد نجح صلى الله عليه وسلم في الحفاظ على اللحمة الوطنية لمواطني المدينة نجاحا يُترجمه استقرار الدعوة وانتشارها بمدينته. ولعل تحقيق هذه التعددية في العيش المشترك داخل الوطن الواحد هو ما يدندن حوله مختلف قياد الدول اليوم لما ينتج عنها من درء التجاذبات التي قد تهدد استقرار الدولة وتسبب في شرخ بيضة الوطن.

- **التمسك بقيادة الدولة ودوره في إرساء مبدأ المواطنة والقضاء على التشرذم:**

لقد حث الوحي -بشقيه- على التمسك بطاعة ولاة الأمور من أهل القيادة وإدارة الدولة لما في ذلك التمسك من حفظ اللحمة المجتمعية داخل الأوطان، وكذا الحفاظ على وحدة القرار وإسناد تدبير أمور وشؤون البلد لحاكم الدولة.

ولم يَفُت النبي صلى الله عليه وسلم أن يشير إلى هذا المبدأ في صحيفة المدينة، فقال: "**وَإِنّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنّ مَرَدّهُ إِلَى اللهِ عَزّ وَجَلّ، وَإِلَى مُحَمّدٍ صَلّى الله عَلَيهِ وسلّم**"[4]، ولهذا البند أصل قوي في القرآن والسنة؛ قال عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[5]، وفي الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ

[1] السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، 176/4
[2] الكافرون: 6
[3] الحجرات: جزء من الآية 13
[4] السهيلي، الروض الأنف، 176/4
[5] النساء: 59

أُمِّ الْحُصَيْنِ الأَحْمَسِيَّةِ قَالَتْ:" سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى الله عَلَيهِ وسلَّم يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ قَدِ التَفَعَ بِهِ مِنْ تَحْتِ إِبْطِهِ، قَالَتْ: فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى عَضَلَةِ عَضُدِهِ تَرْتَجُّ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ، **وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ.** وَفِي البَاب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ؛ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، عَنْ أُمِّ حُصَيْنٍ"[1].

إن طاعة ولاة الأمور من أولى مقومات المواطنة الصالحة داخل كل وطن، إذ الخروج عن هذا المقوم من بين أسباب الانفلات والتشرذم، وبزوغ النزعة الطائفية والتمذهب العصبي المقيت، فبوحدة القيادة داخل الدولة تتوحد كلمة الوطن، وترسم للمواطنين دستورا وطريقا يتساوى فيه الجميع؛ لهم حقوق وعليهم واجبات.

من هذا المنطلق؛ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مواطني المدينة - دون تمييز ولا استثناء- برد الأمور المتنازع فيها إلى الله وإلى الرسول حتى لا يترك مجالا لفرقة دون أخرى أن تقرر وتسير بتطرف يخدمها على حساب الأخرى.

الانتماء للوطن سبيل لتحقيق الأمن العام ونشر السلم العالمي:

جاء في الوثيقة: "**وَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ، وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ**"[2]، بهذا البند ذيَّل صلى الله عليه وسلم دستور المدينة؛ بند يضمن فيه الأمن - في الحل والترحال- لكل من ينتمي للوطن المشترك، ولكل من صادق على شروط وبنود الدستور المنظم لحياة المواطنين بالمدينة، مع اختلاف أعراقهم وديانتهم. وهي دعوة صريحة لشمولية السلم على كل المنتمين لهذا الوطن؛ دعوة محمدية تنادي مواطني المدينة بأن ﴿**ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾[3]، ضمانتهم في ذلك انضواؤهم تحت لواء دستور الدولة.

إن وعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم لمواطني المدينة بالأمن المجتمعي داخل الوطن وكذا بالسلم العالمي خارجه رهين بإخلاص ولائهم لوطنهم وتمثلهم لفعل المواطنة؛ وذلك بالاستجابة لبنود

[1] الترمذي، الجامع الكبير، أبواب الجهاد، باب ما جاء في طاعة الإمام، ح: 1706
[2] السهيلي، الروض الأنف، 177/4
[3] البقرة: جزء من الآية 208.

الوثيقة وشروطها. ولعل هذا ما يُكسِب المواطنة شرعية تحقيق الأمن لمواطنيها وتمتعهم بحقوقهم، سواء كانوا فوق ترابها أو خارجه.

- **تحقيق العدل بين المواطنين دون تمييز:**

يُعدّ العدل من الكليات الشرعية المهمة في حكم كل دولة، إذ المعيار الرئيس في استقرار الأوطان مبني على العدل بين مواطني الوطن الواحد؛ دون تغليب المفاضلة بين المواطنين، حتى لا يعوض مكانه الظلم، وقد راعت القيادة النبوية هذه القيمة، ونادت بتذكير مواطني المدينة –على اختلافهم وتعدديتهم- بها، مصداقا لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، بناء على هذه الكلية الشرعية رسم صلى الله عليه وسلم بندا نفى فيه الظلم بين من اصطف في صف مواطني المدينة، جاء في الوثيقة قوله:

"**وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسْوَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ**"[2].

فكانت صحيفة المدينة تحث على القيم الكبرى، فكليات الشريعة ونصوصها تشهد أن دستور المدينة شرط فيه النبي صلى الله عليه وسلم لكل مكونات المجتمع المدني واشترط عليهم، وهي مؤهلة لأن تكون مرجعا لعلاقة المسلمين بالمخالف ديانة.

المبحث الثاني: مفارقة الأوطان وتأثيرها على زعزعة الأمن الروحي للمواطنين

من مظاهر واقعية الشريعة الإسلامية لفطرة الإنسان أن آي الوحي تتعامل مع هذا الكائن بفطرته المزدوجة، لكن في كيان واحد متكامل؛ فهناك جسم وروح، لذلك وجه الإسلام الإنسان أن يقضي ضروریاته بالمزاج المترابط من الجسم والروح معا. من هذا المنطلق وجبت مراعاة كلا الجانبين أثناء دراسة حالة من حالات تفاعل الإنسان مع مجتمعه ومجاله الذي ينتمي إليه.

لا يخفى ما لأمن المواطن واستقراره بوطنه من شعور وإحساس بالطمأنينة تجاه وطنه الذي يعيش فيه، وما كان لهذا الاستقرار وهذا الإحساس بطمأنينة النفس أن يتحققا لولا تشبُّع نفسية الفرد بالمواطنة الصادقة التي يحققها تعلقه بذلك الوطن، حبا وحنينا، انتماء واعتزازا.

---

[1] النحل: 90

[2] السهيلي، الروض الأنف، 175/4

وقد بينت السنة النبوية في نصوصها وأحداثها تلكم العلاقة المتوطدة بين كلا من حب الوطن وتحقيق الأمن الروحي للمواطن، حيث يصير الثاني متعلقا بتحقيق الأول، والعكس؛ فيرتبط كلاهما بالآخر وجودا وعدما.

فالأمن الروحي مطلب وطني، وحب الوطن والانتماء إليه طريق لتحقيق هذا الأمن في نفس المواطن. إلا أن ثمة مقومات يجب على قائد الدولة مراعاتها لضمان هذا الأمن وتحقيقه.

المطلب الأول: مقومات تحقيق الأمن الروحي

لقد اهتمت السنة النبوية أشد اهتمام بالحفاظ على الأوطان، فاعتبرت الدفاع عن الوطن من أسمى المهمات، ولذلك اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم المدافع عن ماله أو دينه أو دمه أو أهله مجاهدا. أخرج الإمام الترمذي في السنن عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:" سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ.

هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَهَكَذَا رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ نَحْوَ هَذَا وَيَعْقُوبُ هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ [1].

والوطن جامع لكل هذه الضروريات، بل لا يمكنها أن تتحقق إلا بالاستقرار والأمن داخل الوطن، فيصير المدافع عنه مدافعا عن ماله ودينه ودمه وأهله بالضرورة.

من هنا؛ اعتبرت السنة النبوية الدفاع عن حدود الوطن مقوما ضروريا من مقومات تحقيق الأمن النفسي والاجتماعي، فبينت ما لحرس الحدود من مكانة رفيعة أكَّدتها نصوصها الصحيحة.

- مكانة حرس حدود الوطن في السنة النبوية:

لقد وعد الله الحارسين عن بيضة الوطن بالجزاء الأوفى وحرّم عليهم عذاب جهنم، لما يعتبر ذلك من أولى مقومات تحقيق الأمن بشتى صنوفه أواسط المواطنين، فـ: "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ :عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، **وَعَيْنٌ**

[1] الترمذي، السنن، أبواب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، ح: 1421.

بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَفِي البَاب عَنْ عُثْمَانَ، وَأَبِي رَيْحَانَةَ. وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ شُعَيْبِ بْنِ رُزَيْقٍ"[1].

ومهما اختلف مقصد الحراسة -سواء أتعلقت بالدين أو بالنفس أو بالمال والأهل- فيبقى الوطن هو ذلك القالب التي يحوي كل هذه الضروريات، فيصير الحارس على أحدها حارسا على وطنه، حفظا لكل ما تقدم ذكره ودفاعا عنه.

فقوله "وعين باتت تحرس في سبيل الله": شامل لمن حرس الجيش من عدو، ومن حرس الثغر بالرباط فيه"[2].

وجاء في حديث آخر عَنْ سَلْمَانَ قَالَ:" سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ :**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ**، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ"[3].

فلا غرابة أن يكون لهذه المهمة هذا الأجر والثواب العظيم، إذ هي تأمين المواطن داخل سربه، وبالتالي يتشبع كيانه بحبه لتلك الرقعة الجغرافية، لتصير بذلك إحدى مقومات العيش الآمن ووسيلة مثلى لتحقيق كرامة المواطن وإحساسه بنعمة الاستقرار النفسي والبدني. وقد عدّها (نعمة الأمن) النبي صلى الله عليه وسلم من النعم الذي تُشعر الإنسان بامتلاك نصيب أوفر من دنياه. بوّب الإمام البخاري بابا في أدبه المفرد أسماه " باب من أصبح آمنا في سربه" وأورد ضمنه حديث سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: **«مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»**[4] .

فجعل صلى الله عليه وسلم كلا من تحقيق الأمن في الوسط والعافية في الجسد وتوفير طعام اليوم تحقيقا للدنيا كلها.

---

[1] المصدر السابق، أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، ح: 1639.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال الألباني: صحيح.

[2] محمد البكري، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، 106/7.

[3] مسلم، المسند الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، ح: 1913.

[4] البخاري، الأدب المفرد، باب من أصبح آمنا في سربه، ح: 300.

قال الألباني: حديث حسن

- **تمكين المواطن من حقوقه وتوفير مقومات العيش الكريم:**

جاء في مسند الإمام أحمد ذكر مطالبة المواطن بحقوقه، بل جعل صلى الله عليه وسلم الموت في سبيل أخذ الحقوق من أشرف أنواع الموت. "قَالَ سَعْدٌ بن أبي وقاص: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: **"نِعْمَ الْمِيتَةُ أَنْ يَمُوتَ الرَّجُلُ دُونَ حَقِّهِ"**[1].

إن ما يجلب الإحساس بتحقق الأمن لدى المواطن يكمن بالدرجة الأولى في تمتع هذا الأخير بحقوقه المشروعة؛ من مأكل وتطبيب وإسبال الأمن على بقعته التي يعيش بداخلها ويحيى فوق ترابها، إذ بدون إحدى هذه المقومات يتزعزع إحساسه بالأمن ذاك.

وقد شاعت على ألسن العرب مقولة "الْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ، وَالْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ"[2].

فالوطن حيث وجود الاستقرار وتحقق الأمن لدى المواطن؛ تتجلى حقيقته في غنى النفس بما يسدُّ احتياجاتها، من ضروريات العيش الكريم ومقوماته. إذ بدون هذه الأشياء يعيش المواطن غريبا داخل وطنه، وفي المقابل؛ يحسُّ بالوطنية داخل أسوار بلد آخر لا تربطه به أية علاقة إلا توفيره له لظروف العيش اللائق.

إن علاقة المواطن بوطنه علاقة مبنية على تبادل الأدوار والواجبات؛ للمواطن واجباته تجاه وطنه يلتزم بها بما يحقق المواطنة الصالحة المستجيبة لقوانين البلد، كما له الحق في أن يعيش فيه مطمئن النفس، مرتاح البال، قرير العين، مقابل ضريبة المواطنة التي يمثلها بحبه وولائه وإخلاصه لوطنه.

أما إحساس الفرد برغد العيش وتحقيق مقومات الحياة الكريمة خارج وطنه فلا يخلو من تمزق وألم نفسي، وإن كان في الحقيقة لا يشكو نقصا وفراغا ماديا في حياته بعيدا عن وطنه، إلا أن نفسه تجدها مجبولة على حب وطنه الأم وتواقة إليه، ولو بعد حين.

---

[1] ابن حنبل، المسند، مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ح: 1620.

وعلق عليه شعيب الأرنؤوط في الحاشية: " إسناده ضعيف لانقطاعه، أبو بكر بن حفص ثقة من رجال الشيخين، إلا أنه لم يسمع من جده الأعلى سعد، وإبراهيم بن المهاجر مختلف فيه، وروى له مسلم. حسن: هو ابن صالح بن صالح بن حي". [مسند أحمد، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، 154/3]

[2] ابن الأعرابي، المعجم، 288/2.

وسنعرض في الصفحات الآتية ما للإخراج من الوطن من هذه المعاناة، مستعينين في ذلك بمواقف وملامح من السنة النبوية؛ ملامح ينتصر فيها حب الوطن والتعلق به على كل ما ذُكِر.

المطلب الثاني: فتنة الجلاء عن الأوطان وتأثيرها على الإنسان

يمكن تعريف مفهوم "الجلاء" بـ "الخروج عن الوطن"[1]، أو " الإخراج من الوطن مع الأهل والولد"[2]. قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾[3]، فقد سوى الله في الآية بين قتل النفس وبين الخروج من الديار.

والمعنى أنا لو شددنا التكليف على الناس، نحو أن نأمرهم بالقتل والخروج عن الأوطان لصعب ذلك عليهم ولما فعله إلا الأقلون، وحينئذ يظهر كفرهم وعنادهم، فلما لم نفعل ذلك رحمة منا على عبادنا بل اكتفينا بتكليفهم في الأمور السهلة (...) وقوله "ما فعلوه" عائدة إلى القتل والخروج معا، وذلك لأن الفعل جنس واحد وإن اختلفت ضروبه"[4].

وقال في آية أخرى ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[5]. في الآية تسوية بين الخروج من الديار وبين هلاك الأبناء، إذ جعل تبارك وتعالى القتال ثأرا للجلاء.[6]

وقوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[7]، أي: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل.

وقيل لبعض الحكماء: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت، فجعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التي يتمنى عندها الموت. ومنه قول القائل:

لَقَتْلٌ بِحَدِّ السَّيْفِ أَهْوَنُ مَوْقِعاً ××× عَلى النَّفْسِ مِنْ قَتْلٍ بِحَدِّ فِرَاقِ"[1]

---

[1] الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 270/9

[2] الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل، 1197/2

[3] النساء: 66

[4] الرازي، مفاتيح الغيب، 130/10-131.

[5] البقرة: 246

[6] البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص: 138

[7] البقرة: 191

ففراق ما ألفته النفس في حياتها أشد وأكثر ألما من فراقها عن الجسد. والفرق بينهما؛ أن الثاني يضع حدا للألم والمعاناة في الدنيا، أما الأول فيُخلّف غصة وألما مستمرا يبقى ببقاء النفس على قيد الحياة.

- **جزاء الصابرين على مفارقة الوطن:**

يقول تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

ولما كان الصبر على هجرة الوطن ولا سيما إن كان ثَمّ أهل وعشيرة شديداً جداً، ذكر ما للصابر على ذلك لمن تشوف إلى السؤال عنه فقال: "إنما يوفى" أي التوفية العظيمة. "الصابرون" أي على ما تكرهه النفوس في مخالفة الهوى واتباع أوامر الملك الأعلى من الهجرة وغيرها "أجرهم بغير حساب"[3].

فقال جل وعلا عن المهاجرين والذين أخرجوا من أوطانهم ﴿الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[4].

فذكر أولا الهجرة، وهي الخروج عن الوطن، وهذا من أصعب الأشياء وأشدها على الإنسان، إذ هو مفارقة المكان الذي ربا فيه ونشأ مع أهله وطريقتهم.

- **الإخراج من الوطن وتأثيره على الإنسان:**

بالنظر إلى وقع الإبعاد عن الأوطان على الإنسان نجد أن ذلك لا يقتصر على نفسية المواطن المخرَج من وطنه فحسب، بل يتعداه إلى تأثيره أيضا على صحته.

أولا: تأثيره على الجانب النفسي

يعتبر الإخراج من الوطن من الأمور الشاقة على النفس، بل يُعدّ مما لا طاقة للإنسان به:

---

[1] الزمخشري، الكشاف، 236/1

[2] الزمر: 10

[3] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 472/16

[4] آل عمران: 195

-حَدَّثَنَا أَبِي، ثنا عَبْدُ السَّلامِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَضْرَمِيُّ، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنِ ابْنِ ثَوْبَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عن مكحول، في قوله: رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ قَالَ: "الْغُرْبَةُ" قال المحقق: النزوح عن الوطن[1].

فالغربة قسوة شديدة الوقع على النفس، واضطراب داخلي يُعكِّر صفوها ويُشعِرها بالتيه والنقص بعيدا عن موطنها. يقول إبراهيم بن أدهم: «عَالَجْتُ الْعِبَادَةَ، فَمَا وَجَدْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِزَاعِ النَّفْسِ إِلَى الْوَطَنِ»[2]، وقال: «مَا قَاسَيْتُ فِيمَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ مُفَارَقَةِ الْأَوْطَانِ»[3].

وقصة الصحابي الجليل أصيل -لما وفد المدينة قادما من مكة- خير دليل يجسد هذا الألم الذي تُلحقه مفارقة الإنسان لوطنه بالقلب والنفس. "عَنْ بُدَيْحٍ قَالَ: " قَدِمَ أَصِيلٌ الْهُذَلِيُّ عَلَى رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَا أَصِيلُ، كَيْفَ تَرَكْتَ مَكَّةَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَسَنَ أَبْطُحُهَا وَانْتَشَرَ سِلْمُهَا، وَأَعْذَقَ ثِمَارُهَا، وَأَحْجَرَ إِذْخِرُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**وَيْهًا يَا أَصِيلُ، دَعِ الْقُلُوبَ تُقِرَّ قَرَارَهَا**» قَالَ الشَّيْخُ: وَهَذَا حَدِيثٌ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مِنْ حَرَّانَ، وَلَا أَحْفَظُ رَوَاهُ إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَيَّةَ الْحَرَّانِيُّ".[4]

لقد استوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبه القادم من مكة بعدما أخذ في وصف حال مكة بعد الهجرة. وقوله: "ويها يا أصيل" دليل على صدّ تجديد الذكرى بالوطن الأم وتأثر النفس بذلك.

لقد تحرّكت نفسه صلى الله عليه وسلم سماعا بأحوال وطنه الذي أُخرج منه مجبرا. وما قوله: "دع القلوب تقر قرارها" إلا إشارة إلى أن قلبه نزع إلى مكة وأخذ في اختراق الجسد ليتصل بمحله الذي ألفه.

يقول أحد الشعراء:

ومغتربٍ بالمرج يبكي لشجوه ××× وقد غاب عنه المسعدون على الحب

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه ××× تنفس يستشفي برائحة الركب"[5]

---

[1] ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، 581/2

[2] أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 380/7.

[3] المصدر السابق.

[4] أخرجه أبو الفتح الأزدي في "المخزون في علم الحديث"، 46/1 والأزرقي في "أخبار مكة"، باب"تذَكُّر النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ مَكَّةَ"، 154/2 وابن أبي الدنيا في "المطر والرعد والبرق"، باب المطر، ح: 80.

[5] البيهقي، المحاسن والمساوئ، فصل محاسن الحنين إلى الوطن، ص: 139

والمتأمل في قصة بدء الوحي يقف عند الذهول والاستغراب الذي أصابه صلى الله عليه وسلم من فكرة إبعاده عن وطنه وإخراجه منه. جاء في حوار ورقة بن نوفل مع رسول الله عليه السلام: " لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا"[1].

"أَوَمُخْرِجِيّ هُمْ؟ " فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى حُبّ الْوَطَنِ وَشِدّةِ مُفَارَقَتِهِ عَلَى النّفْسِ (...) فَلِذَلِكَ تَحَرّكَتْ نَفْسُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْخُرُوجِ مِنْهُ مَا لَمْ تَتَحَرّكْ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَالَ: "أَوَمُخْرِجِيّ هُمْ؟". وَالْمَوْضِعُ الدّالّ عَلَى تَحَرّكِ النّفْسِ وَتَحَرّقِهَا إدْخَالُ الْوَاوِ بَعْدَ أَلِفِ الاسْتِفْهَامِ مَعَ اخْتِصَاصِ الْإِخْرَاجِ بِالسّؤَالِ عَنْهُ وَذَلِكَ أَنّ الْوَاوَ تُرَدّ إلَى الْكَلَامِ الْمُتَقَدّمِ وَتُشْعِرُ الْمُخَاطَبَ بِأَنّ الاسْتِفْهَامَ عَلَى جِهَةِ الْإِنْكَارِ أَوْ التّفَجّعِ لِكَلَامِهِ أَوْ التّأَلّمِ مِنْهُ"[2]. وبعد إخراجه صلى الله عليه وسلم أقسم على إخلاص حبه لمكة وبيّن أنه لولا إخراجه منها ما فعل، فحوّل انتماءه للوطن الثاني (المدينة) وصار يدعو الله أن يحببها إليه كما حُبّبت إليه مكة. جاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ حَمْرَاءَ قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَاقِفًا عَلَى الْحَزْوَرَةِ، فَقَالَ :وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ"[3].

وفي حديث آخر عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:" قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَكَّةُ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا مِنْ حُبِّ الْمَدِينَةِ مِثْلَ مَا جَعَلْتَ فِي قُلُوبِنَا مِنْ حُبِّ مَكَّةَ" ، وَمَا أَشْرَفَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْمَدِينَةِ قَطُّ إِلَّا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ الْبِشْرُ وَالْفَرَحُ"[4].

لا يقتصر تأثير الجلاء من الأوطان على الجانب المعنوي للإنسان (النفس، القلب) بل يتعداه إلى إصابة جسده بالسقم أيضا، وفيما يلي بيان حال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدى تدهور صحتهم بعد انتقالهم من مكة إلى المدينة.

---

[1] جزء من حديث البخاري، الجامع الصحيح، بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ح: 3

[2] السهيلي، الروض الأنف، 273/2

[3] الترمذي، السنن، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب في فضل مكة، ح: 3925. حديث حسن صحيح، غريب.

[4] الطبراني، المعجم الكبير، 361/12، ح: 13347

ثانيا: تأثيره على الجانب الصحي

تحدثنا أمنا عائشة رضي الله عنها عن حالة كل من أبي بكر وبلال رضي الله عنهما لما قدما المدينة ولم يألفا المكان، كما يترجم الأثر حجم الألم والسقم الناتج عن تغيير صحابة رسول الله لوطنهم، مجبرين على ذلك غير مخيرين؛ قَالَتْ رضي الله عنها:" لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْمَدِينَةَ وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ:

كُلُّ امْرِئٍ مُـصَبَّــحٌ فِي أَهْلِـهِ *** وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْـلِهِ

وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أُقْلِعَ عَنْهُ الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ يَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً *** بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِــرٌ وجـليل

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَـاهَ مَجَنَّـةٍ *** وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

قَالَ: اللَّهُمَّ الْعَنْ شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِنَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ قَالَتْ: وَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهِيَ أَوْبَأُ أَرْضِ اللهِ، قَالَتْ: فَكَانَ بُطْحَانُ يَجْرِي نَجْلًا، تَعْنِي مَاءً آجِنًا "[1].

يقول ابن بطال معلقا على الحديث: "أما حديث عائشة حين وُعك أبو بكر وبلال وإنشادهما في ذلك؛ فإن الله عز وجل لما ابتلى نبيه بالهجرة وفراق الوطن ابتلى أصحابه بما يكرهون من الأمراض التي تؤلمهم (...)، فتعزى أبو بكر عند أخذ الحمى له بما ينزل به الموت في صباحه ومسائه (...)، أما بلال فإنما تمنى الرجوع إلى مكة وطنه الذي اعتاده ودامت فيه صحته.

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل بأصحابه من الحُمَّى والوباء خشي كراهية البلد، لما في النفوس من استثقال ما تكرهه، فدعا الله في رفع الوباء عنهم، وأن يحبب إليهم المدينة كحبهم مكة وأشد"[2].

لقد تأكد لنا في غير ما مرة أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يستعينون –وهم خارج أوطانهم- بالالتجاء إلى الله عز وجل بالدعاء في أن يبارك الله لهم في وطنهم، ليتبين بعد

[1] البخاري، الجامع الصحيح، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي صلى الله عليه وسلم أن تعرى المدينة، ح: 1889.
[2] ابن بطال، شرح صحيح البخاري، 558/4

ذلك أن نعمة استقرار الإنسان –سواء في مكونه الجسدي أو النفسي – من أكبر النعم الذي يستظل المواطن تحت ظلها، إذ بدونها لا يمكن للإنسان أن يعيش مرتاح الكيان. لذلك استحقت شكر الله وحمده عليها.

وختاما؛ فقد تبين أن الأمن الروحي للإنسان داخل وطنه تاج فوق رأسه لا يراه إلا من أُخرِج من وطنه وحُرِم من العيش في أرض أسهمت في تكوين شخصيته جسما كانت أو قلبا، روحا كانت أم نفسا.

خاتمة:

الحمد لله رب العالمين أولا وآخرا، والصلاة والسلام على محمد المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد؛ فقد يسّر الله تعالى لنا خوض غمار هذا البحث، وتبدّت لنا في ختامه جملة من **النتائج**، لعلّ من بينها:

- أن "الوطن" كمفهوم بين دفتي الوحي (قرآنا وسنة) حظي باهتمام بالغ، وإن لم يُذكَر بجذر الفعل (و ط ن) فقد تناوله كتاب الله وكذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ وعبارات أخرى دالة عليه.

- أن هذا التأصيل الشرعي للمفهوم ولموضوع حب الأوطان كشف عن الذخائر التي تختزنها السنة النبوية التي لو وظفت توظيفا علميا لكانت أمة الإسلام قائدة العالم إلى الأمن والاستقرار.

- ضرورة العودة إلى سنتنا المطهرة وسيرة حبيبنا صلى الله عليه وسلم والاقتداء بها في أمورنا الدنيوية كلها، إذ تأكّد لنا في غير ما مرة أنها أعظم قانون وأنجع دستور ينظم حياة الإنسان في علاقته مع الآخر ومع المحيط.

- اعتبار الاستقرار والأمن بالوطن من أولويات ومقومات العيش الكريم، بل عدّ من كبرى النّعم التي تستحق الشكر والحمد.

- أن الانتماء للوطن في السنة النبوية لا يُعرَّف داخل الدائرة الضيقة، ولا يتعارض وباقي الانتماءات الأخرى المشروعة (الانتماء للدين، للأسرة، للمجتمع ثم للبشرية)، وإنما داخل مجموعة من الدوائر التي تتكامل وتترابط فيما بينها.

- تَبيَّن ما لحب الأوطان والانتماء لها من ضمان الاستقرار وتحقيق الأمن الروحي النفسي وكذا حفظ الأمن المجتمعي العام.

- تأكد لنا من خلال نصوص السنة النبوية أن نفسية الإنسان وصحته مرتبطتان باستقراره في وطنه، وتبين ما مدى تأثير جلاء الإنسان من وطنه من مخلفات نفسية أليمة.

- تحقيق الأمن والاستقرار داخل الوطن من الغايات الكبرى التي نادى بها المجتمع النبوي وقائده صلى الله عليه وسلم، مع مراعاة قبول الاختلاف العرقي والتنوع الديني داخل الأوطان، وعدم التمييز بين المواطنين على أي أساس ما دامت ضريبة المواطنة تجمع بين كل المواطنين وتوحدهم.

أما فيما يخص **توصيات البحث** فنوردها كالآتي:

- تكثيف جهود الدول الإسلامية في الدعوة إلى حب الأوطان والتعلق بها، وذلك بمختلف مؤسساتها؛ الدينية والاجتماعية والإعلامية والتعليمية، وذلك في إطار ترسيخ مبدأ المواطنة الصالحة والالتزام بتبادل الأدوار بين الدولة والمواطنين (الحقوق والواجبات).

- تضمين مقررات التدريس بمختلف الأسلاك التعليمية مادة التربية على المواطنة، والاستعانة بالتجربة النبوية في قيادة مجتمع المدينة لأخذ الدروس والعبر.

- دعوة ولاة أمور المسلمين إلى اعتماد مبادئ وأُسُس وثيقة المدينة المبنية على العدل والتي أسَّسَها رسول الله صلى الله عليه وسلم لإرساء العيش المشترك، والتي حققت نجاحا منقطع النظير على مستوى سياسة الدولة وحفظ الأمن والاستقرار وضمان الحقوق للمواطنين بدون أي تمييز.

- ترسيخ مبدأ الانتماء والولاء للوطن أواسط المواطنين والدفاع عنه والتمسك بطاعة قيادة الدولة، مع الامتثال والاستجابة لنداء الوطن في الدفاع عنه وحمايته من تسلل الأخطار إليه.

- الحرص على تنظيم فعاليات ثقافية وتظاهرات علمية بالدول الإسلامية حول حب الوطن؛ من ندوات ومؤتمرات حول الموضوع، وكذا الاحتفالات الوطنية والاحتفاءات برموز الوطن المدافعين عنه.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.**

- إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1404هـ.

- إبراهيم بن محمد البيهقي، **المحاسن والمساوئ**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1380هـ.

- ابن القاضي محمد الفاروقي التهانوي، **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تحقيق: د. علي دحروج، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 1416هـ.

- أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1422هـ.

- أبو الحسن علي ابن سيده المرسي، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1421 هـ.

- أبو الحسن علي بن خلف ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض - السعودية، مكتبة الرشد، 1423هـ.

- أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، 1323هـ.

- أبو الفتح محمد بن بريدة الأزدي، **المخزون في علم الحديث**، تحقيق: محمد إقبال، دلهي-الهند، الدار العلمية، 1408هـ.

- أبو الفضل محمد جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، 1414هـ.

- أبو القاسم جار الله محمود بن أحمد الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، بيروت، دار الكتاب العربي، 1407هـ.

- أبو القاسم سليمان بن مطير اللخمي الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د.ت.

- أبو القاسم عبد الرحمن بن أحمد السهيلي، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1421هـ.

- أبو القاسم محمود برهان الدين الكرماني، **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، بيروت، مؤسسة علوم القرآن. د.ت.
- أبو القاسم محمود بن أبي الحسن النيسابوريّ الغزنوي، **باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن**، تحقيق: سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، جامعة أم القرى، 1419هـ.
- أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، بيروت، دار الأندلس للنشر، 1403هـ.
- أبو بكر عبد الله ابن أبي الدنيا، **المطر والرعد والبرق**، تحقيق وتخريج: طارق محمد سكلوع العمودي، الدمام - السعودية، دار ابن الجوزي، 1418هـ.
- أبو بكر محمد بن دريد الأزدي، **جمهرة اللغة**، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، 1407هـ.
- أبو سعيد محمد بن الأعرابي، **المعجم**، تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي، 1418هـ.
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، **العين**، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، **المسند**، تحقيق: جمعية المكنز الإسلامي، جدة، دار المنهاج، 1432 هـ.
- أبو عبد الله بن أبي نصر بن فتوح الأزدي الحَمِيدي، **تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم**، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، القاهرة، مكتبة السنة، 1415هـ.
- أبو عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب** (التفسير الكبير)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ.
- أبو عبد الله محمد بن ماجة القزويني، **السنن**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.
- أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، **الأدب المفرد**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار البشائر الإسلامية، 1409هـ.
- أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، 1422هـ.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الليثي الجاحظ، **الرسائل السياسية**، بيروت، دار ومكتبة الهلال. 1407هـ.

- أبو عثمان عمرو بن بحر الليثي الجاحظ، **الرسائل**، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1384هـ.
- أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني، **الأزمنة والأمكنة**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417هـ.
- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، **السنن**، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998م.
- أبو محمد عبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المملكة العربية السعودية، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1419هـ.
- أبو نعيم أحمد بن مهران الأصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، مصر، منشورات السعادة، 1394هـ.
- أحمد مختار عبد الحميد عمر (بمساعدة فريق عمل)، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، الرياض - السعودية، عالم الكتب، 1429هـ.
- رينهارت بيتر آن دُوزِي، **تكملة المعاجم العربية**، نقله إلى العربية: محمد سليم النعَيمي وجمال الخيّاط، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، 1420هـ.
- عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، **الشمائل الشريفة**، تحقيق: حسن بن عبيد باحبيشي، دار طائر العلم للنشر والتوزيع.
- علي بن محمد الشريف الجرجاني، **التعريفات**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1403هـ.
- محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد** (التحرير والتنوير)، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984م.
- محمد علي بن علان البكري الصديقي، **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 1425هـ.
- محمد متولي الشعراوي، **تفسير الشعراوي** (الخواطر)، مطابع أخبار اليوم، 1997م.
- منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة، **إعلان مراكش لحقوق الأقليات الدينية في العالم الإسلامي: الإطار الشرعي والدعوة إلى المبادرة** (25-27 يناير 2016).
- نشوان بن سعيد الحميرى اليمني، **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري وآخرون، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1420هـ.
- يوسف قطريب، **ابن خلدون أديبا**، لبنان، دار الكتب العلمية، 2016م.

تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على الأمن الروحي للمجتمع

الباحث محمد الحبيب
(جامعة ابن زهر أكادير)

مقدمة:

تشكل وسائل التواصل الاجتماعي في عصرنا الحالي جزءا لا يستهان به من حياتنا اليومية، فهي واقع مفروض، شئنا أم أبينا، لا يمكن تجاهله أو الهروب منه، بل يستدعي أن نواجه تحدياته ورهاناته على كافة المستويات والأصعدة، خاصة منها تلك التي تمس الجانب القيمي والهوياتي للمجتمع، والأمن الروحي للمغاربة ليس ببعيد عن هذا، بحيث أنه قد يؤثر أو يتأثر بوسائل التواصل الاجتماعي، فسهولة الاستخدام والولوج، بالإضافة إلى الحرية الكبيرة المتاحة للمستخدمين، أَسْهَمَتْ في انتشار عدة مواد إعلامية عبر حوامل مختلفة، مثل: الصور ومقاطع الفيديو والرسائل النصية والرسومات وغيرها، حيث تشكل هذه المواد في بعض الأحيان خطرا على الأمن الروحي.

تتجلى أهمية حماية الأمن الروحي في كونه عاملا أساسيا لتحقيق الاستقرار المجتمعي المنشود، والأمن الروحي لا يقل أهمية عن باقي أنواع الأمن الأخرى؛ كالأمن الغذائي والأمن السياسي وغيره، كما أن حمايته تُسْهِمُ في بناء الشخصية المتزنة التي يعد الدين أحد أهم ركائزها.

يتلقى المغاربة عبر وسائل الإعلام الجديد مجموعة من الرسائل والمواد الإعلامية ذات الحمولة الدينية، ويتم تبادلها بين العامة دون رقابة سابقة وبشكل غير واعٍ، ويكون جزء غير يسير من هذه الرسائل قادما من الخارج خاصة المشرق، فهذه الوسائل، إذاً، سلاح ذو حدين، ومن هنا تنبع أهمية هذه الدراسة لتحديد أنواع وطبيعة هذه الرسائل المروجة في هذه المواقع:

- فكيف تؤثر إذن وسائل التواصل الاجتماعي على الأمن الروحي للمغاربة؟

و تتفرع عن هذه الإشكالية الأسئلة التالية:

- أولا، ما هو مفهوم وسائل التواصل الاجتماعي والأمن الروحي للمغاربة؟

- ثانيا، ما هي أهم المحتويات التي تروج في وسائل الإعلام الجديد المهددة للأمن الروحي للمغاربة؟

- أخيرا، كيف يمكن توفير حماية للمغاربة من التهديد الإلكتروني، وجعل وسائل التواصل الاجتماعي مصدرا داعما للأمن الروحي؟

و انطلاقا من هذه الأسئلة تصبح محاور الورقة البحثية على الشكل التالي:

1. مدخل مفاهيمي
2. وسائل التواصل الاجتماعي وتهديد الأمن الروحي للمغاربة: تحليل نماذج
3. دور وسائل التواصل الاجتماعي في تعزيز الأمن الروحي للمغاربة.

المحور الأول: مدخل مفاهيمي

1. مفهوم وسائل التواصل الاجتماعي

- الإعلام الجديد:

الإعلام الجديد مفهوم في طور التشكل، سواء لجدته في الحقل الأكاديمي، وما يصاحب ذلك من إشكالات معرفية، أو لتوسع دلالاته وتغيرها المستمر نظرا لعدم تحدد ما يشير إليه على أرض الواقع، ونقصد هنا التطورات التكنولوجية الحديثة التي يعرفها الإعلام الجديد، المرتبط مفهومُه باعتماد العمليات الإعلامية على الوسائط الرقمية للحاسوب وتطبيقاته، وتوسع فيما بعد ليشمل مفاهيم التفاعلية، والمشاركة في صنع الخبر وإذابة الفوارق بين المنتج والمستهلك.

ويأخذ الإعلام الجديد أسماء متعددة مثل: الإعلام البديل، الإعلام الاجتماعي، صحافة المواطن، الإعلام الرقمي، الإعلام التفاعلي، الإعلام الشبكي، إعلام الوسائط المتعددة، وإعلام الوسائط الفائقة، غير أنه لابد من الاشتغال لاحقا على هذه التسميات، لتجلية الخلط القائم بينها، حيث إن كل اسم يستأثر ببعض الخصائص عن الأسماء الأخرى ويشير إلى عناصر بعينها في الإعلام الجديد[1].

[1]- هشام المكي: الإعلام الجديد وتحديات القيم؛ طوب بريس، الرباط، 2014، ص 13.

- مفهوم الشبكات الاجتماعية:

يقصد بالشبكات الاجتماعية مجموعة من المواقع على الأنترنيت التي ظهرت مع ما يسمى بالجيل الثاني للويب أو ما يطلق عليه بالويب 2.0، وتتيح هذه المواقع التواصل بين الأفراد في بيئة افتراضية، تجمعهم اهتمامات أو قواسم مشتركة.

كما يعرفها "محمود علم الدين" على أنها خريطة من الروابط التي تصل الأفراد بعضهم ببعض بناء على نمط تفصيلاتهم أو قوة صلاتهم أو تشارك اهتماماتهم[1].

وفكرة الشبكة الاجتماعية معروفة حتى قبل ظهور شبكة الأنترنيت، حيث يذكر أن أول من استخدم لفظ (شبكة اجتماعية) كان عن طريق الباحث في علم الاجتماع "بيركرز"، وذلك لوصف العلاقات الرابطة بين الأجناس البشرية[2].

إن الشبكات الاجتماعية فعالة جدا في تسهيل الحياة الاجتماعية بين مجموعة من المعارف والأصدقاء، وتمكنهم أيضا من التواصل بكافة أصنافه، بالإضافة إلى إمكانات مختلفة تساهم في توطيد العلاقات الاجتماعية بين المستخدمين.

ومن أبرز شبكات التواصل الاجتماعي: الفيسبوك وتويتر واليوتوب والوتساب.

تقوم فكرة شبكات التواصل الاجتماعي على بناء وتفعيل المجتمعات الحية على الأنترنيت، حيث يشارك الناس اهتماماتهم وأنشطتهم من خلال برمجيات تحقق الصفة الاجتماعية، وهي تحقق اتصالات تفاعلية باتجاهين، وتُوصَفُ مواقع التواصل الاجتماعي بأنها عبارة عن تطبيقات تكنولوجية مستندة إلى الأنترنت تتيح التفاعل بين الناس، وتسمح بنقل البيانات الالكترونية وتبادلها بسهولة، وتوفر للمستخدمين إمكانية العثور على آخرين يشتركون في نفس المصالح[3] .

وأخيرا، يمكننا القول؛إن شبكات التواصل الاجتماعي هي مجموعة من المواقع والتطبيقات ووسائل الاتصال الجديدة التي ظهرت على شبكة الأنترنيت، وتمكن الأفراد من التواصل سواء كان عن طريق إرسال الرسائل النصية أو الصور أو الفيديو أو البيانات أو غيرها، ظهرت مع

---

[1] - محمود علم الدين، الإعلام الرقمي الجديد، السحاب للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004 ص286.

[2] - دفع الله، موسى دفع الله أدم، أثر شبكات التواصل الاجتماعي وانعكاساتها على ثقافة الشباب، جامعة السودان، كلية الدراسات العليا، 2016، 2015 ص18.

[3] - زاهر راضي، استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي، مجلة التربية، جامعة عمان الأهلية، العدد 15 ص23.

الجيل الثاني للويب لتساعد الأفراد على التواصل والتفاعل في بيئة افتراضية بين مجموعة من الأشخاص الذين تجمعهم اهتمامات مشتركة.

2. مفهوم الأمن الروحي للمغاربة:

هو مفهوم يستند على عدة مرتكزات دينية واجتماعية وسياسية، وعرف هذا المفهوم تطورا واتساعا كبيرين، نتيجة للتحولات والمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شهدتها المجتمعات الإسلامية، خاصة المجتمع المغربي، لأن مفهوم الأمن أصبح شاملا أكثر اتساعا وانفتاحا، حيث تتحكم فيه مجموعة من العوامل على المستويات: البيئية والصحية والقانونية والمعلوماتية والروحية.

ومن هذا المنطلق فإن الأمن الروحي هو أهم أنواع الأمن التي ينبغي الاهتمام بها، وفي سياقنا المغربي ظهر هذا المفهوم بداية في الخطاب الملكي ليوم: 3 أبريل من 2004، بمدينة الدار البيضاء بشأن إعادة هيكلة الحقل الديني، حيث أكد جلالة الملك نصره الله على أنه: " إذا كان من طبيعة تدبير الشؤون الدنيوية العامة الاختلاف، الذي يعد من مظاهر الديمقراطية والتعددية في الآراء لتحقيق الصالح العام، فإن الشأن الديني، على خلاف ذلك، يستوجب التشبث بالمرجعية التاريخية الواحدة للمذهب المالكي السني، الذي أجمعت عليه الأمة، والذي نحن مؤتمنون على صيانته، معتبرين التزامنا دينيا بوحدته المذهبية، كالتزامنا دستوريا بالوحدة الترابية للأمة، حريصين على الاجتهاد الصائب، لمواكبة مستجدات العصر."

انطلاقا من هذه التوصيات المؤسّسَة لمفهوم الأمن الروحي، يتضح الارتباط الوثيق بينها وبين باقي الأنواع الأخرى خاصة الأمن السياسي العام، حيث تم ربط هذا الأمن بالوحدة الترابية للبلاد، وكما تظهر أيضا أهم ركائزه المتجلية في المذهب المالكي، بالإضافة إلى ركيزتين أساسيتين أخريين، هما: العقيدة الأشعرية، والتصوف الجنيدي.

وحسب الموقع الرسمي لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية فإن الأمن الروحي يقصد به ما يلي: "العمل على أن يعيش الناس فيما يتعلق بأمور دينهم اعتقادا وممارسة في راحة واطمئنان لما هم عليه، والحيلولة بينهم وبين كل ما يستهدفهم للتشويش عليهم. وإن مسؤولية تحقيق هذا الأمن تقع على عاتق الأئمة والخطباء والمرشدين وكل العلماء، وذلك بمراعاة ما يلي:

- بيان أصالة المذهب المالكي في السنة النبوية، وارتكازه عليها في كل مسائله وفق المنهج الذي سار عليه الإمام مالك رحمه الله وتلاميذه، في فهم السنة والعمل بها.
- الاستدلال الجزئي للمسائل الفقهية الجاري بها العمل عند الاقتضاء حتى تطمئن عقول الناس لما هم عليه، وحتى لا يتسرب إليهم هذا أو ذاك وأن ما هم عليه لا دليل له أو أنه بدعة.

إن هذا البيان هو السبيل الأساس لتحقيق الأمن الروحي، قبل اللجوء إلى الوسائل الأخرى"[1].

كما أن السياق السياسي والأمني، تميز بانفلات الخطاب الديني من أي توجيه أو رقابة من قبل المؤسسات الدينية الوطنية المفروض فيها القيام بذلك.

وقد وجهت لهذا المفهوم العديد من الانتقادات من قبل:

- أنه مفهوم مرتبط بالسياسة رغم أنه قائم على البعد عن السياسية.
- لم يحصل إجماع مجتمعي مصرح به على هذا المفهوم وتبنيه.

وبعيدا عن صحة الانتقادات أو عدم صحتها فإن دواعي وجود أمن روحي للمغاربة تبقى ضرورة لا غنى عنها من أجل توفير بيئة دينية موحدة وآمنة ومحترمة للسياق المغربي.

وأظهرت نتائج الاستمارة[2] (التي اعتمدناها في هذه الدراسة) أن أكثر من نصف المبحوثين لا علم لهم بمعنى هذا المفهوم، وأن البقية تسمع به، ولم يتمكن إلا ما يقارب 20 بالمئة من تحديد معنى يقترب من مفهوم الأمن الروحي.

ومن أجل بيان مدى فهم المبحوثين لمعنى ومرتكزات الأمن الروحي في المغرب، طرح عليهم سؤال للاختيار ما بين 3 عبارات تجمع المرتكزات الثلاث وكانت النتيجة على الشكل التالي:

---

[1]- http://www.habous.gov.ma

[2]- الاستمارة مكونة من أربعة أسئلة أساسية، وهي ملحقة بهذا البحث وهمت 40 مبحوثا تتراوح أعمارهم ما بين 30 و50 سنة ويستعملون وسائل التواصل الاجتماعي.

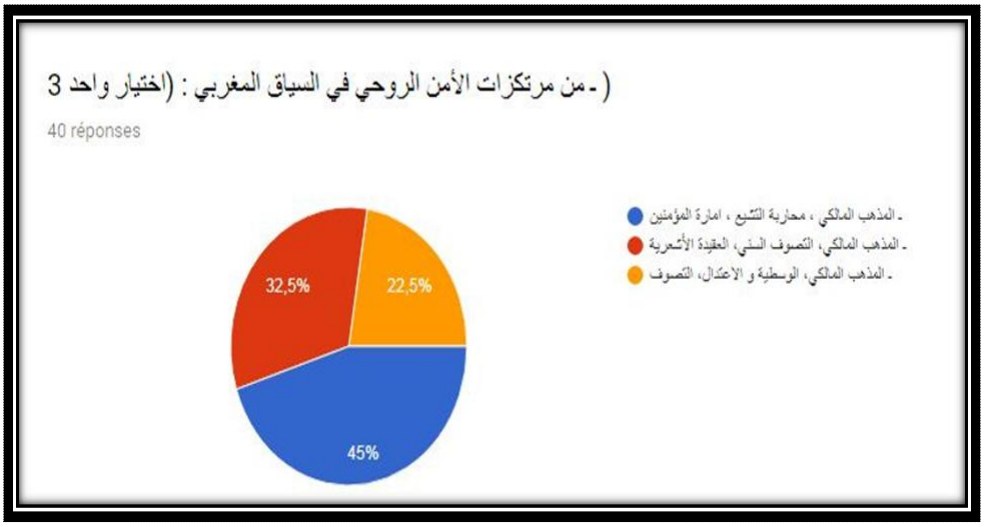

تظهر هذه النتيجة أن أغلب المبحوثين وبنسبة قاربت 70 بالمئة لا يعرفون المرتكزات الحقيقية للأمن الروحي المغربي، بينما تمكن 30 بالمئة فقط من معرفتها. مما يفرض على الجهات المعنية بذل المزيد من الجهد على هذا المستوى.

المحور الثاني: وسائل التواصل الاجتماعي وتهديد الأمن الروحي للمغاربة

1. وسائل التواصل الاجتماعي وتهديد الأمن عموما

أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي من أهم الوسائل التي ارتكزت عليها المخططات الإستراتيجية الإرهابية لنشر العنف والفوضى والإرهاب والأعمال الإجرامية، ونشر الشائعات والأخبار المغلوطة، وزعزعة القناعات الفكرية والثوابت العقائدية والمقومات الأخلاقية والاجتماعية التي من شأنها إحداث بلبلة داخل المجتمع وخلق حالة اللاأمن، مما جعلها تشكل خطرًا على الأمن القومي للدول النامية بصفة خاصة نظرا لنقص الإمكانيات والتدابير الخاصة بمكافحة هذه الظاهرة الخطيرة على الأمن المجتمعي، ففي فترة ما عرف بالربيع العربي، وظفت الجماعات الجهادية المتطرفة التي تتخذ من الإسلام ستارًا للترويج وبقوة لمجموعة من الأفكار الهدامة داخل مواقع التواصل من أجل زعزعة أمن الدول وزرع الفتن، واستباحة الدماء، وتدمير مرتكزات التنمية، ونشر الفوضى والشائعات المغرضة، لتضليل الأجهزة الأمنية في تهديد واضح لأمن المجتمع واستقراره السياسي، ونسيجه الاجتماعي، وبث الرعب بين المواطنين وترويعهم،لإظهار عدم استقرار البلاد، وتنسيق

العمليات الإرهابية والهجمات العنيفة التي تشنها ضد مؤسسات الدولة، وإفشاء المعلومات العسكرية السرية. كما تستخدم في التجسس وفي دعم المسلحين من خلال النشر المكثف للصور وملفات الفيديو والوثائق التي تدعم الأفكار التي تروج لها، قد تصل في حالات معينة إلى تعطيل أنظمة قطاعات حكومية وحيوية[1].

فإذا كان الأمر على هذا النحو على مستوى الأمن العام فإن خطورة هذه الوسائل على الأمن الروحي لا تقل أهمية، وسنحاول فيما يلي التفصيل في مناحي هذا التهديد مستحضرين عناصر ومرتكزات الأمن الروحي للمغاربة.

وتُظهِر الاستمارة في هذا الجانب عند سؤال المبحوثين عن مدى علمهم بخطورة تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على الأمن الروحي للمغاربة ما يلي:

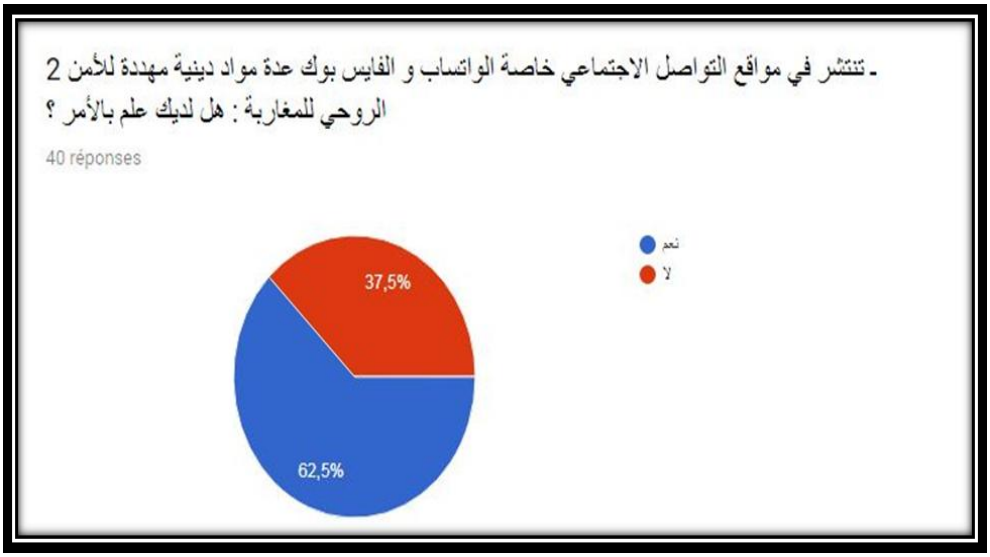

تبين هذه النتيجة أن أغلبية المبحوثين لهم علم بالمواد الدينية المنتشرة في وسائل التواصل الاجتماعي المهددة للأمن الروحي للمغاربة، وبالمقابل فإن نسبة لا يستهان بها لا علم لها بها، أخذين بعين الاعتبار أنها تنتمي إلى طبقة مثقفة وتستعمل وسائل التواصل، وقد يفسر جزء من هذه النتيجة في ارتباط بنتيجة السؤال السابق،أي عدم الإلمام بمفهوم الأمن الروحي.

[1] Julian Saada, »révoltes dans le monde arabe: une révolution facebook ? » Raoul Dandurand - 21 avril.Chair

2. تحليل نماذج من الرسائل المهددة للأمن الروحي للمغاربة المروجة في وسائل التواصل الاجتماعي

يمكن تقسيم المواد الدينية المنشورة في وسائل التواصل الاجتماعي المهددة للأمن الروحي للمغاربة إلى ثلاث أنواع رئيسية:

1.2. النوع الأول: رسائل ذات مضامين مخالفة للدين عموما وخطورتها كبيرة:

في هذا السياق نسرد الأمثلة التالية، المنتشرة في وسائل التواصل الاجتماعي (خاصة رسائل الوتساب، ونشير إلى أن هذه الرسائل وضعت هنا بأخطائها[1])

1. هل تعلم أن الإنسان المسلم قبل أن يموت يرى ملائكة يبشرونه بالخير وأنه سيموت.. يقول الله تعالى ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ وجاء العلم ليثبت أن الإنسان يوضع على عينيه حاجز يمنعنا من أن نرى الجن والملائكة، وعند الاحتضار يُرفع هذا الحاجب ويرى الإنسان الملائكة وبعد ذلك يصبح عنده تشويش في الدماغ مما رآه حيث لا يمكن أن يتحدث عما يراه، وتتبلد الأطراف ويحدث هبوط في القلب ويتم نزع الروح من القدم حتى لا يهرب الإنسان من ألم خروجها.. يقول الله تعالى ﴿والتفت الساق بالساق﴾.

2. معلومةٌ قد تُرعبك: هل تعلم أن أَلَمَ طلوع الروح قدّره العلماء بثلاثة آلاف ضربة سيف.

3. هناك هرمون في الجسم يفرز خلايا على القلب عندما نلهى عن ذكر الله ومن ثم تكوّن غشاء على القلب يسمى «الران» ويسبب اكتئاب حاد وحزن وضيق شديد، وهو ما يُفسر قوله تعالى «كلا بل ران على قلوبهم».. انفع بها المعلومة شخصاً آخر.. لن يكلفك الأمر أكثر من ضغطة زر مدتها 4 ثواني.

4. ومن القصص الرائجة عبر وسائل التواصل الاجتماعي (وهي قصة مكذوبة لا أصل لها): كان في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - رجل يقال له أبو دجانة، فكان إذا صلى الفجر خرج مستعجلا ولا يصبر حتى يسمع دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال له يوما: أليس لك إلى الله حاجة؟ فقال: بلى فقال فلم لا تقف حتى تسمع الدعاء؟ فقال: لي عذر يا رسول الله. قال وما عذرك؟ فقال إن داري ملاصقة لدار رجل، وفي داره نخلة، وهي مشرفة على داري، فإذا هب

[1] - جزء من هذه الفقرة معتمد على المقال التالي: دخول الجنة بالواتساب على www.youm7.com.

الهواء ليلا يقع من رطبها في داري، فإذا انتبه أولادي، وقد مسهم الضر من الجوع فما وجدوه أكلوه، فأعجل قبل انتباههم، وأجمع ما وقع وأحمله إلى دار صاحب النخلة، ولقد رأيت ولدي يوما قد وضع رطبة في فمه فأخرجتها بأصبعي من فيه وقلت له يا بني لا تفضح أباك في الآخرة، فبكى لفرط جوعه. فقلت له: لو خرجت نفسك لم أدع الحرام يدخل إلى جوفك، وحملتها مع غيرها إلى صاحبها. فدمعت عينا النبي - صلى الله عليه وسلم - وسأل عن صاحب النخلة، فقيل له فلان المنافق، فاستدعاه وقال له: بعني تلك النخلة التي في دارك بعشرة من النخل: عروقها من الزبرجد الأخضر، وساقها من الذهب الأحمر، وقضبانها من اللؤلؤ الأبيض، ومعها من الحور العين بعدد ما عليها من الرطب. فقال له المنافق: ما أنا تاجر أبيع بنسيئة، لا أبيع إلا نقدا لا وعدا، فوثب أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقال: هي بعشرة من النخيل في الموضع الفلاني، وليس في المدينة مثل تلك النخيل، ففرح المنافق وقال بعتك. قال قد اشتريت، ثم وهبها لأبي دجانة، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - قد ضمنت لك يا أبا بكر عوضها، ففرح الصديق، وفرح أبو دجانة رضي الله عنهما، ومضى المنافق إلى زوجته يقول قد ربحت اليوم ربحا عظيما، وأخبرها بالقصة وقال قد أخذت عشرة من النخيل، والنخلة التي بعتها مقيمة عندي في داري أبدا نأكل منها ولا نوصل منها شيئا إلى صاحبها، فلما نام تلك الليلة وأصبح الصباح وإذا بالنخلة قد تحولت بالقدرة إلى دار أبي دجانة كأنها لم تكن في دار المنافق، فتعجب غاية العجب.

5. ومن الأحاديث النبوية المكذوبة: "يوم تموت الأم، ينادي مناد من السماء يا بن أدم ماتت من كنا نكرمك من أجلها فاعمل عملا صالحا نكرمك من أجله " .

فيما يلي بعض الملاحظات على الرسائل السابقة

أولاً: تُشيرُ كثرة الكلمات الفضفاضة مثل (هل تعلم) وغيرها من الألفاظ إلى البيئة التي ترسل لنا هذه السموم المتدثرة بالدين، كما أن الأخطاء اللغوية والإملائية الفاضحة كانت حَرِيَّةً بأن تلفت نظر المستقبلين إلى مدى سطحية الرسائل ومضامينها.

ثانيا: معظم (المعلومات) المتداولة خاطئة والباقي يستحيل التأكد منه، كمسألة تقدير العلماء لألم طلوع الروح بثلاثة آلاف ضربة سيف، مَنْ هم هؤلاء العلماء؟ وهل عاد أحدٌ منهم بعد أن طلعت روحه ليصف لنا آلام طلوع الروح؟ ولماذا تكون وحدة القياس هي ضربة السيف وليس الضرب بشيء آخر؟.. وهو ما يُمكن قولُه أيضاً على حكاية البؤبؤ.. أما حكاية هرمون الران

وإلباسه في تفسير آية (ران على قلوبهم) أو طلوع الروح من الساق بدليل «التفت الساق بالساق» فهو تهريجٌ متعمدٌ.

ثالثا: تعتمد كل الروايات السابقة على مصادر غير موثوقة على المستوى العلمي والشرعي مما يفرغها من معناها ومن أي مصداقية أو مشروعية.

2.2. النوع الثاني: مهدد للأمن الروحي للمغرب وباقي الدول الإسلامية السنية وهو التشيع

لا يخفى على الجميع خطورة التشيع على الأمن الروحي لكافة أهل السنة والجماعة، خاصة الخطاب الشيعي المغالي، والمغرب ليس بمنأى عن هذا الخطر سواء بشكل مباشر في أرض الواقع، أو في العالم الافتراضي عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

ومن بين هذه الوسائل نجد اليوتوب، الذي يحوي العديد من المواد المرئية المشجعة على التشيع والموجهة للمغاربة مثل قناة " فداك "، والتي انتقل بعض مضامينها من المجال الدعوي والديني ليمس ما هو سياسي، مثل قضية الصحراء، وبالتالي ليس فقط المس بالأمن الروحي بل المس أيضا بالأمن العام للمغاربة.

وتنتشر في الفيسبوك عدة صفحات تنشر مواد إعلامية: تدوينات وفيديوهات وصور موجهة للمغاربة لأجل استدراجهم للتشيع ومن أمثلة هذه الصفحات:

- صفحة شيعة المغرب العربي الكبير
- شيعة المغرب
- شيعة المغرب الأقصى
- هيئة شيعة المغرب
- صوت شيعة المغرب.

وعند قراءة مضامين المواد المنتشرة في هذه الصفحات يمكن استخلاص ما يلي:

- محاولة نشر أحاديث صحيحة وسط كم هائل من الأحاديث المكذوبة.
- التركيز على كتاب الإمام علي رضي الله عنه: نهج البلاغة.
- نشر مواد تاريخية صحيحة، مع تأويلٍ بعيدٍ عن الفهم السني الصحيح والمعتدل،خاصة ما يتصل بزمن الفتنة.

- استغلال حب المغاربة لآل البيت.

3.2. النوع الثالث: مهدد لبعض مقومات الأمن الروحي للمغاربة:

قد يكون هذا النوع الأقل خطورة من بين الأنواع الثلاثة، ولكن كثرة الهجمات على هذا المستوى قد ترجعه خطيرا على الأمن الروحي، ويمس المرتكزات الثلاثة المشكلة للأمن الروحي للمغاربة:

2ـ 3 ـ 1. ما يتنافى مع المذهب المالكي:

حسب الموقع الرسمي لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية فان المغرب حريص على بعض الشعائر الدينية المنسجمة مع المذهب المالكي والراسخة في الممارسة الدينية المغربية منذ عقود من قبيل:

- قراءة الحزب الراتب
- الأذان المترسل السمح
- الخروج من الصلاة بتسليمة واحدة
- الذكر والدعاء جماعة عقب الصلوات
- الأذان ثلاثا يوم الجمعة
- الإنصات أو الاستنصات يوم الجمعة

تعد الأمور السالفة الذكر من جزئيات الفقه والعبادات التي اختلفت فيه بين المذاهب، لكنها أيضا من مميزات المذهب المالكي في هذا الباب، وتوحيدها في الممارسة الدينية خاصة الجماعية فيه توحيد للمغاربة، وهو أهم الأمور المحققة للأمن الروحي.

وتنتشر في وسائل التواصل الاجتماعي العديد من المواد التي تحاول المس بهذه الممارسات، سواء بالتشكيك والتنقيص من قيمتها. وكمثال على ذلك تنتشر في وسائل التواصل الاجتماعي عدة رسائل تشكك وتضرب في سنية قراءة الحزب الراتب، ونجد في موقع اليوتوب العديد من الفيديوهات لما يسمى "شيوخ السلفية المغربية " يعتبرون هذا النوع من القراءة بدعة وضلالة.

2 ـ 3 ـ 2 ـ ما يتنافى مع العقيدة الأشعرية

نجد في الموقع الرسمي لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ما يلي: "قيل الكثير عن دواعي اختيار المغاربة للمذهب المالكي، لكن المؤكد أن رؤية أهل المغرب للمذهب المالكي كانت رؤية شمولية، استوعبت منه قضاياه العقدية على نحو ما استوعبت منه قضايا الفقه العملي.

وقد استهوى المغاربة من المذهب المالكي أنه ليس مذهبا فقهيا فقط، وإنما هو مذهب يبرز من نصوصه حرص مؤسسه على إبراز موقفه الصريح من كبرى القضايا العقدية، وهو ما حدد انتماء المذهب إلى تيار أهل السنة والجماعة.

وقد أدرك فقهاء المالكية أهمية ربط المذهب الفقهي المالكي بالجانب العقدي تحصينا لعقيدة الناس خوفاً من أن يتسرب إليها من شبهات الطوائف الأخرى ما يفسدها"[1].

يتضح إذن الترابط بين المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، وما يمس الأول يمس الثاني، وتنتشر في وسائل التواصل الاجتماعي العديد من المواد والرسائل التي تسئ للعقيدة الأشعرية، خاصة أن من يعتنقونها لهم اختلافات مع أهل السنة والجماعة قد لا يستوعبها المتلقي البسيط والعادي، حيث تنتشر في وسائل التواصل الاجتماعي مضامين إعلامية تشكك في هذه العقيدة وتصب أغلبها حول ما يلي:

- الأشاعرة مضطربون في باب الصفات.
- الأشاعرة يقدسون العقل.
- الأشاعرة يخالفون أهل السنة والجماعة في معنى التوحيد.

2 ـ 3 ـ 3 ـ ما يتنافى مع التصوف السني أو يضرب فيه:

كما سبقت الإشارة إلى ذلك يعد التصوف السني من مرتكزات الأمن الروحي للمغاربة، التصوف السني وتصوف الجنيد على وجه الخصوص، وقد خصصت الرابطة المحمدية للعلماء (وهي من المؤسسات الدينية الرسمية) موقعا لتصوف الجنيد تحت مسمى:www.aljounaid.ma وهذا الموقع يشمل كافة المواد والمصادر والدراسات المرتبطة بالتصوف السني الجنيدي بالمغرب.

ونجد في الموقع أسباب ودواعي اختيار تصوف الجنيد من طرف المغاربة:

[1] http://www.habous.gov.ma-

ارتبط اسم المغرب على مدى التاريخ بثوابته الأصيلة (عقيدة، ومذهبا، وسلوكا)؛ وهي الثوابت التي عناها فقيه القرويين ابن عاشر (990-1040هـ)، في المرشد المعين بقوله:

في «عقد الأشعري» و«فقه مالك» وفي «طريقة الجنيد السالك»

ونجد فيه أيضا: " منهج رمزوا له ب"الإمام الجنيد" (ت 297هـ) وهو الذي عُرفت مدرسته بمدرسة السلوك والرقائق والأخلاق، وهذا المنحى هو الذي اختاره المغاربة في ممارستهم للتصوف (المنحى الأخلاقي السني)، وقد جاء في معلمة المغرب بأن "مراعاة الشعور السني العام في المغرب كان واقعا مُتأصلا"

وكباقي المرتكزات يتعرض التصوف السني في وسائل التواصل الاجتماعي للعديد من التهديدات، خاصة من التيار السلفي، ونجد عدة صفحات في الفايسبوك تصرح بمحاربة التصوف بكل أنواعه بالمغرب، ومن بينها:

- قناة السنة الفاضحة للصوفية بالمغرب، وبيان معتقد أهل السنة والجماعة.

- الصوفية في الميزان

- بالإضافة إلى مواد كثيرة موجودة في اليوتوب تحذر الناس من التصوف بالمغرب.

- وبعد قراءة بسيطة في هذه المضامين الإعلامية يمكن استخلاص ما يلي:

- الخلط بين جميع أنواع التصوف دون التمييز بينها

- عدم التحري في المضامين

- غياب الدراسة العلمية والأكاديمية في نقد الصوفية، وفي هذا الجانب أظهرت الاستمارة عند سؤال المبحوثين عن بعض نماذج الرسائل التي يرونها مهددة للأمن الروحي والمنتشرة في وسائل التواصل الاجتماعي (أجاب عن السؤال 26 مبحوثا من أصل 40 لأنه سؤال اختياري) ومن بين الإجابات التي قدموها:

(تركت الإجابات كما قدمها المبحوثون دون تصحيح)

- مواد تشكك في الثوابت والمرجعيات الدينية القائمة على الكتاب والسنة... توغل المد الشيعي.

- مثلا أرسل هذا الدعاء أو هذه الآية لعشرة أشخاص ستسمع أخبارا سارة، وإن لم ترسلها ستتعرض لشر...من هذا القبيل.

- فتاوى خاطئة، أحاديث غير صحيحة.

- فيديوهات لداعية يحرم ويحلل ما يشاء.

- رسائل قصيرة تطالب بإعادة تمريرها مبشرة بالخير العميم إذا قرأتها ونشرتها ومهددة بعواقب وخيمة في حالة إغفالها.

- الدعوة إلى المسيحية والإلحاد مثلا

- التبشير. التنصير. التشييع...

- المساس ببعض مرتكزات العقيدة الروحانية للمغاربة على وجه الخصوص من خلال العديد من الممارسات التي تنافي الشريعة والحنفية السمحاء للدين.

من خلال الإجابات المقدمة تبين انسجامها ما قدم في هذا البحث غير أن المبحوثين أضافوا أمورا أخرى مثل الرسائل المنشورة بشكل كبير بين الناس والتي تعد بالخير في حال النشر أو الوعيد في حال العكس، والنوع الآخر المشار إليه في هذه الإجابات يتعلق بالفتاوى على شكل فيديوهات في اليوتوب والمنتشرة أيضا في الواتساب والتي قد تتنافى مع المذهب المالكي أو مع العقيدة الأشعرية وهذا النوع يشكل خطورة كبيرة على الأمن الروحي.

المحور الثالث: دور وسائل التواصل الاجتماعي في تعزيز وتحصين الأمن للمغاربة:

1. شبكات التواصل الاجتماعي وحماية الأمن الروحي والفكري

كما بينا في المحور السابق فإن لوسائل التواصل الاجتماعي عدة جوانب سلبية تهدد بشكل كبير الأمن الروحي للمغاربة، ويلزمُ التعامل الإيجابي مع هذه الوسائل واستثمارها بما يخدم الأمن الروحي.

و في مؤتمر حوار الأديان الذي انعقد في الدوحة سنة 2016، والذي ناقش دور الإعلام السلبي ووسائل الاتصال في تشكيل المبادئ والقيم، وخصصت الجلسة الثانية ضمن المؤتمر لمناقشة "تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على الأمن الفكري"، حيث بين خبراء وأكاديميون

الأساليب والوسائل التي تسهم في زعزعة الأمن الفكري والأخلاقي، وحقيقة الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام الجديد في الحفاظ على ثوابت الأمن الفكري للأفراد والمجتمعات.

وقال المهندس زهير الشاعر، رئيس المؤسسة الكندية للحوار الثقافي، إنه في ظل عدم توفر التحصين الفكري المطلوب للحفاظ على النسيج الاجتماعي للجيل الحالي من الشباب، فإنه من الصعب مواجهة زعزعة الأمن الفكري الناتج عن الممارسات الخاطئة لاستخدام مواقع التواصل الاجتماعي، والتي تشكل خطرا استراتيجيا لانهيار الأمن الفكري والمعرفي والديني لهؤلاء الشباب.

وأشار الشاعر إلى أنه في سياق هذا الوضع المتخبط يبقى الشباب دون درع يحميهم من مخاطر الابتزاز الإرهابي والتغرير بهم واستقطابهم نحو الأفكار الملوثة الهدامة، ووقوعهم فريسة في شبكة الإرهاب، مما يعزز انتشار ظاهرة الانحراف الفكري في العالم وخصوصا العربي والإسلامي نتيجة الخضوع للغزو الإعلامي الموجه.

ولفت الشاعر في معرض حديثه إلى سيطرة الشبكة العنكبوتية على أجزاء ضخمة من العالم، وتشعبها في حياة البشر، حيث إن عدد سكان العالم وصل إلى 7.2 مليار نسمة، 42 % منهم يستخدمون الإنترنت، فيما يستخدم 29% منهم مواقع التواصل الاجتماعي، 51% منهم يستخدمون الهواتف النقالة، ويدخل نحو 23% منهم إلى مواقع التواصل الاجتماعي عبر الهواتف الذكية[1].

تظهر إذن أهمية البحث عن استراتيجيات بديلة لمواجهة الخطر السيبرياني المهدد للأمن الروحي، وضرورة تجاوز النظرة التقليدية للمواجهة، هذه النظرة المعتمدة أساسا على مبدأ الرفض والنبذ، وبالتالي فإن المبدأ الأساس في هذه المواجهة هو: أن يكون الداء هو الدواء، أي مواجهة هذه المخاطر باستعمال وتوظيف وسائل التواصل الاجتماعي.

ولقد سارت المؤسسات الدينية الرسمية المغربية في هذا المسار فأنشأت صفحات على الفايسبوك، والتي يمكننا أن نسجل حولها الملاحظات التالية:

- ضعف الإقبال على هذه الصفحات؛
- المواد الموضوعة عبارة عن روابط لما هو موجود في المواقع الرسمية؛
- ضعف التفاعل مع المواد الموضوعة سواء من حيث التعليقات أو الإعجابات؛

[1] http://www.dc4mf.org/news-

- عدم الترويج لهذه الصفحات sponsoring ؛

- غياب الاحترافية في التعامل مع هذه الصفحات، مما يجعلنا نطرح سؤال عدم توظيف متخصصين في هذه الوسائل من قبل الجهات الوصية؛

2. وسائل التواصل الاجتماعي وتعزيز الأمن الروحي

لقد بينا فيما سبق أن وسائل التواصل الاجتماعي سلاح ذو حدين، ولا مفر من التعامل الإيجابي مع هذه الوسائل لتجنب التهديدات والمخاطر التي تستهدف الأمن الروحي للمغاربة، وفي جانب الاستمارة قدم المبحوثون عند سؤالهم عن السبل التي يرونها كفيلة بتحصين الأمن الروحي للمغاربة من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، العديد من الاقتراحات نجملها في ما يلي: (كما وردت في الاستمارة دون تعديل)

- توفير التوعية الدينية السليمة التي تنبني على الاعتدال والتوسط مع الاعتماد على مصادر صحيحة موثوق منها؛

- تقديم برامج توعوية تشرح المفاهيم الصحيحة لشريعتنا السمحة وفق المذهب المالكي؛

- استعمالها بالطريقة الأنسب واختيار الطريق الصائب الذي يوصل إلى بر الأمان؛

- لابد من حظر مواقع تبث الشك والريبة في إيماننا الروحي وكذا الحد من مواقع تصدر فتاوي هناك وهناك دون سند شرعي؛

- توفير مواقع متنوعة لكافة شرائح المجتمع تعنى بهذا الأمر؛

- التربية على مستوى الأسرة والمدرسة كفيلة بتحصين الأمن الروحي للمغاربة...؛كما أن التربية قادرة على تمكين المواطن المغربي من اكتساب آليات الاستعمال الأمثل لوسائل التواصل الاجتماعي..؛

- المراقبة الأمنية لهذه المواقع ومنعها من الانتشار. وتوعية المواطن بمفهوم المواطنة الرقمية وضرورة الإبلاغ عن مثل هذه المواقع؛

- الاعتماد على التوعية والحوار المتبادل المدعوم بالمنطق الحجاجي السليم؛

- استغلالها للتوعية، وخلق مواقع رسمية، وخلق مجموعات على الواتساب من قبل موثوق بهم؛

- مراقبة المواد التي تنشر واتخاد إجراءات صارمة ضد من يروج للأفكار التي تهدد الأمن الروحي للمغاربة.

- التحسيس بأهمية الجانب الروحي وتقديم المفهوم الصحيح للدين الإسلامي الذي يتنافى مع الأفكار المتطرفة؛

- نشر الخير والكف عن مشاهدة أو نشر ما يهدد الأمن الروحي. وتقنين ولوج الأطفال إلى هاته الوسائل؛

- مراقبتها عبر جهاز خاص كالهاكا مثلا؛

- توفير برامج وتطبيقات علمية تعنى بالمعتقد الديني المغربي من خلال بوابة ابستور؛

- التحذير بكثافة عبر فيديوهات مضادة؛

- نشر التوعية بخصوص خطر ما يروج في الانترنيت من فيديوهات مضللة، وحث الناس على عدم تصديقها والتحقق منها .. وتوفير آليات للتحقق؛

- التمكين من الإبلاغ عن أي محتوى فيه مس بالعقيدة الصحيحة؛

- بسط مفاهيم العقيدة الأشعرية لعموم المغاربة، وتقديم مفاهيم واضحة على وجه الخصوص لشرح الوسطية والاعتدال في الدين الإسلامي. وتقريب المواطن المغربي من مدى قابلية التصوف السني والفرق بينه وبين العقيدة الواسطية كما جاء في شرح مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى؛

- وضع رقابة لكل ما يتم نشره عبر وسائل التواصل الاجتماعي بكل أنواعها؛

في قراءة بسيطة لهذه المقترحات، نستخلص ما يلي:

- تجمع أغلب المقترحات على الدور التوعوي الذي يمكن أن تلعبه وسائل التواصل الاجتماعي، وهو أمر يندرج ضمن التعامل الايجابي مع هذه الوسائل، والذي أشرنا إليه سلفا.

- تصب مجموعة من المقترحات على الدور الرقابي الذي يمكن أن تمارسه المؤسسات الدينية الرسمية، وغيرها من المؤسسات الأخرى مثل وزارة الداخلية ووزارة الاتصال.

- تشير بعض المقترحات إلى تحصين ما يسمى بالفئات الهشة مثل الأطفال والمراهقين، انطلاقا من مؤسسات التنشئة الاجتماعية الأساسية مثل الأسرة والمدرسة.

- بعض المقترحات كانت عملية أكثر مثل إنشاء تطبيقات رسمية تنافس ما ينشر في وسائل التواصل الاجتماعي، وكذا فتح إمكانيات الإبلاغ عن المحتويات التي تشكل خطرا على الأمن الروحي للمغاربة.

- بعض المقترحات اتجهت نحو ضرورة اشتغال المؤسسات الدينية الرسمية على جانب المضامين، وذلك بتوفير مضامين رقمية بسيطة وسهلة الترويج عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

الخلاصات والنتائج

تبين من خلال مسار هذه الدراسة المبسطة مدى أهمية دراسة تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على الأمن الروحي للمغاربة، سواء بالسلب أو بالإيجاب، وانطلاقا من المعطيات النظرية والواقعية المقدمة في هذه الدراسة يمكننا أن نستخلص ما يلي:

- الكثير من المغاربة لا علم لهم بمفهوم الأمن الروحي، ومرتكزاته الأساسية؛
- غالبا ما يتم ربط الأمن الروحي بالتهديد الإرهابي وهو تقزيم لهذا المفهوم الواسع؛
- المغاربة واعون وبشكل كبير بمخاطر وسائل التواصل الاجتماعي على أمنهم الروحي؛
- يروج المغاربة الكثير من الرسائل أو المضامين الإعلامية التي تهدد أمنهم الروحي؛
- ضعف الرقابة المؤسساتية على المضامين الدينية المروجة عبر وسائل التواصل الاجتماعي؛
- هناك مخاطر خارجية وداخلية تهدد الأمن الروحي للمغاربة عبر وسائل التواصل الاجتماعي؛
- ضعف التوعية الرسمية لأجل تحصين أمن المغاربة الروحي؛
- غياب شبه تام لباقي المؤسسات المسؤولة عن التنشئة الاجتماعية في حماية الأمن الروحي للمغاربة؛
- ضعف المضامين المروجة بشكل رسمي في وسائل التواصل الاجتماعي من قبل المؤسسات الرسمية، ضعف على مستوى الشكل والمضمون؛
- ينبغي إيلاء اهتمام خاص بالفئات الهشة والأكثر عرضة للتأثر: الأطفال والمراهقين؛

التوصيات:

بعد عرض نتائج وخلاصات الدراسة، يمكن اقتراح التوصيات التالية، والتي قسمتها إلى قسمين:

أولا: ما يتعلق بالمستوى المؤسساتي:

- ضرورة مضاعفة الفعل التوعوي للمؤسسات الرسمية خاصة وزارة الأوقاف؛
- تمكين وتشجيع مؤسسات التنشئة الاجتماعية الرسمية: المدرسة والمسجد والإعلام، من القيام بأدوارها بفعالية في وقاية الفئات الهشة من الأطفال والمراهقين من مخاطر المضامين المهددة لأمنهم الروحي؛

- ضرورة مواكبة المستجدات التقنية لأجل تحصين الأمن الروحي للمغاربة: مثلا إنشاء تطبيقات سهلة مخصصة للهواتف، قنوات على اليوتوب وغيرها؛

- تطوير الفعل الرقابي للمؤسسات الرسمية المختصة (دون المساس بالحريات)؛

- تطوير المضامين التي تبثها وتروجها المؤسسات الرسمية عبر صفحاتها في وسائل التواصل الاجتماعي، بشكل يجعلها أكثر جاذبية، والترويج والدعاية لها؛

- ضرورة توظيف أطر تقنية متخصصة في وسائل التواصل الاجتماعي من طرف المؤسسات الدينية الرسمية، لأجل تجاوز تطوير المضامين ومجابهة التهديدات،

- فتح نقاش مجتمعي وبإشراف رسمي حول مخاطر هذه الوسائل على الأمن الروحي والسبل الكفيلة بالتحصين والوقاية؛

ثانيا، على المستوى المجتمعي:

- ضرورة انخراط الجميع في تحمل مسؤولية حماية الأمن الروحي؛

- الأسرة كمؤسسة أساسية للتنشئة الاجتماعية لابد أن تقوم بدورها في التحصين والوقاية للأطفال ضد ما يهدد أمنهم الروحي؛

- على منظمات المجتمع المدني أن تقوم بواجبها في نشر التوعية حول المخاطر المهددة للأمن الروحي في وسائل التواصل الاجتماعي وتوعيتهم بما يكفل حمايتهم من المخاطر، وذلك عبر حلقات دراسية وتكوينات وندوات ومحاضرات وغيرها من الأنشطة التأطيرية؛

لقد سعينا من خلال هذه الورقة البحثية إلى تبيان مخاطر وسائل التواصل الاجتماعي على الأمن الروحي للمغاربة، وبينا أيضا بعض السبل الكفيلة بتجاوز هذه المخاطر والتهديدات، وختمنا ببعض التوصيات العملية، ولا شك أن الموضوع يحتاج إلى دراسة أكثر عمقا وامتدادا في الزمن، وحسبنا هنا إثارة الموضوع والتنبيه إليه، وأن تكون هذه الدراسة لبنة ضمن أخرى تؤسس لوعي جمعي بالأخطار المحدقة بأمننا الروحي القادمة من هذه الوسائل، وأن تعمق النقاش والبحث حول سبل الوقاية والحماية من هذه المخاطر.

لائحة المصادر والمراجع:

- دفع الله، موسى دفع الله أدم: أثر شبكات التواصل الاجتماعي وانعكاساتها على ثقافة الشباب، جامعة السودان، كلية الدراسات العليا، 2016، 2015.
- راضي، زاهر: استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي، مجلة التربية، جامعة عمان الأهلية، العدد 15
- سعلم الدين، محمود: الإعلام الرقمي الجديد، السحاب للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004 .
- المكي،هشام : الإعلام الجديد وتحديات القيم؛ طوب بريس، الرباط، 2014.
- Julian Saada, »révoltes dans le monde arabe: une révolution facebook ? » Raoul Dandurand Chair 21.avril2011
- www.habous.gov.ma
- www.youm7.com
- www.dc4mf.org/news

ملحق: الاستمارة

في اطار دراسة مبسطة من أجل اعداد مداخلة في ندوة وطنية حول الأمن الروحي للمغاربة، أطلب منكم الاجابة عن هذه الأسئلة التي ستوظف فقط لأغراض البحث العلمي، وشكرا لكم

1ـ هل لديك فكرة حول مفهوم الأمن الروحي ومرتكازته في السياق المغربي ؟

.....

.....

2، تنتشر في مواقع التواصل الاجتماعي خاصة الواتساب والفايس بوك عدة مواد دينية مهددة للأمن الروحي للمغاربة:

هل لديك علم بالأمر ؟

نعم لا

هل تعرف نماذج من هذه المواد ؟ اذا كان الجواب بنعم المرجو ذكرها

.....

.....

3 ـ من مرتكزات الأمن الروحي في السياق المغربي : (اختيار واحد)

ـ المذهب المالكي، محاربة التشيع، امارة المؤمنين

ـ المذهب المالكي، التصوف السني، العقيدة الأشعرية

ـ المذهب المالكي، الوسطية والاعتدال، التصوف

4 ـ في نظرك كيف يمكن جعل وسائل التواصل الاجتماعي أدوات لتحصين وتوفير الأمن الروحي للمغاربة ؟

.....

الخطاب الديني المعتدل وأثره في تحقيق الأمن الروحي للمغاربة المقيمين بالغرب

د.سعيد بومزوغ،
(أستاذ متعاقد، جامعة المولى إسماعيل، مكناس)

مقدمة:

الحمد لله تعالى الذي امتن على عباده بنعمتي الإيمان والأمن، والصلاة والسلام على سيد المرسلين الدال على كل خير، والمبعوث رحمة وسلاما للعالمين. وبعد، فإن تحقيق الأمن والعيش في وئام وسلام ظل، ولازال، وسيظل مطلب البشر جميعهم، والأساس الذي تنبني عليه حركاتهم وسكناتهم، فكم من قوم أخلوا ديارهم وتركوا أموالهم ومتاعهم هربا من حرب وقتل يتهددهم، وخوفا من مصير سيئ ينتظرهم، وطلبا لأمان يتشوقون له.

إن الأمن هو القاعدة والشرط الأساس الذي تبنى عليه أي تنمية اقتصادية واجتماعية وسياسية، بل عليه تقوم سائر مصالح الإنسان في العاجل والآجل. لذلك أولاه الإسلام اهتماما كبيرا وجعل حفظ المقاصد الكبرى للشريعة خادمة له، فحفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العرض وحفظ العقل وحفظ المال كلها تتضمن حفظا للأمن من جانب من الجوانب، والمحافظة عليها بمجموعها هو ما يحقق للإنسان الأمان والسلام فردا كان أو جماعة. وقد اهتم الخطاب الديني، باعتباره وسيلة لتبليغ دعوة الإسلام، بالأمن اهتماما بالغا، فجعل تحقيقه الغاية التي تقام عليها المضامين، والمبدأ الذي تسعى مختلف الوسائل لترسيخه في نفوس الأفراد، ولدى مختلف المؤسسات والجماعات، وفي هذا السياق، يأتي هذا البحث المعنون ب: **"الخطاب الديني المعتدل وأثره في تحقيق الأمن الروحي للمغاربة المقيمين بالخارج"** والذي يعالج هذا الموضوع من وجهة نظر شرعية واقعية تحاول الإجابة عن الأسئلة الموضوعية التالية: ما المقصود بالخطاب الديني؟ وما ضوابط الاعتدال والوسطية فيه؟ وما أهميته في تحقيق الأمن الروحي للمسلم؟ مع أخذ التحديات الفكرية والحضارية التي تواجه الجاليات المسلمة بالغرب عامة، والجالية المغربية على الخصوص، وفئة الشباب منها على وجه أخص، نموذجا تطبيقيا لذلك. هكذا يناقش المبحث الأول مفهوم الخطاب الديني المعتدل وأهم سماته المميزة له عن غيره من أصناف الخطاب. ويعالج المبحث

الثاني أهمية الخطاب الديني المعتدل في تحقيق الأمن الروحي للفرد المسلم من خلال نقد أبرز سلبيات وانحرافات الخطاب الديني المعاصر (خاصة تلك التي تشكل خطورة على السلم الاجتماعي وتسهم في إثارة الفتنة والفرقة والتنازع بين المسلمين)، إضافة إلى بيان علاقة الإيمان بالأمن، وأثر الاعتدال في نشر قيم التقارب والتعايش بين الناس، ونبذ العصبية ودعاوي الجاهلية، والدعوة إلى الحوار، وإشاعة التكافل الاجتماعي والتراحم بين الأفراد والقبائل والمجتمعات. وتختم الدراسة بالمبحث الثالث التطبيقي، والذي يتناول واقع الخطاب الديني الموجه للجاليات الإسلامية بالغرب (والمغربية بالخصوص)، والتحديات التي تواجهها، وكذا كيفية الارتقاء به لتحقيق الأمن الروحي لأفرادها.

المبحث الأول: مفهوم الخطاب الديني المعتدل ومميزاته:

أولاً: تعريف الخطاب الديني المعتدل:

الخطاب الديني باعتباره مصطلحا مركبا تركيبا إضافيا لفظ جديد على الثقافة الإسلامية، إذ لا نجده بهذا التركيب الدال على معناه المعاصر في التراث الشرعي الإسلامي، وإنما شاع في العصر الحديث وانتشر انتشارا واسعا في وسائل الإعلام الغربية والعربية منها. وانسجاما مع مبدأ عدم المشاحة في المصطلحات، مادامت لا تناقض أصلا شرعيا ولا يلتبس معناها على المتلقي، لن يجادل أحد في استعمال الشائع منها على أساس تحديد المقصود منها وضبطه في سياقه. وقبل أن نشرع بالتعريف الاصطلاحي للفظ المركب، لا بأس من الوقوف أولا على التعريف اللغوي والدلالي لمكوناته (الخطاب، الديني)، لأن مدلولات اللغة غالبا ما تؤثر في المصطلحات والمعاني التي يصطلح عليها الناس من جهة، ولأن فهم معاني الألفاظ يساعد على تبصر دلالات المصطلحات التي تتركب منها من جهة ثانية.

1- تعريف الخطاب لغة:

لغةً: يُطلَق (الخطابُ) في اللغة العربية على: توجيه الكلام ومراجعته، جاء في لسان العرب أن الخطاب هو: "مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا... والمخاطبة مفاعلة من الخطاب"[1]. أما المعجم الوسيط، فلا يشير إلى تطور هذه الكلمة في العربية المعاصرة، وإنما يكتفي

[1]- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، المجلد الأول، ص361، مادة "خطب".

بتفسير الخطاب بالكلام دون تقييد نوع الكلام، كما يورد الخطاب بمعنى الرسالة[1]، ونستنتج من المعنى اللغوي للفظ "الخطاب" مركزية عملية التواصل في تحقق دلالة الكلمة إذ إن مفهومها يشمل اللغة المنطوقة في حالة المحاورة، واللغة المكتوبة في حالة المراسلة؛ يعزز ذلك أيضا ورود اللفظ بصيغة المفاعلة (المخاطبة) الدالة على المشاركة. وجاءت مادة (خطب) في عدة مواضع من القرآن الكريم منها:

- قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص: 20)، أي علم فصل الخصومات بين الناس[2]، أو البيان والقول الشافي القاطع.

- ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان:63) أي كلمهم الجاهلون بخطاب جهل.

- ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (هود:37) أي: ولا تسألني ولا تراجعني في العفو عن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم.

- ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (ص: آية 23) أي غلبني في القول.[3] و(الخطاب) من الألفاظ المتداولة في أصول الفقه ويُرَاد به:" توجيه الكلام نحو الآخر للإفهام والاستجابة "، وهو المعنى المتداول في سائر كتب أصول الفقه عند تعريفهم للحكم الشرعي بأنه: " خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين، طلبا أو تخييرا أو وضعا"[4]. ومنهم من يستعمل عبارة خطاب الله تعالى بدل خطاب الشارع. كما تتردد في كتب أصول الفقه مصطلحات: دليل الخطاب، وفحوى الخطاب، ومعنى الخطاب .

2- تعريف الخطاب الديني اصطلاحاً:

عرف الخطاب اصطلاحا بأنه (كل نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكاتب، وتفترض فيه التأثير على السامع أو القارئ، مع الأخذ بعين الاعتبار مجمل الظروف

---

[1] - إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، الجزء الأول، ص 243.

[2] - السعدي عبد الرحمان بن ناصر، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2003م، ص:678.

[3] - السعدي عبد الرحمان بن ناصر، المرجع السابق، ص:678.

[4] - خلاف عبد الوهاب، علم أصول الفقه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 2010م.

والممارسات التي تم فيها)[1]. فالخطاب هو إيصال المعاني والأفكار إلى الآخرين بواسطة الكلام المفهوم؛ واللغة في ذلك هي أداة الخطاب بمعنى الوعاء الذي يحمل المعاني والمضامين. وعندما ينسب الخطاب إلى الدين، فالمقصود به هنا الدين الإسلامي قطعا، وإن كان يسمى الخطاب الديني غير الإسلامي خطابا دينيا، كالخطاب الديني النصراني، واليهودي...

وعلى هذا الأساس يمكن تعريف الخطاب الديني بأنه مجموع الأنشطة التواصلية التي تسعى إلى نشر دين الله تعالى عقيدة وشريعة وأخلاقاً، وبذل الوسع في ذلك لتعليم الناس ما ينفعهم في الدارين. إنه بذل أقصى الجهد والطاقة من أجل إيصال رسالة الإسلام امتثالا لأمر الله تعالى[2]، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم[3]، ورحمة بالبشرية جمعاء، وتحقيقا لمصالح الإنسان في الدنيا والآخرة، ودفعا للمفاسد التي قد تعترض سبيله.

ونظرا للاختلاف الحاصل في كثير من مضامين الخطاب الديني، بل وتعارضها في بعض الأحيان رغم أن دين الإسلام واحد، تبعا لاختلاف الجهة المنتجة له من حيث فهمها للدين أو صدقها في خدمته، وجب تقييد المقصود بالخطاب الديني في هذا البحث بالاعتدال باعتبار أن هذه الميزة هي الصفة الكاشفة والمميزة له عن غيره من الخطابات التي تسيء لدين الإسلام وتنفر منه سواء صدرت، بحسن نية، من جهات مسلمة أساءت فهم الإسلام (غلوا أو جفاء)، أو صدرت بنية التشويه والتحريف من جهات تعادي الإسلام وتهدف النيل منه. وبناء عليه، فالمقصود **بالخطاب الديني المعتدل** ذلك الخطاب الذي:

- يتبنى الوسطية غاية ومنهجا ووسائل.
- يهتدي بنور القرآن الكريم، ويستن بسيرة سيد المرسلين.
- خطاب وسطي بين الإفراط والتفريط، بين الغلو والتقصير، بين التشدد والتساهل.
- يلتزم بالثوابت الشرعية ويراعي المقاصد الإسلامية وينسجم مع السنن الكونية.
- يتأسس على فقه الشرع مبدأ وينفتح على فقه الواقع تنزيلا وعملا.

---

[1] - أحمد عبد الله الطيار،"تأويل الخطاب الديني في الفكر الحداثي الجديد"، حولية كلية أصول الدين القاهرة، سنة2005 العدد 22، المجلد الثالث، ص 12.

[2] -كما في قوله سبحانه " ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين" (فصلت/33)

[3] -كما في قوله عليه الصلاة والسلام:" بلغوا عني ولو آية" صحيح البخاري - باب أحاديث الأنبياء (تحت رقم 3274)

هذه بعض خصائص الخطاب الإسلامي المعتدل على الإجمال، أما تفصيلها فيتناوله المحور الأول المتضمن لسمات الخطاب الإسلامي ونقد أضدادها المتمثلة في أبرز سلبيات الخطاب الديني المعاصر، على أساس أن يتم تنزيل معاني على الواقع من خلال بيان أثرها في تحقيق الأمن في المحور الثاني والثالث.

ثانيا: مميزات الخطاب الديني المعتدل المنشود:

الخطاب الإسلامي المنشود لا بد له من سمات وركائز ينطلق منها ليحقق المراد، وأهم هذه الركائز:

-1 الربانية في المصدر والغاية:

ويقصد بها انتساب الخطاب الإسلامي إلى الرب سبحانه وتعالى من حيث مبدئه ومصدره وغايته ومقصده. إنه خطاب يستمد كل مبادئه وقيمه وأحكامه من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، قال تعالى: " اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم, ولا تتبعوا من دونه أولياء، أفلا تذكرون" (سورة الأعراف:3)

-2 الإنسانية والفطرية:

فالخطاب الإسلامي جاء لإنقاذ البشرية والإنسانية وتكريمها ورفع مكانتها ونشر الخير والأمن والأمان في مختلف أرجاء المعمورة. لذا فإنه خطاب ينبني على القيم الإنسانية التي تنسجم مع الفطرة التي خلق الله تعالى الناس عليها: " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (الروم:30).

-3 العالمية:

الخطاب الإسلامي يتوجه بالرحمة إلى البشرية جمعاء ويتأسس على شمول رسالة الإسلام للناس أجمعين. فهو يخاطب الإنسان، مطلق الإنسان، عبر الأزمان والأجيال وفي كل مكان بغض النظر عن لونه أو جنسه، أو عرقه، أو لغته... قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾(الأنبياء:107).

-4 الوسطية والتوازن والاعتدال:

الخطاب الإسلامي يراعي التوازن بين العقل والوحي، وبين المادة والروح، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والجماعة، وبين الحقوق والواجبات، ويراعي جميع جوانب الحياة دون إفراط أو تفريط دون غلو أو تشدد أو انحلال، فهو منهج الاعتدال والتوسط.

-5 الشمول:

تشمل مضامين الخطاب الإسلامي كل مناحي الحياة، وشموله هذا نابع من خاصية الشمول المميزة لدين الإسلام والتي نقصد بها: " أن الشريعة الإسلامية الغراء اشتملت على نظم وأحكام وقوانين، في كل جانب من جوانب التكوين والبناء، وفي كل ناحية من نواحي المجتمع والحياة، سواء ما يتعلق بالعقائد والعبادات والأخلاق، وما يتعلق بالقوانين العامة من مسائل مدنية، وأمور جنائية، وأحوال شخصية، ونظم اجتماعية، وعلاقات دولية، وما يتعلق بأسس الحكم، وقواعد الاقتصاد، وركائز المجتمع الفاضل."[1]

-6 التيسير والتسهيل على الناس:

وهي ميزة نابعة من وسطية دين الإسلام، ومن سيرة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام الذي ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن حراما[2]، والذي قال (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)[3]، والذي أنّب معاذ بن جبل حينما أطال في الصلاة بالناس فقال: "أفتان أنت يا معاذ من أم فليخفف..."، فهو عليه الصلاة والسلام تمثل التيسير في حياته من غير تساهل، ودعا إليه غيره وأنب المخالف لنهجه.

-7 الإيجابية:

فينبغي أن يكون خطابنا الديني إيجابيا في جميع مناحي الحياة ويتجلى ذلك في كونه:

- نافعا للبشرية، فعالا وفاعلا في حركة التاريخ، لا منكفئا على نفسه منعزلا عن متغيرات عصره.

---

[1] - علوان، عبد الله ناصح، الإسلام شريعة الزمان والمكان، دار السلام، القاهرة، ط3، 1987م.

[2] - روى الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيها، وأبو داود في سننه وأحمد في مسنده، عَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ رضى الله عنها، قَالَتْ: (مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَأْثَمْ، فَإِذَا كَانَ الإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ).

[3] - متفق عليه.

- مسهما في المجتمع المدني المحلي والإنساني من خلال الإبداع في الفكر، والتجديد في الوسائل، والاجتهاد في إيجاد الحلول لسائر المعضلات التي تعاني منها الإنسانية اليوم من تخلف، وأمية وجهل، وبطالة، وتلوث، وتهديد نووي، وانحلال أخلاقي...

- متجاوزا للدور السلبي المتمثل في لعن الظلام، وعد النقائص، وإحصاء الكوارث، ووصف الأزمات، لأن هذا من شأن العاجز المتكاسل وهو سلوك مذموم شرعا ومتخلف واقعا، قال عليه الصلاة والسلام من قال هلك الناس فهو أهلكهم" بضم الكاف من "أهلكهم" وفي رواية بالفتح.

-8 الواقعية:

يتحلى الخطاب الإسلامي بالواقعية في مضامينه وتوجيهاته، إنه:

- يراعي مصالح الإنسان ورغباته وحاجاته النفسية والاجتماعية والمادية.

- يستوعب الواقع الإنساني الثقافي والاقتصادي والسياسي والبيئي استيعابا دقيقا ومفصلا. ويقصد بالواقع كما يعرفه د عبد المجيد النجار:"ما تجري عليه الحياة في مجتمع ما، من أسلوب في تحقيق أغراض ذلك المجتمع، ويدخل في ذلك مجموع الأعراف والتقاليد والنظم التي تتفاعل؛ فينشأ منها الأسلوب في تحقيق الأغراض. وأسلوب تحقيق الأغراض الحياتية يشتمل على عنصرٍ اجتماعيٍّ متمثلٍ في بنية الترابط الاجتماعي، وطبيعة التنظيمات الاجتماعية التي يمارس من خلالها الأسلوب الحياتي، كما يشتمل على عنصرٍ اقتصاديٍّ متمثل في نظام الإنتاج والتوزيع والاستهلاك، وما يجري عليه من قواعد، كما يشمل عنصراً سياسياً يتمثل في طبيعة الحكم القائم في المجتمع ونظامه، وعنصراً ثقافياً متمثلاً في أنماط التعبير الفني التي ينتهجها الناس في تصوير آمالهم وآلامهم وأفراحهم وأتراحهم"[1].

- يهتم بكل ما يترتب عليه عمل ونفع للإنسانية، ويهمل كل جدل عقيم ليس من ورائه عمل واقعي، يقول الإمام الشاطبي في المقدمة الثامنة من الموافقات: " العلم الذي هو العلم المعتبر شرعاً، أعني الذي مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق هو العلم الباعث على العمل الذي لا يخلى

[1] - عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهماً وتنزيلاً،

صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعاً أو كرهاً"[1].

ويقول أيضا: "العلم وسيلة من الوسائل ليس مقصوداً لنفسه من حيث النظر الشرعي وإنما هو وسيلة إلى العمل، وكل ما ورد في فضل العلم فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف للعمل به" [2].

-9 التجديد والتنوع والانفتاح:

التجديد من ثمرات الاجتهاد الذي يمارسه علماء الأمة والذي يحث على الانفتاح على كل الوسائل الشرعية المتاحة واستثمار تنوعها ضمانا للاستمرارية والتطور ومواكبة العصر، وطلبا لإيصال البلاغ الرباني إلى فئات المجتمع الإنساني في مختلف الأمصار والأزمان. فانفتاح وتجديد الخطاب الإسلامي لا يقصد به، كما يريد له البعض، تحريف معانيه وتجاوز مبادئه باسم الحداثة والمعاصرة، بل يعني:

- تجديد الثوابت القطعية من تصورات عقدية وأحكام شرعية بإزالة الآثار والرواسب السلبية التي تصيبها عندما يسود التقليد ردحا من الزمن، فينسى بعضها ويحرف بعضها الآخر، وعلى هذا المعنى يفهم حديث نبينا الكريم: "جددوا إيمانكم، قيل وكيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله"[3].

- تجديد الوسائل بالانفتاح على تقنيات الاتصال الحديثة، وتكنولوجيا التواصل والإعلام المتقدمة، واستثمار الدراسات اللسانية والتواصلية الحديثة في المخاطبة كتوظيف تقنيات التنشيط التشاركية في الأنشطة الدينية والدعوية.

- الاجتهاد في إيجاد الحلول للنوازل المستجدة الناجمة عن تغير أنماط العيش عبر الزمان والمكان، وهذا يشمل ما لم يرد فيه نص منها، أما ما فيه نص شرعي فيكون التجديد والاجتهاد فيه من جانب تنزيله على الوجه الذي يحقق المصلحة الشرعية المعتبرة ويراعي أحوال الناس وظروفهم، ويستشرف مآل العمل به وثمرته.

---

[1]- لموافقات 47/1.

[2]- المرجع السابق 44/1.

[3]- أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب التوبة والإنابة، 285/4.

-10 الحكمة:

وهي مبدأ أصيل في الخطاب الإسلامي بدأ به الله تعالى حين وضع ركائز المنهج الدعوي في الإسلام، مما يدل على مكانة الحكمة وأثرها في إيصال الرسالة الإسلامية إلى القلوب والعقول على حد سواء، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125)، والحكمة تعني مما تعنيه، وضع الأمور في نصابها وبالطريقة وفي الظروف (الزمان، والمكان والأحوال) التي تناسبها. فهي مراعاة الحال والسياق قبل القول والحكم والعمل. وهي موهبة ربانية يؤتيها الله تعالى من يشاء: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: 269) ومن أهم تجليات الحكمة:

- إدراك القضايا وتقديرها على وجهها الصحيح ؛ فالحكيم يرى الأشياء الكبيرة كبيرة، كما يرى القضايا الصغيرة صغيرة كما هي، وهذا من أخطر المشكلات التي ظلت تواجه البشر على مدار التاريخ، وهل دُمّرت الحضارات إلا من وراء مشكلات وأخطاء ظنها الناس تافهة، فإذا هي عواصف هوجاء تأتي على كل ما تمرّ عليه.

- استحضار دروس وعبر التاريخ وتجارب الحياة والبناء عليها في الحكم على الوقائع والتنظير للمستقبل. وقديما قيل: "إذا أردت أن تعلم ما سيكون فانظر لما كان فإن الأمور اشتباه".

- استشراف المستقبل انطلاقا من الواقع، والنظر إلى مآلات الأحداث قبل إيقاعها، يقول الدكتور عبد الكريم بكار:" الحكيم: رجل يرى ما قبل اللحظة الراهنة، ويستشرف ما بعدها، وهو لا يرى نسقاً أو نظاماً من التداعيات الترابطية، لكنه يرى أنساقاً ونظماً تتوازى، وتتقاطع، وتتصادم، إنه يحسّ بالعاصفة قبل هبوبها، فيحذر قومه وينذرهم . كلنا نرى القضايا بحجمها الحقيقي، لكن بعد فوات الأوان، وبعد أن نكتوي بنارها، وتفوتنا فرصها الذهبية، لكن الحكيم يأتي في الوقت المناسب، كما قال سفيان الثوري: "إذا أدبرت الفتنة عرفها كل الناس، وإذا أقبلت لم يعرفها إلا العالم"[1].

ومن مستلزمات الحكمة:

[1] - عبد الكريم بكار، تفسير قوله تعالى: **"ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً"**، موقع صيد الفوائد http://www.saaid.net

-11 التدرج ومراعاة الأولويات:

إذا كانت غاية الخطاب الإسلامي الوصول بالناس إلى الاهتداء بنور الإسلام والعمل به في حياتهم للفوز والسعادة في الدارين فإن ذلك لن يتأتى بضربة لازب بل لا بد من التدرج والمرحلية في ذلك اقتداء بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

فالخطاب المعتدل يقتضي مراعاة الأولويات وتقديم الأهم على المهم. فيبتدئ بتثبيت العقيدة والإيمان قبل تقرير العبادات والأركان فضلا عن التطرق إلى الفضائل والسنن.

ولنذكر طرفا من القواعد العامة التي سطرها العلماء ما ينبغي مراعاته في الخطاب الديني المعتدل:

- فالشريعة تقدم الفرض على النافلة، وتقدم النص على الاجتهاد، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة.

- ويدرأ الضرر العام قبل الضرر الخاص، ويرتكب أخف الضررين وأهون الشرين مخافة ضررٍ أكبر.

- وطلب العلم أولى من التنفل عند التعارض، ومحاربة الشرك الجماعي مقدم على محاربة الشرك الفردي.

- والحرص على ما يجمع الأمة من أصول ومبادئ خير مما قد يفرقها من جزئيات وفروع إذا لم يمكن الجمع بينهما في بعض الظروف والسياقات[1]. ويوضح هذه القاعدة أكثر الميزة التالية:

-12 الدعوة إلى جمع كلمة المسلمين:

وذلك امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: 103)، وحبل الله هنا دين الله تعالى، وطاعته التي يتوصل بها إلى نيل رضاه. يقول الإمام البغوي: "الحبل: السبب الذي يتوصل به إلى البغية وسمي الإيمان حبلا لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف . واختلفوا في معناه هاهنا، قال ابن عباس: معناه تمسكوا بدين الله، وقال ابن مسعود: هو

[1] - عبدالسلام حمود غالب، الوسطية في الخطاب الديني وأثره على المجتمع، http://www.alukah.net

الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر الله به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة"[1].

ولهذا يجب على الخطاب الديني الحرص على كل ما يجمع كلمة المسلمين ويوحد صفوفهم من أصول معتبرة وثوابت راسخة، وأن يجتنب ما أمكن الخوض في كل ما يفرق شؤونهم وينشر الشقاق بينهم خاصة إذا كان هذا الأمر مبحثا جزئيا مختلفا فيه لا يؤثر تأخير الكلام فيه على أصول الدين وفرائضه. أما إن دعت الحاجة إلى بيانه، وتصحيحه فعلى الداعية أن يتناوله وفق منهج التدرج والحكمة.

المبحث الثاني: أهمية الخطاب الديني المعتدل في تحقيق الأمن الروحي:

يضطلع الخطاب الديني بدور مهم وحساس في تحقيق الأمن والأمان الفردي والاجتماعي، وذلك لما له من أثر كبير في توجيه المتلقي وتشكيل الرأي العام خاصة وقت الفتن والأزمات. فهو يخاطب الروح والعقل على حد سواء وهذان هما محركا السلوك الإنساني وموجها اختياراته وأفعاله. لذا فمسؤولية الدعاة والعلماء كبيرة جدا تجاه الأمة، والمجتمعات، والأفراد؛ فأي انحراف عن منهج الاعتدال أو تقصير في أداء الرسالة الموكولة بهم قد تترتب عنه نتائج وخيمة على السلم الاجتماعي. وبناء عليه يحسن بنا، قبل بيان آثار الخطاب الديني المعتدل في تحقيق الأمن الروحي، الحديث عن الآثار السلبية المترتبة عن انحراف الخطاب الديني عن منهج الاعتدال لأنه كما قيل بأضدادها تتميز الأشياء.

أولا: خطورة انحراف الخطاب الديني عن منهج الاعتدال على الفرد والمجتمع:

تتميز كثير من مضامين الخطاب الديني المعاصر بسلبيات ينعكس تأثيرها على واقع المخاطب فردا كان أو جماعة، وتترتب عنها إثارة الفتنة والفرقة بين المسلمين، بل قد تؤدي في بعض إلى الأحيان إلى الصراع المسلح، وإزهاق الأرواح، وهتك الأعراض، وضياع الأموال.

ومن أبرز هذه السلبيات، وما ينتج عنها من آثار سيئة:

[1] - البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 78/2

1- المذهبية الضيقة، والحزبية البغيضة:

وهي من أعظم الأمراض التي تنخر في جسد ما يسمى " بالصحوة الإسلامية"، وهي من سمات أهل البدع في القديم والحديث، فالشيخ عندهم لا يمكن نقده ولا الاعتراض عليه. ومقياس الولاء والصلاح عندهم انتماؤك لتوجههم، ومدى مدحك لرؤوسهم ومبادئهم وغضك الطرف عن نقائصهم مهما كانت مخالفة لدين الله تعالى.

فالدين مختزل في فهمهم والنجاة والفلاح في اقتفاء أثرهم ولو خالف الدليل الصحيح الاجتهاد الصريح. أما ما عند غيرهم فالتشنيع في حقه مطلوب، وتبديعه والطعن فيه وتقطيع أوصاله مرغوب، كل ذلك بحجة الذب عن الدين والتحذير من الضالين.

وكل ذلك مخالف لصريح القرآن الكريم ونهج سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام، فالله تعالى حذر الذين فرقوا دينهم وتوعدهم بسوء المصير. قال سبحانه: ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون**﴾(الأنعام:159)، وقال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون:53).

ولهذه الحزبية والتفرق أثر خطير على أمن المجتمع المسلم، ذلك لأن الأمن والسلام رهينان بتماسك المجتمع ووحدته، وبتقبل الآخر واحترام آرائه ما دامت لا تناقض أصلا شرعيا ولا تهدم مبدأ ثابتا، أما الخلاف والشقاق والتنازع فكثيرا ما يكون سببا في:

- **انتشار الضعف والوهن والتخلف:** يدل على ذلك اقتران الفشل بالتنازع في عدة آيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر﴾ (آل عمران:152)، وقوله سبحانه: ﴿ولو أراكهم كثيرًا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر﴾ (الأنفال:43)، وقوله عز شأنه: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (الأنفال:46).

- **إزهاق الأرواح وهتك الأعراض وذهاب الأموال:** كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ (الأنعام:65) يقول أبو جعفر الطبري:" أي يخلطكم أهواء مختلفة وأحزابا مفترقة" ومعنى (يذيق بعضكم بأس بعض) أي " يقتل بعضكم بيد بعض"[1]

[1]- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف، مصر، 419/11

2- التقليد في الخطاب:

كثيرا ما نجد في مضامين الخطاب الديني المعاصر نوعا من الجمود والركود، وعدم التجديد والإبداع في الأسلوب والطريقة والمضامين، مما يدفع المخاطب إلى الملل والسآمة والانعزال والنفور. بل إن ذلك يؤدي في كثير من الأحيان إلى تقديم المبررات لمن يريد تصيد الأخطاء والنقائص لاتهام الإسلام بالرجعية والتاريخية وعدم مواكبة العصر وبالتالي ضرورة تجاوزه.

3- التنفير والتعسير:

وهو انحراف نابع عن سوء فهم الدين والغلو فيه بحجة الأخذ بالأحوط تارة وتوسلا بمبدأ قبول الخطأ في الغلو وعدم التجاوز عنه حين الاجتهاد في التيسير على الناس تارة أخرى. وهو مبدأ لا أصل له في الإسلام، بل دلت النصوص الشرعية الصحيحة والاجتهادات العقلية الصريحة، والتجارب الواقعية على خلافه:

- **أما شرعا:** فتواترت الأدلة على النهي عن الغلو في الدين وتأكيد مبدأ اليسر ورفع الحرج فيه كما في قوله تعالى: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ (البقرة 185)، و"وما جعل عليكم في الدين من حرج" (الحج:78)، وكما تعليمه صلى الله عليه وسلم للثلاثة نفر الذين أتوا بيوته وسألوا عن عبادته وتقالوه، والحديث كما رواه الإمام البخاري: عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبدا وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: "**أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**"[1]

- **وأما عقلا:** فلاستحالة التكليف بما لا يطاق، وما يتضمن مشقة غير مقدورة على جميع المكلفين. فهذه المشقة وإن ادعى بعض الغلاة أن باستطاعته تحملها إلا أن الشريعة جاءت للناس أجمعين كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم، صحيحهم وسقيمهم، ولا يستقيم عقلا أن لا تراعي ظروف كل هؤلاء.

[1] - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، نشر: دار ابن كثير، طبعة: 1414هـ / 1993م، ص:1949 .

- **وأما واقعا:** فتشهد أحداث التاريخ على عدم القدرة على التحمل والاستمرار في بعض النوافل طيلة الحياة لمن بالغ في الاجتهاد فيها ولم يقبل الرخصة الشرعية، بل أدى الغلو ببعضهم إلى الخروج عن الدين ومحاربة المسلمين.

مثال الصنف الأول، وهو أهون، قصة الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الذي كان يصوم النهار ويقوم الليل فرخص له النبي عليه الصلاة والسلام وأرشده إلى مسلك اليسر بصيام ثلاثة أيام لكنه شدد على نفسه بصيام يوم وإفطار يوم، فلما كبر عجز عن الاستمرار عما كان عليه، فكان يقول يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم[1].

ومثال الصنف الثاني ذو الخويصرة التميمي الذي سلك مسلك الغلو وأساء الأدب مع النبي عليه الصلاة والسلام، فقال في حقه: " إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا، قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ"[2] ، وهؤلاء هم الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه وقاتلوا جماعة المسلمين.

ولذلك ما أحوجنا اليوم إلى خطباء ودعاة فقهاء بالشرع خبراء بالواقع ييسرون على الناس من غير تساهل، ويفتون من غير غلو ولا تشدد، كما قال الإمام سفيان الثوري: "إنما العلم عندنا الرخصة من فقيه، فأما التشديد فكل إنسان يحسنه".

4- الانتقاد والهجوم اللاذع على المخالف:

وهي صفة ناتجة عن غياب ثقافة الحوار واحترام الرأي الآخر، وعدم التمييز بين النقد والنصح البناء حيث يقول القائل (رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي) ويقول (نتعاون على ما اتفقنا عليه وينصح بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه)، والتركيز على النقض الهدام. هكذا أصبح ميدان الدعوة عند كثيرين، مع الأسف، مكانا لتبادل التهم وإلقاء الافتراءات بعيدا عن المقصد المنشود والمستوى المطلوب والغاية السامية والمكانة الرفيعة التي يسعى إليها من حمل رسالة الأنبياء والمرسلين وهي الدعوة والتبليغ.

---

[1] - رواه البخاري، كتب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، حديث رقم:1874.

[2] - رواه مسلم تحت رقم1770 .

ومما يترتب على هذا الخلل الخطير تطور الهجوم على المخالف إلى التحريض والشحن النفسي المقرون بالتعصب خاصة لدى العوام، مما يترتب عنه شتى أنواع العنف التي تبتدئ بالسب والشتم، ولا تنتهي إلا بإزهاق الأرواح، وإيقاظ الفتن، وتقطيع الأوصال.

ثانيا- آثار الخطاب الديني المعتدل في تحقيق الأمن الروحي للفرد:

بالنظر إلى الآثار السلبية الناتجة عن انحراف الخطاب الديني على الفرد والمجتمع، تتجلى لنا أهمية تمثل صفة الاعتدال في الخطاب الديني دعوة وإفتاء وعملا، لما لذلك من أثر كبير في تحقيق أمن الفرد والمجتمع. ويتجلى ذلك أكثر في تأسيس الخطاب الديني على العلاقة الوطيدة بين الإيمان والأمن والأمان، وأثره في نشر قيم التقارب والتعايش بين الناس، ونبذ العصبية والدعوة إلى الحوار، بالإضافة إلى إشاعة التكافل الاجتماعي والتراحم بين الأفراد والقبائل والمجتمعات.

-1 علاقة الإيمان بالأمن:

العلاقة بين الأمن والإيمان وثيقة جداً، يتأثر أحدهما بالآخر وجودا وعدما وزيادة ونقصانا، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وقال سبحانه: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾﴾ (النحل:9)، وهذا الأمن لا يتحقق إلا بتوحيد الله والإخلاص له وتحكيم شريعته واجتناب المعاصي والمنكرات بالنسبة للفرد والمجتمع على حد سواء.

- **أما على المستوى الفردي:** فإن الإيمان الحق بالله عز وجل يعني: الثقة به سبحانه ربًّا قادرًا عظيما، قريبًا

مجيبًا، رؤوفًا رحيمًا ... وكلما تمكنت هذه الثقة في قلب العبد تبددت منه المخاوف التي ترهب الناس، كالخوف من سطوة الظالمين والخوف من المستقبل المجهول وما تخبئه الأيام . وكلما ضعف الإيمان، وقلت الثقة زادت المخاوف، وظهرت أمارات الهلع والفزع والاضطراب عند التعرض لابتلاء أو نقص أو تضييق، كما قال سبحانه ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾.

- **وأما على مستوى المجتمع والدولة:** فإنه ما اختلّ الأمن في بلد من البلاد إلا بسبب الإخلال بالتوحيد

والإيمان، ولن يذوق بلد، مهما بلغ من القوّة والجبروت، طعم الأمن والاستقرار ما لم يحقق أهله، حكّاماً ومحكومين، التوحيد الخالص والإيمان الصحيح.

وليس الأمن مقتصراً على كل ما هو مادي كتأمين الأموال والأعراض والممتلكات والنفوس؛ بل هو شامل لكلّ الجوانب الفكرية والروحية والسلوكية والأخلاقية والاجتماعية، فلصوص الفكر والأخلاق والثقافة والهوية، من غلاة تكفيريين، ومفسدين منحلّين، وتغريبيين مهجنين؛ أشدّ خطراً على أمن البلاد واستقرارها من لصوص الأموال والممتلكات... بل إنّ اختلال الأمن الفكري والروحي سبب رئيس في اختلال الأمن الحسّي.

2- نشر قيم التقارب والتعايش بين الناس:

التعايش في الإسلام من القيم والمبادئ الأصيلة للأمة، فعقيدة التوحيد تجمع الملة وتكفيها الفتنة، وما اختلاف المذاهب إلا من السنن الماضية التي لا يترتب عليها في السياق الديني الموضوعي إلا تشرذم الناس واختلافهم حد الجفاء والخصام.

ومبدأ التعايش والتقارب والتعارف هذا لا يقتصر على المسلمين وحدهم بل إنه موجه إلى الإنسانية جمعاء، بهذا نطق القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾ (الحجرات: 13)، يقول محمود حمدي زقزوق "لا يجوز أن ينظر إلى اختلاف الجماعات البشرية في أعراقها وألوانها ومعتقداتها ولغاتها على أنّها تمثل حائلا يعوق التقارب والتفاهم والتعايش الإيجابي بين الشعوب، فقد خلق الله الناس مختلفين ﴿**ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك**﴾ كما يقول القرآن الكريم، ولكن هذا الاختلاف بين الناس في أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم لا ينبغي أن يكون منطلقا أو مبررا للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب، بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعا إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع، وتعاون على تحصيل المعايش، وإثراء للحياة

والنهوض بها، ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ (سورة الحجرات: 13)، والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون في جميع المجالات"[1].

إن الخطاب الديني المعتدل يتحمل مسؤولية كبيرة في إشاعة هذه القيم وترسيخها بين مختلف فئات الاجتماعية خاصة الشباب منهم لما لذلك من أثر على استقرار وأمن المجتمع وانسجام مكوناته وتكاملها وتعاونها على ما يحقق المصلحة العامة والرقي والازدهار.

3- نبذ العصبية ودعاوي الجاهلية:

مما يقوم عليه خطاب الاعتدال أن كل دعوة إلى العصبية مذمومة منهي عنها شرعا، فالتعصب للعرق أو للجنس أو للقبيلة أو اللغة أو لأي شيء دون عقيدة الإسلام هو من دعوى الجاهلية، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : "من ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم، فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ فقال: وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله[2]. كما قال لأحد الصحابة مؤنبا (إنك امرؤ فيك جاهلية...) وحذر بعض أصحابه قائلا (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم).

4- الدعوة إلى الحوار وتقبل الآخر:

الحوار مبدأ أصيل في الثقافة الإسلامية قرره القرآن في العديد من المواضع سواء مع الموافق أو المخالف، وأكدته السنة النبوية من خلال تميز حوارات النبي عليه الصلاة والسلام بأساليب راقية بقصد البيان والتمثيل والحجة والبرهان. يقول الدكتور محمد الكتاني:" وإذا كان القرآن قد بنى دعوته للحوار على الإقرار بصدق الرسالات السماوية السابقة، وعلى دعوة أهلها إلى كلمة سواء، وعلى طلب الحق، وتحصيل العلم به، ونبذ التقليد الأعمى، وتقديس السلف، فقد فتح الباب على مصراعيه أما المسلمين للتعايش مع الأمم ذوات الحضارات والأديان السماوية، وعلى توخي المقاصد الإنسانية المشتركة، والأخذ بالأفضل في عمارة الأرض، وتحقيق العدل بين البشر. وهذا ما فعله المسلمون مع سائر الثقافات والحضارات التي اطلعوا عليها."[3]

---

[1] - محمود حمدي زقزوق، التفاهم في الإسلام، مجلة التسامح، العدد الأول:http://www.altasamoh.net

[2] - محمد الكتاني، ثقافة الحوار في الإسلام: من التأسيس إلى التأصيل، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدار البيضاء، ط1 2007م، ص:220.

لقد أصبح من الضروري في عصرنا الحاضر أن تتعامل كافة الاتجاهات والتيارات بانفتاح على واقعها، وأن تؤمن بالحوار وبقيمة التفاعل الإيجابي المستمر بين تجارب بني البشر في الحياة الانسانية، والإيمان بالتعايش السلمي وأن العنف والإرهاب والاقتتال والتخريب والدمار ظواهر لا يقرها لا دين ولاعقل، وتنبذها تجربة الحضارة الإنسانية التي ما تقدمت إلا بتعاضد العقول وتلاقح الأفكار والتقاء التجارب وتعاون بني البشر على اختلاف أديانهم وقومياتهم وألوانهم ولغاتهم.

لكن ذلك لا يعني بأي حال إلغاء الهوية الذاتية أو التفريط في الثوابت والمقومات، بل يقصد منه التعاون مع الآخر على ما هو مشترك وما يعود بالخير على الإنسانية جمعاء. إن الانفتاح الواعي على فكر الآخرين من غير انهزام يوفر فرصا للتلاقي والحوار والتفاعل ومن ثم إيجاد أرضية من التفاهم الإنساني وتوفير مناخ هادئ من الاحترام والفهم وتجاوز لكثير من الإشكاليات الموجودة في هذا الجانب أو ذاك.

-5 إشاعة التكافل الاجتماعي والتراحم بين الأفراد والقبائل والمجتمعات:

بالخطاب الديني الوسطي المنهج ينتشر التعايش بين الناس والتراحم والتعاطف، فكل واحد يسعى إلى الأجر والمثوبة من الله، وتقديم يد المساعدة للآخرين اقتداء بالرسول الكريم القائل:(أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله)، وقول ابن عمر:"لأن أقوم في خدمة أخي المسلم أحب إلي من أن أعتكف في البيت الحرام مئة سنة". فإذا تكلم الناس والدعاة وأصحاب الخطاب الديني بما سبق كان أدعى للناس إلى التطبيق والتنفيذ ونشر الخير بين الناس فنرى في النهاية المجتمع المنشود والمستقبل المنتظر.

المبحث الثالث: الخطاب الديني الموجه للمغاربة المقيمين بالغرب وسبل الارتقاء به لتحقيق أمنهم الروحي.

ينبغي لمن يتناول سبل الارتقاء بالخطاب الديني في مجتمع ما أن ينطلق من تشخيص للواقع ودراسة الظروف والأحوال والخصائص المميزة له قبل البحث عن الحلول والاقتراحات، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره. فلا بد من تصور الأمور على حقيقتها وفهمها كما هي، ودراسة مكامن الخلل ومواطن النقص فيها، وتبين التحديات التي تعترضها، قبل التدخل بالعلاج والإصلاح.

تأسيسا على ما سبق، يقتضي منا المنهج العلمي أن نقف على واقع الخطاب الديني الموجه للجالية المقيمة بالخارج، قبل التأصيل لمبادئه واقتراح أهم الحلول العملية للارتقاء به في سبيل تحقيق أمنهم الروحي.

المطلب الأول: واقع الخطاب الديني الموجه للجالية المسلمة بالغرب.

يشرف على الخطاب الديني الموجه إلى الجالية المغربية المقيمة بالغرب الجهات التالية:

- أئمة المساجد، والدعاة والوعاظ الوافدين إلى الغرب من العالم العربي والإسلامي، وكثير من هؤلاء تتجلى أزمتهم في "بعدهم عن المجتمع الأوروبي وثقافته، مما يؤثر في نظرتهم للحياة، فضلاً عن التأثيرات المحتملة على النشء الجديد الذي يتلقى تعاليم الدين على أيدي هؤلاء الأئمة الذين يحملون أفكارًا اجتماعية وثقافية مختلفة، وغالبًا ما تكون غير متوائمة مع المجتمع الجديد الذي يضمهم".

- المجلس الأوربي للعلماء المغاربة الذي حدد ظهير تعيينه مهامه في: " السهر على حسن أداء الفرائض الدينية، والقيام بشعائر الإسلام في جو من الطمأنينة في إطار العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي، والمساهمة في أي حوار مفتوح بين كافة العقائد وتنسيق أشغاله مع مجلس الجالية المغربية بالخارج، وإحالة الطلبات الخاصة بالمسائل التي تعرض على الهيئة المكلفة بالإفتاء، وإقامة علاقات التعاون العلمي مع الدول الأوروبية والمؤسسات والمنظمات الإسلامية، وتقديم المساعدة للجالية المغربية المسلمة المقيمة في أوروبا لا سيما الشباب منها لتمكينها من الفهم الصحيح للإسلام"[1].

- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية[2]، ومؤسسة الحسن الثاني للمغاربة القاطنين بالخارج[3] اللتان تقومان بإرسال بعثات من الأئمة والوعاظ بقصد التأطير الديني للجالية خلال شهر رمضان.

- الهيئات والمنظمات الإسلامية بالبلاد الغربية، والتي تشرف على عدد كبير من المساجد والمراكز الإسلامية.

- الخطب والدروس والمحاضرات التي تبث عبر مختلف وسائل الإعلام (الفضائيات، الأنترنت، شبكات التواصل الاجتماعي...)

---

[1] - الظهير الشريف رقم 01.08.17 الصادر في 20 من شوال 1429هـ (20 أكتوبر 2008م).

[2] - ينظر: http://www.habous.gov.ma

[3] - ينظر: http://www.fh2mre.ma

- وعلى المستوى المذهبي فإن مما يميز الخطاب الديني الموجه للجالية المغربية المقيمة بالخارج هي غلبة المذهب المالكي على القائمين عليه، مع وجود لخطابات تصدر عن باقي المذاهب لتعدد أصول الجاليات المسلمة المقيمة بالغرب.

هكذا يلاحظ المتتبع تنوع الجهات المنتجة والراعية للخطاب الديني الموجه للجالية المغربية بالغرب بين جهات رسمية، وأخرى تابعة للمنظمات والمراكز الإسلامية وفئة أخرى مستقلة عنها تتمثل في الجهود الفردية لبعض العلماء والدعاة. وهذا التنوع أمر محمود إذا كان القصد منه هو التكامل والتعاون على نشر الدين الإسلامي الحنيف وترسيخ الهوية الإسلامية والمحافظة على قيم هذه الجاليات من الانحلال والغلو. لكن هذا التعدد قد يكون له أثر سلبي في حال التناقض في مضامين الخطاب أو عدم التحلي بضوابط الاختلاف المعتبر، وآداب تقديم النصح للمخالف واحترام اجتهاداته مادامت لا تمس أصلا ثابتا وتقوم هي الأخرى على اعتبارات شرعية وإن تبين خطؤها عند هذه الجهة أو تلك.

إن المتأمل لواقع الخطاب الديني الموجه للجاليات المسلمة بالغرب يجد أنه، بالرغم من الجهود المبذولة، لا زال يعاني من كثير من المشاكل البنيوية سواء على مستوى المضامين، أو على مستوى الأشكال والطرق التي يقدم بها.

- **فأما على مستوى المضامين:** فما زال بعض الدعاة والخطباء ينشغلون بالجزئيات عن الأصول، ويتناولون بكثير من التأكيد والحرص الأمور الاجتهادية التي لم يحصل عليها إجماع ومجال الاختلاف فيها واسع، وبالمقابل نجدهم يهملون الأصول المعتبرة ويتناسون التركيز على الدعوة إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، ونشر معاني الأخوة الإسلامية وقيم التعارف الإنساني.

كما توجد فئة من الشباب ممن لم تحظ من العلم بنصيب، وليس لها في تحصيل فقه الشريعة كبير رسوخ، تتصدر للدعوة والفتوى، فتقع في كثير من المزالق الفكرية (من تكفير، ودعوة للجهاد من غير ضوابط...)، والممارسات السلوكية المسيئة للدعوة الإسلامية (العنف في الخطاب والفعل، التشدد والغلو في الممارسة...). وكلها سلوكات بعيدة عن منهج سيد الأنام الذي كان يراعي المصالح العظمى والمقاصد السامية لديننا الحنيف وكان أرحم في خطابه مع أشد أعدائه فضلا عن أصحابه وأتباعه.

- **وأما على مستوى الأساليب والطرق:** فمازال الكثير من الدعاة يتواصل بالطرق التقليدية، كما يستعمل اللغة العربية فقط في خطابه، ويتجاهل لغة البلد الذي يقيم فيه والتي تفهمها فئة الشباب؛ كما يتجاهل التنويع في الخطاب واستثمار التطور الحاصل في الوسائل والتقنيات التواصلية، مما يجعله بعيدا عن واقعه ويجعل المخاطب ينفر من التفاعل مع محتوى خطابه.

المطلب الثاني: مبادئ الخطاب الديني الموجه للجالية المغربية المقيمة بالغرب.

من بين الأسس والمبادئ العامة المؤطرة لهذا النوع من الخطاب نذكر:

أولا ـ مبدأ حفظ الحياة الدينية للأقلية المسلمة:

إن هذا المبدأ المقصدي موجه لعموم التأصيل للخطاب الديني، سواء ما تعلق منه بالأقليات أو ما تعلق بغيره؛ ذلك أن حفظ الدين لدى المسلم فردا كان أو جماعة يعتبر على رأس الضروريات والكليات التي جاءت أحكام الشريعة لإقامتها. إلا أن استحضار هذا المبدأ في التأصيل للخطاب الموجه للأقليات المسلمة يكون أكثر تأكيدا نظرا لخصوصية الظروف التي يعيشها المسلم في البلاد غير الإسلامية وكذا بسبب التحديات والتهديدات التي يواجهها تدينه. وهي مقتضيات لا شك تختلف في كثير أو قليل عن مقتضيات حفظ الدين في البلاد الإسلامية التي يكون فيها المسلمون يملكون أمر أنفسهم في تطبيق سلطان الدين على حياتهم، إذ الظروف غير الظروف والتحديات غير التحديات، فتكون إذن مقتضيات الحفظ غير المقتضيات، وهو ما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في هذا الأصل.

ثانيا- مبدأ التأصيل لخطاب حضاري:

والمقصود من ذلك التأصيل للخطاب الديني بمعناه الشامل، والعبادة بمفهومها العام[1]، وعدم الاقتصار على التشريع لعبادة الله تعالى بالمعنى الخاص للعبادة. هكذا يتوسع التأصيل الحضاري للخطاب الديني الموجه للأقليات المسلمة بالغرب ليشمل كل وجوه الحياة الفردية والجماعية في علاقة المسلم مع خالقه سبحانه، وعلاقته مع إخوانه المسلمين، وعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه، وعلاقته بالمحيط البيئي الذي هو مجال حركته. يقول الدكتور عبد المجيد النجار:" تتناول أحكام

[1]- من أحسن وأجمع ما ذكر في تعريف العبادة بمفهومها العام، تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: "العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة كالخوف، والخشية، والتوكل، والصلاة، والزكاة، والصيام، وغير ذلك من شرائع الإسلام"، ينظر: "العبودية" لشيخ الإسلام ابن تيمية، (ص:23).

الشريعة في هذا الفقه ما به تترقى جماعة المسلمين في ذاتها الإنسانية ترقية فردية بالعلم والفضيلة، وترقية جماعية بالتراحم والتعاون والتكافل، وما به تكون شاهدة على الناس شهادة قول وشهادة فعل بتبليغ الخير الديني والدعوة إليه، وما به تكون مرتفقة للمقدرات الكونية: استثمارا لها ومحافظة عليها من الدمار، بحيث ينشأ من هذا المبدأ الموجه للتأصيل فقه من شأنه أن يصنع من حياة المسلمين بأوربا أنموذجا حضاريا إسلاميا شاملا خاضعا لله تعالى في شموله لوجوه الحياة"[1].
ويستلزم هذا التأصيل لفقه حضاري للأقليات المسلمة أمران اثنان:

أولهما: ملاحظة ما رسخ في أذهان الغربيين وتأثر به بعض المسلمين المتغربين من فصل للدين عن شؤون الحياة العامة، وقصره على العلاقة الروحية الخاصة بين العبد وربه؛ وكذا التنبه لما نتج عن ذلك من انطلاق هذه المجتمعات الغربية في نظرتها لمختلف نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والبيئية وغيرها من العقل الإنساني المبني على المصلحة المادية والهوى الغريزي، والمجرد عن أي ضوابط أخلاقية. مما أدى إلى نشوء حضارة مادية ينحصر فيها البعد الروحي في الحياة الفردية لبعض الناس.

ثانيهما: التنبه إلى الحالة الحضارية العاتية التي يعيش في كنفها المسلمون بأوربا، إذ إنهم إذا لم يؤخذوا بخطاب حضاري أصيل يكافئ في عيونهم نفسيا وفكريا، وفي أثره على حياتهم نفعيا ذلك الأنموذج الحضاري الذي يتعرضون لسطوته أو يشف عليه، وترك الأمر لمجرد أن تعالج حياتهم معالجة فقهية تعبدية بالمعنى الخاص، أفضى الأمر إلى أن تكون لتلك السطوة غلبة على النفوس، فتنساق حياتهم في أكثر وجوهها على غير شريعة الله تعالى حتى وإن انتظمت فيها شعائر العبادة[2].

فمن شأن النظر إلى هاتين المسألتين في التأسيس لخطاب ديني حضاري موجه للأقليات المسلمة بالغرب أن يسهم:

- من الجهة الأولى، وهي الأهم، في تقديم نموذج حضاري راق بديل لما ألت إليه الحضارة الغربية من انهيار وانحطاط على كثير من المستويات.

---

[1] - "نحو تأصيل فقهي للأقليات المسلمة في الغرب"، د. عبد المجيد النجار، بحث منشور بموقع:
http://www.feqhweb.com

[2] - المرجع السابق.

- ومن الجهة الثانية، وهي فرع عن الأولى، في إزالة الغشاوة عن أبصار كثير من المسلمين المقيمين بالغرب وتجاوز الصدمة الحضارية التي يمكن أن ينتجها مقارنتهم للهوة المادية العلمية والتقنية والتنظيمية التي يتفوق بها الغرب على البلدان الإسلامية. وبالتالي تحقيق الممانعة لأي استلاب فكري يتهددهم.

ثالثا: مراعاة مبدأ الأولويات واتباع سنة التدرج في الاجتهاد والتنزيل:

وذلك بأن يرتب الأمور حسب أهميتها، فيقدم الأهم على المهم، والركن على الفرض، ودرء المفسدة المتحققة على جلب المصلحة المظنونة وهكذا. وهذا ينسجم مع مبدأ التدرج الذي جعله الله تعالى سنة كونية، وشرعية، متوافقة مع الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها. فإن طبيعة البشر، تأبى قبول الأحكام جملة واحدة، أو الامتناع عن المنهيات مرة واحدة، وذلك لما ألفته النفس واعتادت عليه من العادات في جاهليتها، واستثقال ما هو جديد من التكاليف الشرعية. وبهذا نطق شرع العالمين وسارت عليه سنة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام. فإذا كان الأمر كذلك في الدين عامة، فإن الاهتمام بترتيب الأولويات ومراعاة مبدأ التدرج يزداد تأكيده عند التأسيس لخطاب ديني موجه للأقليات المسلمة لما تتميز به ظروف عيشها من مشابهة لحال الجاهلية الأولى من جهة، ولكثرة وتزاحم التحديات التي تواجهها، فتحتاج إلى استلهام الدروس والعبر من السيرة النبوية، لتعيد ترتيب الأولويات وتبني الأسس والمخططات.

رابعا: العناية بفقه الواقع ومراعاة خصوصيات أوضاع الأقليات.

لا يستطيع الاجتهاد في القضايا عموما، ونوازل الأقليات المسلمة على الخصوص أن يؤدي مهمته، ويحقق غايته، ويؤتي ثمرته، إلا إذا ضم إلى فقه النصوص والأدلة الشرعية فقه الواقع. يقول الإمام ابن القيم: "لا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً. والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر. فمن بذل جهده، واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرًا.فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله"[1].

[1] - إعلام الموقعين، (87/1).

وبناء عليه يكون من الواجب أن يهتم هذا الفقيه المجتهد، وهذا الداعية الواعظ بمعرفة ظروف الأقليات المسلمة، ويتبين ما يميزها عن الجماعة المسلمة في بلاد الإسلام. بل عليه أن يطلع على خصوصية الأقلية المسلمة التي يفتي لها، إذ لا شك أن الأقليات تتفاوت فيما بينها تفاوتاً بعيداً. فالأقلية التي يكون معظمها من الوافدين المهاجرين، غير الأقلية التي يكون معظمها من المواطنين الأصليين. والأقلية المستضعفة غير الأقلية المتمكنة ذات الحال والجاه والنفوذ، والأقلية المحدودة العدد، غير الأقلية الكبيرة... وهكذا.

ومما يرتبط بهذا الأساس ويوضحه أكثر ضرورة مراعاة خصوصيات الأقليات المسلمة بالغرب والتي تميزها عن ظروف الجماعة المسلمة بأرض الإسلام. ومن أهم الخصوصيات التي ينبغي اعتبارها في هذا التأصيل ما يلي :

أ ـ خصوصية الضعف :

إن الأقليات المسلمة بالغرب تفوق في حال ضعفها كثيرا من الأقليات في العالم لأسباب متعددة ليس هذا مجال تفصيلها، ونكتفي بالإشارة إلى سببين اثنين هما: ضعف وتخلف الفعل الحضاري للمجتمعات الإسلامية، وحالة الفرقة التي تعيشها هذه الأقليات. لهذا الضعف مظاهر وأوجه متعددة نذكر منها:

- **الضعف النفسي**: ويتمثل في الشعور بالغربة الثقافية والاجتماعية، بالإضافة لما يستكن في نفوس الأقليات المهاجرة من شعور بالدونية أو المغلوبية الحضارية.

- **الضعف الاقتصادي**: إذ الأقلية المسلمة في أوربا على وجه الخصوص هي من أكثر الأقليات ضعفا اقتصاديا، إذ هي -في أكثرها- من اليد العاملة أو من الحرفيين، أو من الموظفين في قلة قليلة، وهو ما انعكس على قدرة هذه الأقلية على الاندماج في الحركة الحضارية والاستفادة منها الاستفادة المثلى .

- **الضعف السياسي**: فبالرغم من أن عددا كبيرا من الأقلية المسلمة أصبح من المواطنين الغربيين، فإن تأثيرهم في القرار السياسي في البلاد التي يعيشون فيها لا يكاد يذكر مقارنة مع أقليات هي أقل عددا ولكنها تتمتع بنفوذ وتأثير واسعين.

- **الضعف الاجتماعي**: فليس لهذه الأقلية مؤسسات اجتماعية ذات أهمية وتأثير، لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف[1].

إن هذا الوضع من الضعف المتعدد الأوجه ينبغي مراعاته عند التأصيل للخطاب الديني الموجه للأقليات المسلمة.

ب ـ خصوصية التهديد الثقافي للهوية الإسلامي:

تعيش الأقليات المسلمة في مناخ مجتمع ذي ثقافة مخالفة لثقافتها في الكثير من أوجه الحياة، وهي تجد نفسها في مواجهة مباشرة مع سطوة تلك الثقافة مما يحدث في نفوس الأقلية المسلمة - وبالأخص في نفوس الشباب منها- ضربا من الاضطراب والقلق في الضمير الفردي والجماعي على حد سواء، وهو ما يصبغ الحياة العامة للأقلية بصبغة التأرجح، فلا هذه الأقلية اندمجت في جسم المجتمع الذي تعيش فيه حتى صارت خيوطا من نسيجه، ولا هي كونت هيكلا متجانسا يتفاعل مع المجتمع من منطلق ذلك التفاعل والتدافع الحضاري المطلوب.

ج ـ خصوصية الإلزام القانوني :

يحظى القانون في البلاد الغربية بصفة عامة باحترام كبير، سواء في الحس الجماعي، أو في دوائر التنفيذ. وهذا القانون، الذي يطبق على الأقلية المسلمة كما يُطبق على سائر أفراد المجتمع من مواطنين ومقيمين، مبني على ثقافة المجتمع ومبادئه وقيمه التي تصطدم في كثير من الحالات مع القيم الإسلامية والأحكام الشرعية.

إن هذه السيادة القانونية على الأقلية المسلمة المعارضة في كثير من محطاتها لضميرها الديني والتزامها العقدي تمثل وضعا خاصا لهذه الأقلية من بين أوضاع عامة المسلمين يقتضي أن يؤخذ بعين الاعتبار في الخطاب الديني الموجه لها[2].

---

[1] - ينظر: "نحو تأصيل فقهي للأقليات المسلمة في الغرب"، د. عبد المجيد النجار، بحث منشور بموقع:
http://www.feqhweb.com

[2] - عبد المجيد النجار، المرجع السابق.

د ـ خصوصية التبليغ الحضاري :

مهما يكن من وضع الأقلية المسلمة بالغرب من قوة أو ضعف، ومن استقرار أو اضطراب، فإن مجرد وجود هذا العدد الكبير من المسلمين بالبلاد الغربية يُعتبر ضربا من الصلة الحضارية بين الحضارة الإسلامية -مهما يكن تمثيلها ضعيفا- وبين الحضارة الغربية المستقرة؛ من هنا فموقعها بالبلاد الغربية يؤهلها لتحمل مهام التلبيغ لحضارة الإسلام وقيمه السمحة سواء على مستوى احتكاك الأفراد المسلمين بالغربيين في حياتهم اليومية أو من خلال تفاعل المؤسسات الإسلامية الثقافي والحضاري مع نظيرتها الغربية[1].

المطلب الثالث: سبل الارتقاء بالخطاب الديني الموجه للجالية المغربية المقيمة بالغرب:

رغم التنوع والتعدد في الجهات المنتجة للخطاب الديني الإسلامي بالغرب إلا أن تحديات الواقع ورهانات المستقبل تفرض عليه الارتقاء في مضامينه وأساليبه، وانخراطه الكامل في إشاعة قيم الوئام والأخوة والسلم الاجتماعية. وهكذا ينبغي على الخطاب الديني:

- الاستفادة من العلوم المعاصرة والبحوث والدراسات الحديثة التي تهتم بدراسة اتجاهات الجماهير، والعوامل المؤثرة في تشكيل الرأي العام.

- توظيف وسائل وتقنيات التواصل الحديثة لإيصال الخطاب الإسلامي الوسطي لأكبر عدد ممكن من المواطنين، هكذا يشكل الانفتاح على القنوات الفضائية، والإبداع في البرامج الإذاعية، والاستغلال الأمثل للمواقع الإلكترونية ولشبكات التواصل الاجتماعي نقلة نوعية واستجابة ملحة لانتظارات جمهور عريض من المخاطبين.

- الاهتمام بالناشئة في المدارس والمؤسسات التعليمية من خلال غرس قيم الإسلام السمحة، والتربية على المواطنة واحترام الآخر، وتعزيز ثقافة الحوار لديهم.

- إيلاء أهمية أكبر لفئة الشباب من خلال تنويع الأنشطة التواصلية الدعوية وإشراكهم في تنظيمها والإشراف عليها، وتدريبهم على قيم وضوابط تدبير الاختلاف واستغلال طاقاتهم في

[1] - المرجع السابق.

مختلف الأعمال الإبداعية النافعة: مثل الأوراش التعاونية، المسابقات الرياضات الجماعية، الزيارات الميدانية، الأنشطة التحسيسية بالأخطار الصحية، المخيمات الصيفية التربوية...

- التحذير من خطورة الانحرافات الفكرية الغالية ومهالكها في الدنيا والآخرة من خلال الاستناد إلى النصوص الشرعية الواضحة، والرجوع إلى الوقائع التاريخية الماضية من أجل أخذ العبرة والاستفادة من الأخطاء السابقة.

- تنظيم مؤتمرات وندوات للتواصل بين الشباب حول مختلف القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبحث عن أنجع الحلول لتجاوز الأزمات والمشاكل التي تعاني منها البلاد وإشراك الشباب في تنفيذ الناجع والممكن تطبيقه منها.

- تشجيع النماذج الشبابية الناجحة وتوظيفها في قيادة مشاريع دعوية عملية تحقيقا للتواصل الشبابي الأفقي لما لذلك من أثر في فهم الرسالة الدعوية والتزامها. وهنا يمكن الاستفادة من مقاربة التثقيف

- بالنظير وهي مقاربة تشاركية تهدف إلى تغيير السلوكيات السلبية وغرس القيم الإيجابية وبالتالي الإسهام في التنمية البشرية وذلك عن طريق النظير أي: الند أو الصديق أو الخل. وحتى يتمكن المثقف من تحقيق أهدافه هذه عليه أن يكون منتميا إلى نفس الفئة العمرية الاجتماعية والبيئية والثقافية للند المستهدف، وبالتالي فهو على اطلاع تام على مكوناته الثقافية ومحيطه الاجتماعي المؤثر فيه.

- الاهتمام بتنمية مهارات النقد والتفكير وبناء القناعات على الحجج والبراهين الشرعية والعقلية، والتحذير من التقليد الأعمى والميل مع الألوان الفكرية الوافدة من غير تمحيص لها أو تبين لمدى صدقها وصحتها.

- تواصل الهيئات الراعية للخطاب الديني فيما بينها وتوحيد جهودها في اتجاه التكامل والتعاون لا في اتجاه التكرار والاجترار، أوفي أسوأ الأحوال في اتجاه التعارض والتنافر. إن هذه الجهات عليها أن تقدم لعموم الجالية الإسلامية المقيمة بالغرب، ولفئة الشباب بخاصة النموذج الأمثل والقدوة الحسنة في إشاعة قيم الحوار وتدبير الاختلاف والتأدب بآدابه، والانضباط لضوابطه.

الخلاصة:

يمكن أن نستنتج، من كل ما سبق تقريره، بأن الوصول بالخطاب الديني المعتدل لتحصيل مقاصده المنتظرة، وعلى رأسها تحقيق الأمن الروحي للفرد والمجتمع، يتطلب من هذا الخطاب أن:

- يراعي في توجهه للمخاطب التوازن بين العقل والوحي، وبين المادة والروح، وبين الحقوق والواجبات.

- تشمل مضامينه كل مناحي الحياة ولا ينحصر في زاوية اجتماعية أو سياسية أو دينية ويهمل الأخرى، بل يتناول الأمور بنظرة شرعية وواقعية شاملة.

- ينبني على التيسير في حياة الناس من غير تساهل، ويبتغي التبشير من غير تنازل.

- يسهم في المجتمع المحلي والإنساني من خلال الإبداع في الفكر، والتجديد في الوسائل، والاجتهاد في إيجاد الحلول لسائر المعضلات والمشاكل.

- يحث على الانفتاح على كل الوسائل الشرعية المتاحة واستثمار تنوعها ضمانا للاستمرارية والتطور ومواكبة العصر.

- يستشرف المستقبل انطلاقا من الواقع، وينظر إلى مآلات الأحداث قبل الإقدام على الفعل.

- يراعي التدرج والمرحلية في الدعوة، ويتأسس على مراعاة الأولويات وتقديم الأهم على المهم في الممارسة والتنزيل.

- يحرص على كل ما يجمع كلمة الجالية المسلمة، ويوحد صفوفهم من أصول معتبرة وثوابت راسخة، ويجتنب ما أمكن الخوض في كل ما يفرق شؤونهم وينشر الشقاق بينهم ويهدم أواصر الأخوة.

- يجتنب المذهبية الضيقة والحزبية البغيضة، ويحارب نتائجها السلبية من تفرقة وتمييز، وانتشار الضعف والوهن والتخلف، وإزهاق الأرواح وهتك الأعراض وذهاب الأموال.

- يسهم في الحفاظ على الأمن العام بالانطلاق من ترسيخ الإيمان في القلوب لأن الأمن لا يتحقق إلا بتوحيد الله والإخلاص له وتحكيم شريعته واجتناب المنكرات بالنسبة للفرد والمجتمع.

- يتحمل مسؤولية كبيرة في إشاعة قيم التقارب والتعارف والتعايش بين الناس وترسيخها بين مختلف الفئات الاجتماعية خاصة الشباب منهم لما لذلك من أثر على استقرار وأمن المجتمع وانسجام مكوناته وتكاملها وتعاونها على ما يحقق المصلحة العامة والرقي والازدهار.

- يشجع على الانفتاح الواعي على فكر الآخرين من غير انهزام لأن من شأن ذلك أن يوفر فرصا للتلاقي والحوار، ومن ثم إيجاد أرضية من التفاهم الإنساني وتوفير مناخ هادئ من الاحترام والفهم وتجاوز لكثير من الإشكاليات الموجودة في هذا الجانب أو ذاك.

- يجتهد في نشر التعايش بين الناس والتراحم والتعاطف والتكافل الاجتماعي تحقيقا لمبدأ الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

- يحذر من خطورة الانحرافات الفكرية ومن الأفكار والتصورات المتطرفة لما لها من أثر مهلك في الدنيا والآخرة.

- يولي أهمية أكبر لفئة الشباب من خلال تنويع الأنشطة التواصلية الدعوية وإشراكهم في تنظيمها والإشراف عليها، وتدريبهم على قيم وضوابط تدبير الاختلاف واستغلال طاقاتهم في مختلف الأعمال الإبداعية النافعة.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- صحيح الإمام البخاري.
- صحيح الإمام مسلم.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب.
- ابن تيمية، "العبودية"، تحقيق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، ط 7، 1426هـ - 2005م.
- ابن القيم، "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، تحقيق: حمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م.
- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط .
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف، مصر.
- البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.
- السعدي عبد الرحمان بن ناصر، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، دار ابن حزم، بيروت.
- الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة.
- عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهماً وتنزيلاً.
- محمد الكتاني، ثقافة الحوار في الإسلام: من التأسيس إلى التأصيل، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدار البيضاء.
- خلاف عبد الوهاب، علم أصول الفقه، دار الكتب العلمية، بيروت.
- علوان، عبد الله ناصح، الإسلام شريعة الزمان والمكان، دار السلام، القاهرة.
- أحمد عبدالله الطيار،"تأويل الخطاب الديني في الفكر الحداثي الجديد"، حولية كلية 4- أصول الدين القاهرة، سنة(2005) العدد (22)، المجلد الثالث.

المقالات على الأنترنت:

- محمود حمدي زقزوق، التفاهم في الإسلام، مجلة التسامح، العدد الأول: http://www.altasamoh.net
- عبدالكريم بكار، تفسير قوله تعالى:" ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً"، موقع صيد الفوائد: http://www.saaid.net
- عبدالسلام حمود غالب، الوسطية في الخطاب الديني وأثره على المجتمع: http://www.alukah.net
- عبد المجيد النجار، "نحو تأصيل فقهي للأقليات المسلمة في الغرب"، بحث منشور بموقع: http://www.feqhweb.com

الكلمة الختامية

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وبعد:

ففي صباح اليوم الأخير من أيام هذه الندوة المباركة ، وعقب الجلسة الأخيرة من جلساتها يسعدني أن أتلو على مسامعكم الكلمة الختامية ، وهي كلمة مجموعة البحث في مناهج الاستمداد والاستدلال من القرآن والسنة وكلمة اللجنة المنظمة.

أتينا على ختم هذا المؤتمر العلمي وفي الذاكرة ما فيها من ذكريات حديثة التسجيل: ذكريات التعارف والتآلف ، ذكريات المطارحات العلمية والحوار الأكاديمي الشفاف والهادف ، ذكريات متعددة حامت حول موضوع واحد ، موضوع له جاذبيته الحية والواقعية ، إنها صلة رحم علمية ، ومعالجة معرفية لموضوع يشغل بالنا جميعا.

أيها السادة والسيدات:

مجموعة البحث هي مجموعة تنتمي إلى شعبة الدراسات الإسلامية ، وشعبة الدراسات الإسلامية تنتمي إلى كلية الآداب داخل جامعة القاضي عياض ، مجموعة تُستهدى بالقوانين ، وتسير وفق قانونها الأساسي ، وتلتزم بما لأجله وُجدت وهو البحث العلمي ، والتفتح على المحيطين المحلي والدولي ، والاهتمام بمعالجة القضايا الحية والمعاصرة ، وإننا نعلن من منطلق هذه الكلمة أن هذه الندوة حققت المراد منها بمؤشرات دالة وواضحة:

1- حققت الأهداف المنصوص عليها في ورقة العمل المُقدمة.

2-الالتزام الكامل والتقيد الدقيق بمحاور الندوة وبجلساتها المدرجة في أيامها .

3-الفاعلية والجدية التي طُبعت بها كافة بحوث المتدخلين، والصدق في المطارحات ، والجرأة في المعالجات مما أكسب الموضوع دُسمة من جهة المعالجة العلمية.

4-التنوع في الحقول المعرفية ، والتخصصات الأكاديمية: قانون وأدب وفلسفة وتاريخ وعلم النفس وعلوم تسيير وإدارة وعلوم شريعة ...، ونستطيع الجزم من دون تردد بأن الندوة حطمت رقما قياسيا في تكامل العلوم والمعارف .

5-الغيرة الصادقة على الوطن والدين والعلم ، واستلهام أسس معالجة الموضوع من إمارة المؤمنين مظلة الشأن الديني في بلدنا الأمين .

6-لا يوجد غياب أو تأخر في إلقاء البحوث العلمية ، فالالتزام والانضباط سمة أخلاقية عالية تحلى بها المشاركون.

7- خروج الندوة بتوصيات مهمة من أبرزها على المستوى الإجرائي والتنظيمي التفكير في نسخة ثانية للموضوع ، وقد أخذنا موثقا على ذلك.

-7 تنوع في الاستفادة العلمية بجمع الأساتذة الجامعيين مع الدكاترة والطلبة الباحثين في سلك الدكتوراه في صف واحد من حيث المشاركة العلمية .

وأخيرا:

فإن مجموعة البحث في "مناهج الاستمداد والاستدلال من القرآن والسنة وتطبيقاتها المعاصرة" لتتقدم بالشكر الجزيل إلى رئاسة جامعة القاضي عياض، وإلى عمادة كلية الآداب، والطاقم الإداري المسير على حسن المساعدة ومد يد العون لإنجاح هذا المؤتمر، كما أن الشكر موصول إلى شركائنا في المؤتمر جميعا وأخص بالذكر فضيلة الأستاذ الدكتور العربي بوسلهام رئيس فريق البحث وتكوين الدكتوراه " الفكر الإسلامي وقضايا المجتمع والبيئة في العالم المتوسطي " وطلبته في مركز الدكتوراه، وكل الطلبة والأساتذة الباحثين الذين حجوا إلينا من ربوع المملكة الشريفة، والشكر موفور أيضا إلى أساتذة شعبة الدراسات الإسلامية بمراكش على حضورهم ومشاركتهم الفاعلة والمتميزة، كما لا يفوتنا في هذه الكلمة أن نقدم شكرا خاصا لمنسق هذه الندوة الدكتور سعيد النكر، وإلى كافة الطلبة الباحثين في اللجنة التنظيمية .

نشكر الجميع ، وإلى ملتقى قريب إن شاء الله ،

وصلى الله على سيدنا محمد.

المشرف على الندوة

أ.د. محمد خروبات